مدن تراثية ١

الفسطاط

النشأة.. الإزدهار.. الانحسار

خالد عزب



دار الآفاق العربية
القاهرة



الفُسْطَاط

النشأة.. الازدهار.. الانحسار



الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

دار الآفاق العربية

القاهرة - ٥٥ شارع محمود طلعت

(من شارع الطيران) - مدينة نصر

تليفون : ٢٦١٠١٦٤

رقم الإيداع :٢١١٧ لسنة ١٩٩٨

الترقيم الدولى : 977-5727-15-4

الفسطاط

النشأة.. الازدهار.. الانحسار

خالد عزب





إهداء

إلى الأصدقاء الأعزاء:

الدكتور محمد الجمل

المدرس بجامعة الإسكندرية

الدكتور محمد حسام الدين إسماعيل

المدرس بجامعة الإسكندرية

المهندس علاء حبشى

بمركز البحوث الأمريكى

محمد الشقاوى

بمنطقة آثار مصر القديمة

الصداقة فى هذا الزمن عملة نادرة

خالد عزب

« الفسطاط مدينة حسنة ، ينقسم النيل لديها ، وهى كبيرة نحو ثلث فرسخ ، ومقدارها نحو فرسخ ، على غاية من العمارة والطيبة واللذة ، ذات رحابة فى مجالها وأسواق عظام فيها ومتاجر فخام ، ولها ظاهر أنيق وبساتين نضرة ، ومنتزهات خضرة » .

ابن هرقل

والذى أنشد فى الفسطاط شعراً قال فيه :

نزلنا من الفسطاط أحسن منزل ... بحيث امتداد النيل قد دار كالعقد
وقد جمعت فيه المراكب سحره ... كسرب القطا أضحى يزف على ورد
وأصبح يطغى فيه الموج ويرتمى ... ويطغو حنانًا وهو يلعب بالنرد

وروعة بساتين الفسطاط وجمال المدينة جعلا الشريف العقيلى يقول فيها :

احن إلى الفسطاط شوقا وإننى ... لأدعو لها ألا يحل بها القطر
وهل فى الحيا من حاجة لجنانها ... وفى كل قطر من جوانبها نهر
تبدت عروسا والمقطم تاجها ... ومن نيلها عقد كما انتظم البدر

وازدهار الحركة الصناعية بالفسطاط جعلا ابن سعيد المغربى يقول :

« وبمدينة الفسطاط مطابخ السكر ومطابخ الصابون ومسابك الزجاج ، ومسابك الفولاذ ، ومسابك النحاس والوراقات ، مما لا يعمل فى القاهرة ولاغيرها من الديار المصرية » .

تلك هى الفسطاط فيها نرحل إليها

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أهملت مدينة الفسطاط من قبل الكتاب والباحثين المسلمين ، فلم تدرس إلى الآن بنفس الكثافة التى درست بها المدن الإسلامية الأولى كواسط والكوفة والبصرة والقيروان . . الخ ، وكما انتصر لها ابن دقماق فى القرن الثامن الهجرى فى كتابه الانتصار لواسطة عقد الأمصار التى هى الفسطاط ، فنحن فى هذا العمل ننتصر للفسطاط أولى عواصم مصر الإسلامية فى القرن الخامس عشر الهجرى فى محاولة لرسم تصور شامل للمدينة فى عصور ازدهارها وانحسارها ، ولنذكر أهل عصرنا بالصحابة والتابعين والمجاهدين الذين شاركوا فى تأسيسها ، وقصة مدينة الفسطاط قصة مدينة شهدت فترات متعاقبة من تاريخ مصر ، حتى صارت شاهدة عيان على ما آل إليه حال مصر من ضعف فى نهاية عصر العبيد بين (الفاطميين) لخص لنا الوطواط (**) قصتها فى الأسطر التالية :

الفسطاط : ولما فتحه (عمرو بن العاص) أمر من كان معه من قبائل

(**) الوطواط ، محمد بن إبراهيم بن يحيى الكتبى ، من مباهج الفكر ومناهج العبر ، ص ٧٤ ، تحقيق د . عبد العال الشامى ، الكويت ، السلسلة التراثية ، ١٩٨١ م .

العرب ان يختطوا حول فسطاطه ففعلوا واتصلت العمارة ببعضها البعض وسمى مجموع ذلك الفسطاط .

ولم يزل ثغر الولاة والجند إلى أن وليه أحمد بن طولون فضاق بالجند والرعية فبنى بشرقية مدينة سماها القطائع واسكنها الجند يكون مقدارها ميلافى ميل وبنى فيها جامعا . . . .

ولما آذنت دولتهم (الدولة الطولونية) بالانقراض بعث محمد بن سليمان من قبض على من بقى منهم (بنى طولون) وهدم ابنيتهم وابنية اتباعهم واشياعهم حتى لم يبق لها أثر وذلك فى زمن المكتفى سنة ٢٩٢ هـ وابقى الجامع .

ثم ملك العبيديون مصر فى سنة ٣٥٨ هـ فبنى جوهر القاهرة وبنى فيها القصور لمولاة المعز بن المنصور بن القايم بن المهدى فصارت بعد ذلك دار الملك ومقر الجند .

ولما انقرضت دولة العبيديين وملكوا الغز مصر وذلك فى سنة ٥٦٤ هـ بنى صلاح الدين يوسف بن أيوب سورا جامعا بين مصر والقاهرة ولم يتم . وطول هذا السور ٢٩ ألف ذراع و ٣٠٠ ذراع بالذراع الهاشمى .

فأما الفسطاط فهو من العظم بحيث أنه يقام فيه الجمعة وفى ضواحيه المتصلة به فى اثنى عشر جامعاً على انه فى عصرنا ـ أى فى العصر المملوكى البحرى ـ على العشر أو أقل مما كان قبل ان تملكه الغز . وبناء دورة طبقات بعضها فوق بعض حتى ينتهى إلى خمس طبقات وست .

وفيه رباع يكون فى الربع منها من عشرة مساكن إلى مائة وله سوقان فى الجمعة (يوم الاحد ويوم الأربعاء) .

تلك هى مدينة الفسطاط والتى سنرحل اليها عبر الصفحات التالية رحلة تجمع بين عراقة المكان وتقلبات الزمان .

خالد عزب



الفصل الأول

الفسطاط .. النشـأة

قبل الفسطاط .. كان الفتح

جاء أول تفكير فى فتح مصر بعد إتمام فتح الشام ، حينما اجتمع الخليفة عمر بن الخطاب بقواده سنة ١٨ هـ فى بلدة الجابية بالجولان بالقرب من دمشق . فى هذا المؤتمر العسكرى تقرر فتح مصر بقيادة عمرو بن العاص [١] الذى سبق له فى الجاهلية أن زارها وخبر مسالكها . وهو معدود من دهاة العرب لشدة ذكائه وحسن بلائه وسعة حيلته .

خرج عمرو بن العاص من مدينة قيسارية بفلسطين على رأس قوة من أربعة آلاف مقاتل فى أواخر سنة ١٨ هـ/ ٦٣٩ م واجتاز رفح والعريش عند الحدود المصرية دون مقاومة لخلوها من الحصون . ثم سلك الطريق الساحلى وهو الطريق الذى سلكه من قبل كبار الفاتحين والتجار منذ أقدم العصور .

---

(١) هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سهم القرشى السهمى . أسلم سنة ثمان هو وخالد بن الوليد عثمان بن طلحة وقدموا المدينة مسلمين ، ولاس عمر بن الخطاب قيادة جيش فلسطين بعد وفاة يزيد بن أبى سفيان ، ثم سيره لفتح مصر فافتتحها وأقره عثمان ثم عزله عنها . وولى عبد الله بن سعد بن أبى سرح العامرى ، ولما قتل عثمان سار عمرو إلى معاوية بن أبى سفيان وشهد معه صفين وكان حكما له . ولا معاوية على مصر ، وتوفى بها سنة ٤٣ هـ/ ٦٦٤ م ، وله من العمر ٩٣ عاما .

بلغ عمرو مدينة الفرما Pelusium [١]، وهى مدينة قديمة حصينة عند رأس الطريق الصحراوى المؤدى إلى داخل مصر ، ولذا كانت تسمى بمفتاح مصر . وبعد حصار استمر شهراً كاملاً إستولى عليها عنوة فى أوائل سنة ١٩ هـ ثم دمرها تماماً لكى لا يستفيد العدو من موقعها الإستراتيجى فيقطع عليه خط الرجعة . واصل عمرو السير جنوباً متجنبا الأراضى الزراعية والموانع المائية فى الدلتا ، ومستفيداً من الأراضى الصحراوية التى يحسن العرب القتال فيها إلى أن بلغ مدينة بلبيس فاستولى عليها بعد الوقوف أمام حصونها شهراً آخر .

اتجه عمرو بعد ذلك نحو النيل واستولى على قرية أم دنين [٢] وهى مرفأ نيلى شمال حصن بابليون ، وتكبد عمرو فى هذه العملية خسائر فادحة نتيجة للهجمات التى كان يشنها الجيش البيزنطى المتمركز فى حصن بابليون على جيش عمرو .

اشتبك جيش عمرو مع البيزنطيين فى موقعة هليوبوليس أو عين شمس ، وانتصر جيش عمرو على الجيش البيزنطى بقيادة تيودور . ويرجع الفضل فى نصر عين شمس إلى الخطة التى اتبعها عمرو فى هذه المعركة ، إذ أنه أرسل فى جنح الظلام كمينا من جنده استقر غرباً فى أم دنين ، كما أرسل كمينا آخر اختبأ فى تلال المقطم شرقاً . ثم لجأ عمرو

---

(١) تقع الفرما مشرق مدينة بورسعيد ، وقد أجرى المجلس الأعلى للآثار حفائر أثرية بها كشفت عن قلعتها وآثار هامة أخرى بها .

(٢) تقع أم دنين فى الموقع المحصوريين ميدان رمسيس وحديقة الأزبكية بالقاهرة .

إلى الدهاء لكى يخرج الرومان من حصنهم ، فتظاهر بالهزيمة والتقهقر فانخدع الرومان وتبعوه ، وإذا بكمين المقطم ينقض عليهم ويحول بينهم وبين الرجوع إلى الحصن ، فارتدوا غربا نحو أم دنين ، وإذا بالكمين الثانى ينقض عليهم وتدور الدائرة عليهم وتعتورهم السيوف من كل جانب فلم ينج منهم إلا القليل .

شدد عمرو بعد ذلك الحصار على حصن بابليون لأهمية موقعه الاستراتيجى ، فهو يقع على رأس الطريق المؤدى إلى العاصمة الإسكندرية ، كما أنه يحتل مكانا وسطا بين الصعيد والدلتا ، مما أعطاه قيمة عسكرية تستوجب إحتلاله .

بعد حصار دام سبعة أشهر ، وأمام شدة تصميم المسلمين على القتال ، اضطر قيرس إلى عقد مشروع معاهدة تنهى الحرب بين الفريقين حقنا للدماء ، وهى معاهدة مصر أو معاهدة حصن بابليون الأولى[١] ثم رحل المقوقس إلى القسطنطنية لعرض المشروع على الإمبراطور هرقل الذى غضب لهذه المعاهدة التى تقضى بتسليم مصر للعرب رغم وجود جيش بيزنطى كبير فيها ، واتهم قيرس بالخيانة والجبن وأمر بنفيه ، ولما علم المسلمون برفض هرقل لشروط الصلح ، شددوا الحصار على الحصن . ثم توفى هرقل بعد ذلك بقليل ، فكان لنبأ وفاته وقع سىء على الجنود البيزنطيين المحصورين إذ قضى على كل أمل فى وصول إمدادات

---

(١) أورد نص هذه المعاهدة القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، حـ ١٣ ، ص ٣٢٤ .

لهم، وحمل المسلمين على الحصن حملة صادقة إنتهت بسقوط الحصن في أيديهم في سنة ٢٠ هـ/ ٦٤١ م .

وقبل الروم شروط الصلح التى تقضى بتسليم الحصن للمسلمين بكل ما فيه من ذخائر وأسلحة ، وأن يخرج الروم منه إلى الإسكندرية فى ظرف ثلاثة أيام . على أن هذا الصلح لم يكن معناه نهاية الحرب بين العرب والروم ، إذ كانت العاصمة وهى مدينة الإسكندرية مازالت فى أيدى الروم ، وكانت محصنة تحصيناً قوياً وعلى إتصال دائم بالإمبراطورية البيزنطيه من جهة البحر .

عبر عمرو بن العاص النيل إلى الضفة الغربية وإتجه شمالاً بحذاء فرع رشيد متغلباً على المقاومات التى صادفها فى طريقة حتى وصل الإسكندرية فهالته قوة أسوارها لدرجة أنه صلى يومئذ بجيوش المسلمين صلاة الخوف ، ثم شرع فى حصارها . وكانت حصنا من دون حصن على حد قول ابن عيد الحكم .

كان الإضطراب آنذاك يسود القسطنطنية بسبب وفاة هرقل وقيام نزاع بين ولديه قسطنطين وهرقل الثانى حول العرش . وإزاء هذه الفتن الداخلية رأى الحكام البيزنطيون العليمون بسير الأمور فى مصر ، ضرورة إنهاء الحرب مع المسلمين . فاستدعى قيرس من منفاه وأرسل إلى مصر لإنهاء الحرب بأحسن شروط ممكنة .

فى نوفمبر ٦٤١ م / ٢٠ هـ تم إبرام المعاهدة النهائية بين قيرس وعمرو بن العاص فى حصن بابليون . ولذا أطلق عليها معاهدة بابليون الثانية

تمييزاً لها عن الأولى . وسميت كذلك بمعاهدة الإسكندرية لأنها خاصة بأهل الإسكندرية ومن أهم شروطها :

١ ـ جلاء الجيش البيزنطى عن الإسكندرية فى ميعاد غايته أحد عشر شهراً من تاريخ عقد المعاهدة .

٢ ـ أن يضمن عمرو لأهل المدينة حريتهم الشخصية والدينية وسلامة أرواحهم وممتلكاتهم .

٣ ـ أن يدفع كل من فرضت عليه الجزية دينارين فى كل سنة ويعفى الشيوخ والنساء والصبيان والرهبان .

٤ ـ اشترطت المعاهدة بقاء اليهود فى مدينة الإسكندرية ، ويقال ان عددهم بها كان كبيراً .

دخل عمرو بن العاص الإسكندرية بعد جلاء الجيش البيزنطى عنها ، وتوفى قيرس بعد ذلك بقليل ، وفتح عمرو إقليم برقة الذى كان يتبع مصر آنذاك .

تجدر الإشارة هنا إلى المساعدات القيمة التى قدمها المصريون إلى الجيش المسلم أثناء حروبه مع البيزنطيين ، إذا أصلحوا لهم الطرقات وأقاموا لهم المنازل والجسور وأمدوهم بالطعام وعلف الحيوان . . الخ . وقد كان لهذه المساعدات أثرها فى إتمام الفتح [1] .

---

(١) د . أحمد مختار العبادى ، أحداث مصر الإسلامية والمغرب والأندلس ، من ص ٤٥٣ : ص ٤٥٩ ، فى كتاب أزمنة التاريخ الإسلامى ، الكويت ١٩٨٢ م .

وتجب الإشارة هنا إلى أن المجتمع المصرى كان ينقسم إلى مناطق يعيش فيها المحتلون البيزنطيون معزولة إلى حد ما عن المصريين ، وكانت هذه المناطق ذات طابع يونانى رومانى ، وهؤلاء إختلفوا مع المصريين الذين يدينون بالمسيحية فى مذهبهم الدينى ، وما ترتب على ذلك من اضطهاد المحتل لهم .

والأمر الآخر الهام هو أنه قد حدث زلزال فى مصر فى أوائل القرن السابع الميلادى ، دمر أجزاء كبيرة من مدن الدلتا وقراها ، ومازالت شواهد هذا الزلزال باقية إلى اليوم فى التلال الأثرية فى مطوبس وسيدى سالم وفوة ودمنهور وتل بسطا وإبطو . . وغيرها من المراكز العمرانية بالدلتا ، وتجرى ببعض هذه الأماكن أعمال حفر أثرى كشفت عن أحداث كثيرة مجهولة فى تاريخ مصر ، وهذا الزلزال أدى إلى تناقص سكان مصر قبيل الفتح الإسلامى لمصر .

الفسطاط .. النشأة

أدت التطورات التى صاحبت حركة الفتوحات الإسلامية فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، إلى تأسيس عدد من المدن أو القواعد العسكرية ، التى تحولت فيما بعد إلى مدن ، وكان لتأسيس هذه القواعد أثره فى تطور عمارة المدن الإسلامية ، أول هذه المدن هى البصرة التى أسسها عتبة بن غزوان سنة ١٢ هـ/ ٦٣٣ م ، والكوفة التى أسسها سعد بن أبى وقاص سنة ١٧ هـ// ٦٣٨ م . وتلتها الفسطاط سنة ٢١ـ/ ٦٤٢م.

**** موقع الفسطاط**

يقول المقريزى عن موقع الفسطاط « اعلم أن موقع الفسطاط الذى يقال له اليوم مدينة مصر كان فضاء ومزارع فيما بين النيل والجبل الشرقى الذى يعرف بجبل المقطم ، ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن يعرف بعضه اليوم بقصر الشمع وبالمعلقة ينزل به شحنة الروم المتولى على مصر من قبل القياصرة ملوك الروم عند مسيرة من مدينة الإسكندرية

ويقيم فيها ما يشاء ثم يعود الى دار الامارة [1]هكذا تحدث المقريزى عن موقع مدينتنا الفسطاط ، فعندما فتح المسلمون مصر ، كانت الإسكندرية عاصمة البلاد ، ففكر عمرو بن العاص فى أن يتخذها قاعدة للادارة والجيش ، ألا أن عمر بن الخطاب لم يوافقه على ذلك ، وأمره بانشاء مدينة جديدة لا يفصله عن المسلمين فيها ماء فى شتاء ولا فى صيف . فاختار عمرو موقع المدينة ـ التى عرفناها فيما بعد بالفسطاط [2].

وأغلب الظن أن عمرو قد فطن إلى أهمية ومميزات هذا الموقع والتى يمكن اجمالها فى الآتى : ـ

ـ إن فى اختياره ارضاء للمصريين الذين بغضوه فى الإسكندرية باعتبارها رمزا لظلم الرومان واضطهادهم لهم [3].

ـ كذلك من الأفضل لعمرو وجماعته اقامتهم عند حصن بابليون ، الذى سموه بقصر الشمع فيما بعد ، فى قلب مصر حيث العناصر الوطنية المسالمة التى كانت تنظر للمسلمين كمنقذين لهم من ظلم الرومان[4].

---

(١) المقريزى ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، حـ ١ ، ص ٢٨٦ .

(٢) د . عبد الرحمن زكى ، الفسطاط وضاحيتها العسكر والقطائع ، ص ٥ المكتبة الثقافية ١٥٨ ، ١٩٦٦ م .

(٣) د . حسن الباشا ، دراسات فى الحضارة الإسلامية ، ص ١٩٣ ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٥ م .

(٤) د . حسن الباشا ، مدخل إلى الآثار الإسلامية ، ص ٥٦ .

ـ أيضا كان هذا الموقع يمتاز بحصانة طبيعية اذ تحميه تلال المقطم من الشرق والجنوب ويحميه من الغرب خندق مائى طبيعى هو نهر النيل الذى كان فى الوقت نفسه يصل بين الشمال والجنوب (١) .

ـ يقع عند رأس الدلتا وهو بذلك يشرف على جميع طرق الملاحة فى فروع النيل وعلى جميع طرق القوافل فى الصحراء ويسهل انتقال الجيوش منها إلى أى جهة فى الوجه القبلى أو البحرى برا أو بحرا مادامت فى مركز متوسط بين الوجهين وذلك لقمع أى فتنة فى البلاد ضد النظام الجديد (٢) .

ـ من مزايا موقع الفسطاط أيضا توفر الشرط الذى يجب أن يعنى به فى بناء المدن وهو ان يكون لها جانب يمكن أن يطرد فيه اتساعها وهذا الاتجاه بالقياس إلى الفسطاط هو الشمال فلما أريد توسعتها بنيت العسكر ، ثم القطائع ، فالقاهرة ، وفى العصر الحديث شيدت العباسية ، ثم مصر الجديدة فمدينة نصر (٣) .

ـ وأخيرا جاء هذا الموقع متفقا مع طبيعة وحياة العرب البدوية من حيث وجود الماء والصحراء (٤)فقد كان من طبيعة العرب وعاداتهم أنهم

---

(١) د . حسن الباشا ، قبل ان تكون القاهرة ، ص ١٣ .

(٢) فؤاد فرج ، القاهرة ، حـ ٢ ، ص ٢٨٧ ، ٣١٦ .

(٣) د . عبد الرحمن زكى ، المرجع السابق ، ص ٦ .

(٤) بارتولد (ف) تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ٩٤ . ط ٥ دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٣م .

محمود الحسينى ، التطور العمرانى لعواصم مصر الإسلامية ، ص ١٨ ، رسالة دكتوراه غير منشورة بمكتبة جامعة القاهرة ، ١٩٨٧ م .

إذا نزلوا مكانا واطمئنوا إلى وجود ماء لا ينضب وأرض تنبت النخيل والحب فتأكل الأبل والشياه ، أقاموا فيه [١] ، ويؤكد ذلك أن عمرو بن العاص عندما استشار أصحابه أين ينزل ؟ فقالوا : ترجع أيها الأمير إلى فسطاطك فتكون على ماء وصحراء [٢] .

كانت الفسطاط تشغل مساحة طولها من الشمال إلى الجنوب فى حدود خمسة آلاف متر وعرضها من الشرق (حيث جبل المقطم) ، الى الغرب (حيث النيل) حوالى ٣٨٠٠ م [٣] .

*** تسميتها**

تضاربت أقوال الباحثين حول سبب اطلاق اسم الفسطاط على مدينة المسلمين الجديدة بمصر ، يقول القزوينى : « الفسطاط هى المدينة المشهورة بمصر ، بناها عمرو بن العاص ، قيل : انه لما فتح مصر عزم الإسكندرية فى سنة عشرين ، وأمر بفسطاطة أن يقوض فإذا يمامة قد باضت فى أعلاه فقال : تحرمت بجوارنا ، اقروا الفسطاط حتى يفقس وتطير فراخها ، ووكل به من يحفظه ومضى نحو الإسكندرية وفتحها ، فلما فرغ من القتال قال لأصحابه : أين تريدون تنزلون ؟ قالوا : يا أيها الأمير ترجع

---

(١) نقولا زيادة ، لمحات من تاريخ العرب ، ص ٢٢٩ ، دار الكتاب اللبنانى ، سنة ١٩٦١ .

د . محمود الحسينى ، المرجع السابق ، ص ١٨ .

(٢) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، حـ ٤ ، ص ٢٦٣ .

د . محمود الحسينى ، المرجع السابق ، ص ١٨ .

(٣) د . محمود الحسينى ، المرجع السابق ، ص ٢٥ .

إلى فسطاطك لنكون على ماء وصحراء ! فرجعوا إليها وخط كل قوم بها خطاً بنوا فيها وسمّى بالفسطاط [1].

وهذه الرواية شاعت عند المؤرخين المسلمين ، غير ان بعض العلماء المحدثين يعتبرون هذه القصة اسطورة من نسج الخيال ومن نمط الأساطير التى تحاك عادة حول تأسيس بعض المدن أو تشيد بعض المؤسسات[2].

ويعتقد بعض المستشرقين ان كلمة فسطاط قد اشتقت من أصل يونانى هو « فسطاطوم » اسم المدينة أو الحصن أو الخندق الذى كان عند بابليون حرفه العرب إلى فساط ثم إلى فسطاط . ويرى الدكتور حسن الباشا ان هذا الزعم لا يسنده أى دليل من التاريخ ، ولا يتفق مع منطق الأحداث . وهو رأى صائب . ونتفق معه فيه .

وهناك رأى آخر يقول ان الفسطاط ومعناها المخيم قد أخذت من المخيم الذى كان قد نصبه جيش عمرو عند محاصرته حصن بابليون وقد صار يطلق على المدينة التى شيدت مكانه . على أنه مما تجدر ملاحظته أن « فسطاط » لفظة عربية كانت تطلق أيضا على المدينة ومجتمعها . وقد جاء فى الحديث عن النبى (ص) انه قال-: « عليكم بالجماعة فان يد الله على الفسطاط » أى مع المدينة التى بها مجتمع الناس . ومما له دلالته ايضا أن البصرة أيضا كان يقال لها الفسطاط ولذا فمن المرجح ان المسلمين

(١) زكريا بن محمد بن محمود القزوينى ، آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٢٣٦ .

(٢) د . حسن الباشا ، قبل أن تكون القاهرة ، ص ١٤ .

قد اطلقوا على المدينة التى أسسوها فى مصر اسم الفسطاط بمعنى المدينة كما اطلق على البصرة ايضا الاسم نفسه وكما اطلق من قبل على يثرب اسم المدينة وقد ذكرت المدينة فى القرآن الكريم بضع مرات مثل « ما كان لاهل المدينة ومن حولهم من الاعراب ان يتخلفوا عن رسول الله » سورة التوبة الآية ١٩ [١].

** خطط الفسطاط

بدأ عمرو بن العاص أولى خطواته فى تخطيط المدينة بتشييد مسجده الجامع والذى سمى فى بعض الأحيان بالجامع العتيق وبجامع عمرو بن العاص ، وفى احيان أخرى بجامع الفتح وتاج الجوامع . كما عرف بمسجد أهل الراية وهم نخبة من الأنصار والمهاجرين - كانوا يؤلفون بعض قوات عمرو [٢].

- ورغم صغر حجم الجامع البالغ مساحة ٢٥ × ١٥ مترا (٥٠ × ٣٠ ذراعا) [٣]. إلا أنه كان أساس التنظيم العمرانى للمدينة [٤] فقد التفت حوله بقية مراكزها العمرانية كما كان يسيطر على حياة المدينة إجتماعيا وإقتصاديا لوقوعه على النيل واحاطته بالأسواق ، ولذا كانت له أهمية كبيرة فى الحياة السياسية والادارية لوقوعه بجوار دار الامارة حيث أقام

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٤ .
(٢) عبد الرحمن زكى ، حواضر العالم الإسلامى ، ص ٢ مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٩م.
(٣) د . حسن الباشا ، قبل أن تكون القاهرة ، ص ١٦ .
(٤) د . حسين مؤنس ، تاريخ مصر من الفتح العربى إلى أن دخلها الفاطميون حـ ٢ ، ص ٣٧٧ موسوعة تاريخ الحضارة المصرية .

عمرو لنفسه دارا في شرق الجامع سميت هذه الدار باسم « دار عمرو الكبرى » كما بنى ابنه عبد الله بن عمرو دارا ملاصقة لدار أبيه عرفت بدار « عمرو الصغرى » وترك عمرو بن العاص أمام داره فضاء أى ميدانا واسعا لموقف دواب الجند من خيل وجمال وحمير [1].

ولما وجد عمرو أن هذه القبائل تتنافس على المواضع المحيطة بالمسجد فما كان منه ألا أن أختار أربعة من قواده يمثلون القبائل الكبرى للفصل بينهم وتقسيم الخطط بينها حتى لا ينشب بينها نزاع وهؤلاء الأربعة الذين أسندت اليهم هذه المهمة هم معاوية بن صريح النجيمى ، وشريك بن سمى القطيفى ، وعمرو بن قحزم الخولانى ، وحويل بن ناشر السنافرى ، وباشر هؤلاء الأربعة توزيع القبائل على الخطط (فأنزلوا الناس وفصلوا بين القبائل [2]وعلى كل حال فان هذا البناء فى تلك المرحلة المبكرة كان يمثل نظاما إسلاميا خالصا ، وجاء وفق التوجهات الدينية والسياسة وما ترمى إليه الادارة المركزية بالدولة الإسلامية وكان طبيعيا أن تأخذ خطط الفسطاط فى أول عهود مصر بالإسلام قدرا من

---

(١) د . محمود الحسينى ، المرجع السابق ، ص ٢٦ .

(٢) يذكر المقريزى (أن الخطط التى كانت بمدينة الفسطاط بمنزلة الحارات التى هى اليوم بالقاهرة ، فقيل لتلك فى الفسطاط خطة وقيل لها فى القاهرة حارة ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ص ٢٩٦ .

وتعنى كلمة خطه أيضا ـ الأرض التى ينزلها الإنسان ولم ينزلها قبل نازل ، أو ما يخطه الإنسان لنفسه من الأرض أى يجعل لها حدودا ليعلم أنه نازلها وأنها له ، ثم اتسع معناها وصار يقصد به الحى الذى تختص به القبيلة أو أصحاب المهنة الواحدة أو طائفة من الناس عند تعمير مدينة من المدن .

الخصوصية بما يعكس لنا حياة أفراد القبائل فى تلك الحاضرة الوليدة[1].

وأهم ما يقابلنا من خصوصية ، شكلت حياة المسلمين فى ولاية عمرو بن العاص بطابع خاص أن الخطط فى بنائها قد صارت محكومة بأسس الدين وقواعد الأخلاق ، وموصولة أيضا بالرغبة فى استطابة الحياة بتأثير الضرورى نهوضا للتفرغ للجندية ونشر الجهاد واختطت القبائل خططها وبنيت الدور والمساجد وسميت هذه الخطط بأسماء القبائل والجماعات التى اختطتها ، وهكذا وزعت الخطط وتألف من مجموعها أول عاصمة إسلامية بالديار المصرية ، وأول نواة للعمارة الإسلامية بها [2].

بلغ عدد القبائل التى اختطت بالفسطاط نحو ست عشرة ومائة خطة ما بين قبائل وبطون موزعين على النحو التالى : ـ

* ثمان عشرة قبيلة وبطن من عدنان (عرب الشمال) .

* ست وثمانون قبيلة وبطن من قحطان (عرب الجنوب) وهم ثمان وخمسون لكهلان ، وسبع وعشرون لحمير ، واحد لسبأ .

* سبع قبائل من جنس غير عربى .

* خمس قبائل خاصة .

---

(١) د . محمد أحمد محمد ، مظاهر الحياة الاجتماعية بالفسطاط فى ولاية عمرو بن العاص ، ص ٧٨ ، ٧٩ ، مجلة التاريخ والمستقبل ، المجلد الثانى ، العدد الأول ، ١٩٩٢م.

(٢) د . محمود الحسينى ، المرجع السابق ، ص ١٣٠ .

ومما يلاحظ على مواضع هذه الخطط ، أن القبائل العدنانية اختطت جميعها إلى شمال الفسطاط ، ومعظم القبائل القحطانية إختطت إلى جنوب الفسطاط ، مما يرجح بان هذه القبائل راعت فى اختيار مواقعها بالفسطاط ان تكون متفقة مع موقع إقامتهم فى بلادهم الأصلية بالجزيرة العربية (١) .

كانت خطة أهل الراية أكبر الخطط وأعظمها وأهمها باعتبارها خطة الصحابة ومقر إقامة عمرو بن العاص والى البلاد فى ذلك الوقت ، وكانت فى مجموع قبائلها أقل من ربع قبائل الفسطاط جميعها بقليل ، حيث بلغ عدد قبائلها بغض النظر عن حجم وعدد أفراد القبائل - حوالى ست وعشرون قبيلة وهى كالآتى : -

* عدد القبائل العدنانية بها أربع عشر قبيلة .
* وعدد القبائل القحطانية بها اثنى عشر قبيلة (٢) .

ولما كانت القبيلة هى الوحدة الأساسية فى البناء البشرى . لجيش عمرو بن العاص وبالتالى لمدينته الجديدة ، كانت الخطة هى الوحدة الرئيسيّة فى البناء لهذه المدينة . فيها انعكس النظام الذى اعتاده العرب على معيشتهم من طباع وعادات وتقاليد ، لذا لا نكون مبالغين إذا قلنا ان الخطة فى عمران وتخطيط الفسطاط هى مرآة القبيلة طبعت بطابعها وجاءت متفقة مع متطلباتها . وأغلب الظن أن هذه الخطط لم تكن

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٣١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣١ .

متساوية فى مساحتها وان كلا منها لم يكن حيا واسعا بل قسمت الأرض حسب الظروف والحاجة [1].

ويرى محمود الحسينى أن هذا شىء طبيعى فالقبائل لم تكن متساوية فى عدد من جاء منها إلى مصر [2].

وعلى سبيل المثال . خطة عبد الرحمن بن ملجم التى أعطيت له بأمر الخليفة عمر بن الخطاب ليتخذ منها منزلا يعلم الناس فيه القرآن [3] فى حين نجد خطة المعافرين تكاد تكون قد شغلت أغلب الجهة الشرقية من الفسطاط ، أيضا خطط الحمراوات التى أخذت ما يقرب من نصف مساحة الفسطاط جميعها أو أقل قليلا .

وعلى ما يبدو أن هندسة الخطة (أو شكلها) كانت أول الأمر بسيطة [4] حيث تقيم القبيلة منازل لأفرادها على حدود خطتها وتترك ما يدور عليه فضاء وقد أخذ هذا الفضاء يضيق شيئا فشيئا ونتيجة الهجرات المتصلة التى كانت تتوافد على القبائل المتمركزة ، تحولت الفضاءات إلى تجمعات من المبانى تتخللها الدروب والأزقة .

---

(١) د . حسين مؤنس ، تاريخ مصر من الفتح العربى إلى أن دخلها الفاطميون ، ص ٣٧٧، الجزء الثانى ، ضمن كتاب تاريخ الحضارة المصرية .

(٢) محمود الحسينى ، المرجع السابق ، ص ١٣٣ .

(٣) محمود عكوش ، مصر فى عهد الإسلام ، ص ٢٥٤ . وهذه الخطة لا تعدو أن تكون دارا واحدة كبيرة كانت أم صغيرة .

(٤) د . فريد شافعى ، العمارة العربية فى مصر الإسلامية ، ص ٣٤٩ .
المجلد الأول ، عصر الولاة . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٠ م .

كذلك يمكن القول بأن كل خطة كانت تحتوى على مرافقها الخاصة بصورة مصغرة [1] وأول هذه المرافق هى مساجد الخطط . والمعروف أن أول ما بنى بالفسطاط هو المسجد الجامع وهو المسجد الرئيسى الذى يجتمع فيه المسلمون جميعا ويؤدون فيه فريضة الجمعة ، ولكن كان إلى جانب هذا المسجد مساجد أخرى صغيرة خاصة بالقبائل وتقع فى داخل خطط تلك القبائل ، ذلك أن عمر لما فتح البلدان كتب إلى ولاة البصرة والكوفة ومصر يأمر كلا منهم أن يتخذ مسجدا للجماعة ويتخذ للقبائل مساجد ، فاذا كان يوم الجمعة انضموا إلى مسجد الجماعة [2] . .

فكان لكل قبيلة مسجدها الخاص فى خططها وربما أكثر من مسجد وقد احتفظت المصادر بذكر العديد منها لاسيما مسجد لخم [3] ومسجد عنزة بن ربيعة [4]، ومسجد مهره [5]، والمسجد الأبيض [6] . . . الخ .

وأصبحت هذه المساجد تعرف فيما بعد باسم مساجد الصلوات الخمس ، ومن المعروف أن مسلمة بن مخلد أصدر أوامره عام ٥٣ هـ ٦٧٢ م إلى القبائل بأن تبنى كل منها منارة لمسجدها [7] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٤٨ .
(٢) المقريزى ، الخطط ، حـ ٢ ، ص ٢٤٦ .
(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٨٦ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٨٤ .
(٥) المصدر السابق ص ٨٧ .
(٦) الكندى ، الولاة والقضاة ، ص ٣٦٠ .
(٧) الكندى ، المصدر السابق ، ص ٣٨ .

وقامت مساجد الخطط بدور كبير فى حياة العاصمة لاسيما فى العصور الإسلامية الأولى ، فلم يكن المسجد مكان عبادة فحسب ، وإنما كان أيضا مكان إجتماع ومدرسة علم ، ومجلس حكم ، ولذلك كان لكل قبيلة مجلس وربما مجلسان ، مجلس فى مسجدها الخاص ، وثان فى المسجد الجامع .

ومن هذا يفهم أن المجلس كان مرفقا حيويا للقبيلة ففيه كان أبناؤها يجتمعون وعلماؤها يعلمون وقضاتها يحكمون ، وربما عن طريق هذه المجالس كانت تبلغ التعليمات الرسمية وقرارات الوالى إلى القبائل [١] .

كما كان فى كل خطة منسوبة إلى قبيلة ديوان أو سجل بالمقيدين فى الجند الرسمى من أهلها ، وفى دار الإمارة كان يوجد السجل العام أو الديوان وهو إدارة . إحصائية صغيرة تقوم بتسجيل العرب المشتركين فى الجيش .

كانت خطط الفسطاط تحتوى على الأسواق والحوانيت المفتوحة على الطرق والقيساريات [٢] وعلى المطاحن والأفران والحمامات والمساجد

---

(١) عبد الله خورشيد ، القبائل العربية فى مصر ، ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

(٢) قيسارية : يطلق هذا الاسم على أحد أنماط المبانى التجارية ويرجح أن الاسم مشتق من الكلمة اليونانية « قيصرية » بمعنى إمبراطورى ، أو السوق الإمبراطورى ، حيث أشار . تيرش ان الأجورا وما حولها من محلات تجارية قد أعطت الملامح الأولى للقيسارية ، والتى استعملت فى أول الأمر كمخازن بالإضافة إلى السكن ، وتوضح التسمية اليونانية ان هذه المبانى كانت تحت إشراف ملكى ، بينما القيسارية الإسلامية غلب عليها الطابع الخاص .

صالح لمعى ، التراث المعمارى الإسلامى فى مصر ، ص ٦١ ، دار النهضة العربية بيروت ، ١٩٨٤ م .

والمطابخ ، أى المصانع التى يصنع فيها السكر والصابون ، إلى غير ذلك[1] .

ولا شك أن مركز المدينة كان يوجد به سوق المدينة المركزى والمراكز الصناعية الكبرى ، ومن المرجح أن شاطئ الفسطاط على النيل شهد نشاطاً تجاريا متزايداً . خاصة إلى أن عمرو فطن إلى أهمية حفر القناة القديمة التى كانت توصل النيل بالبحر الأحمر . ولما كان هذا الخليج قد طمس فى كثير من أجزائه عند فتح المسلمين لمصر ؛ فقد أستاذن عمرو الخليفة عمر فى إعادة شقه فسمح له وسمى بخليج أمير المؤمنين ، وجرت فيه السفن ووصلت إلى الحجاز محملة بالغلال وأنواع البضائع المختلفة[2]كما خصص عمر مكانا بالمدينة لدفن المسلمين ، وهو ما عرف بعد ذلك بالقرافة .

* تحصين الفسطاط

لم يفكر عمرو وصحبه فى إحاطة عاصمتهم الجديدة بسور ، ولم يتخذوا من حصن بابليون مركزا للدفاع كما كان حاله أيام البيزنطيين ، إذ تحول الحصن بمرور الوقت إلى خطه من خطط الفسطاط وقد اكتفى عمرو بن العاص باختيار موقع محصن تحصينا طبيعيا لتأسيس الفسطاط إذ تحميه التلال من الشرق والجنوب ، ويحميه مجرى مائى طبيعى هو نهر النيل الذى كان فى الوقت نفسه يصل بين الشمال والجنوب ، ولم يبق من

---

(١) د . فريد شافعى ، مرجع سابق ، ص ٣٤٨ .

(٢) د عبد الرحمن زكى ، الفسطاط وضاحيتها القطائع والعسكر ، ص ٢٨ .

الفسطاط غير جانب واحد مفتوح هو الجانب الشمالى ، ولم يهتم عمرو بتحصين هذا الجانب ، وربما . كان السبب فى ذلك أن عمرو لم يخش تعرضه للأخطار من هذا الجانب نظرا إلى أن الطريق إليه يمر بأقطار يحكمها العرب ، كما أن هذا الجانب كان المجال الطبيعى لامتداد المدينة ونموها فيما بعد .

وسمح عمرو بن العاص لبنى وهدان ومن والاهم بأن يقيموا على الضفة الغربية من النيل ، حيث بنى لهم حصنا فى الجيزة يعتصمون به عند الخطر ، وشرع فى بناء الحصن سنة ٢١ هـ/ ٦٤٢ م وأتمه سنة ٢٢ هـ/ ٦٤٣ م . ومن المحتمل أن عمرو كان يهدف من وراء ذلك إلى زيادة تأمين الجانب الغربى لمدينة الفسطاط [1] .

وقد أشارت المصادر التاريخية إلى نوع من المنشآت فى الفسطاط أطلقت عليه اسم « المحارس » ومنها محرس عمار ومحرس بنانه ومحرس الحريص ومحرس النخل ، ومحرس قسطنطين ومحرس خوى بن خوى ، ويرجح ان هذه المحارس كانت عبارة عن مبانى بسيطة بوسط خطط القبائل أو على حدودها ، ويعمل بها رجال يتولون حراسة خطة كل قبيلة ، أو أنها كانت نقاط متفرقة فى المدينة لغرض اقامة الجند ولكنها لم تكن حصونا أو قلاعا كبيرة .

---

(١) د . حسن الباشا ، مدخل إلى الآثار الإسلامية ، ص ٤٦ . أسامة عبد النعيم ، أسوار صلاح الدين وآثرها فى امتداد القاهرة حتى عصر المماليك ، ص ٢ ، ٣ . رسالة ماجستير بكلية الآثار جامعة القاهرة ، ١٩٩٢ .

ونشير إلى ان تأسيس كل مدينه من مدن الفتح الإسلامى تمثل نهاية مرحلة وبداية مرحلة جديدة فمثلت الفسطاط نهاية مرحلة فتح مصر .

وبداية مرحلة فتح المغرب ، الأدنى ثم الأوسط ، وبتأسيس القيروان على يد عقبة بن نافع ٤٥ هـ / ٦٦٥ بدأت مرحلة إتمام فتح المغرب الأوسط والأقصى ، وانفصال ولاية المغرب عن مصر .

أما بالنسبة للفسطاط تاريخ تأسيس القيروان يمكن أن نعتبره بداية تحول الفسطاط من نمط المدينة المعسكر إلى نمط المدينة التجارية الصناعية ، وهو النمط الذى شاع فى مدن الفتح الإسلامى بعد ذلك ، حيث كانت هذه المدن قواعد لانطلاق الجيوش الإسلامية ومراكز إدارية ، فأصبحت بعد قليل مدنا داخلية بدأت تكتسب طابعا مدنيا ، واختلط فيها سكان البلاد الأصليين بالفاتحين . ومما ساعد على هذا الاختلاط أن الأعمال بالدواوين ظلت بيد الأقباط خاصة أن هذه الدواوين كانت تكتب باللغة اليونانية كما كانت عليه فى العهد البيزنطى ، وسكن هؤلاء القبط فى بعض خطط الفسطاط كخطة بابليون .

الفصل الثانى

الفسطاط النمو والتطور العمرانى

الفسطاط
النمو والتطور العمرانى

** الفسطاط فى العصر الأموى

أصبحت مصر منذ عام ٣٨ هـ/ ٦٥٨ م حتى عام ١٣٢ هـ/ ٧٤٩ م ، ولاية تابعة للدولة الأموية . وقد ولى عليها حوالى ستة وعشرين واليا فى فترة امتدت أربعة وتسعين عاما .

وقد تمثل عمران الفسطاط فى العصر الأموى فى ظاهرتين أساسيتين :ـ

الأولى : امتداد عمرانى للمدينة فى الجهة الغربية وذلك نتيجة إنحسار شاطئ النيل الشرقى وما تخلف عنه من طرح النيل عام ٦٩ هـ/ ٦٨٨ م . وأضاف إلى المدينة مساحة عمرانية جديدة أقيمت فيها العديد من المبانى والمنشآت .

الثانية : قدوم العديد من القبائل والبطون العربية إلى الفسطاط مصاحبة للأسرة الأموية ، بالإضافة إلى عملية التوالد والتكاثر المستمرة للقبائل القائمة بالفعل بالفسطاط منذ الفتح العربى ، وكان طبيعيا أن تؤدى هذه الظاهرة إلى إزدياد فى عمران المدينة ، واتساع فى نطاق الخطط وإزدحامها بالمساكن والمرافق [١] .

---

(١) د محمود الحسينى ، المرجع السابق ، ص ٤٤ .

بدأت النهضة العمرانية بالفسطاط فى العصر الأموى على يد واليها مسلمة بن مخلد الأنصارى (٤٧ ـ ٦٢ هـ / ٦٦٧ ـ ٦٨١ م) [١].

فقد بنى فى الروضة مقياسا للنيل ودارا للصناعة وعنى ببناء المساجد واصلاحها فقد أمر عام ٥٣ هـ / ٦٧٢ م بهدم جامع عمرو بن العاص وبنائه من جديد ، كما أمر ببناء منارات للمساجد كلها [٢].

وتأثرت الفسطاط بالاضطرابات السياسية التى وقعت فى هذا العصر ، وكان من آثار هذه الاضطرابات خضوعها لعبد الله بن الزبير أثناء ثورته على يزيد بن معاوية ، وقام والى ابن الزبير ، ابن جحدم فى سنة ٦٤ هـ / ٦٨٢ م ، عندما زحف عبد العزيز بن مروان على مصر ، بحفر خندق حول الفسطاط ، ويقال إنه حفره فى شهر واحد وقام بذلك ثلاثون ألف رجل . وهو الخندق الذى بقى بمقبرة الفسطاط إلى أيام الكندى الذى توفى فى سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م [٣].

على أن أشهر الولاة الأمويين على الفسطاط ومصر عبد العزيز بن مروان (٦٥ هـ ـ ٨٦ هـ / ٦٨٤ ـ ٧٠٥ م) الذى استمر حكمه إحدى وعشرين سنة ، ويعود إليه الفضل الأكبر فيما حدث من نهضة عمرانية كبيرة بالفسطاط فى العصر الأموى فقد استطاع بحكمته أن يهيمن على قلوب المصريين عامة [٤].

---

(١) الكندى ، الولاة والقضاة ، ص ٣٨ ـ ٤٠ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٣٨ ـ ٤٠ .
(٣) د . فريد شافعى ، مرجع سابق ، ص ٣٣٩ .
(٤) د . محمود الحسينى ، مرجع سابق ، ص ١٩٢ .

فبنى مقياساً للنيل وزاد فى جامع عمرو بن العاص ، وأقام عام ٦٩هـ/ ٦٨٨ م قنطرة على خليج أمير المؤمنين بطرف الفسطاط سجل عليها اسمه [١].

وإتخذ عبد العزيز بن مروان من حلوان مقراً لحكمه ، وكان قد بدأ فى تشييدها عام ٦٧ هـ/ ٦٨٦ م ، وبهدف أن تكون منتزها له ، وليقيم فيها للراحة والاستجمام ، ولكن ظهور طاعون فى الفسطاط عام ٧٠ هـ ، جعله يتخذ من حلوان مقراً للحكم وكان قد شيد بها قصراً ودوراً وعمرت حلوان منذ ذلك الحين ، وسكنها رجال عبد العزيز بن مروان ، وهى باقية إلى اليوم . ولكن لا يوجد أى أثر بها يعود لعصر عبد العزيز بن مروان وتقع حلوان إلى الجنوب من الفسطاط بعشرة كيلو مترات ، وسماها حلوان لاتفاقها من حيث الموقع وجودة الهواء مع حلوان العراق[٢].

ولكن سرعان ما عاد مقر الحكم إلى الفسطاط بعد عبد العزيز بن مروان فى عام ٨٧ هـ/ ٧٠٦ م ، أثناء ولاية عبد الله بن عبد الملك بن مروان على مصر من قبل أخيه الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك ، أمر هذا الوالى بتعريب جميع الدواوين ونسخها باللغة العربية بدلاً من اللغة اليونانية والقبطية [٣]وقد كان لهذا الحدث أثره فى تاريخ الفسطاط ، إذ

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢١٧ .

(٢) د . سعاد ماهر ، القاهرة القديمة وأحياؤها ، ص ١١٧ المكتبة الثقافية ، العدد ٧٠ ، ١٩٦٢ م .

(٣) د . أحمد مختار العبادى ، مرجع سابق ، ص ٤٦٣ .

اضطر الأقباط المقيمين فى المدينة والعاملين فى الدواوين إلى تعلم العربية ، وبالتالى الإندماج فى المجتمع العربى الإسلامى . خاصة أيضا أن ضرورات الحياة اليومية والتى تجعل المصريين يتصلون بالسلطات قد كرست استخدام اللغة العربية ، ونضيف إلى ذلك تحول المصريين إلى الإسلام بدلا من المسيحية .

وحدث فى الفسطاط خلال العصر الأموى تغيير فى التركيبة السكانية بالمدينة ، فقد تزايد عدد المسيحيين المصريين فيها وتشييدهم العديد من الكنائس ، وهو ما يدل على روح التسامح التى سادت المجتمع آنذاك ، ومنها كنيسة شيدت فى الحمراء القصوى شمال الفسطاط وهى خاصة بعناصر أجنبية مسيحية عملت فى خدمة الجيش الإسلامى ، وشيدت كنيسة القديس مينا فى الحمراء الوسطى ، وبالقرب من خطة أهل الراية شيدت كنيسة للقديسة مريم ، ويرى عالم الآثار فلا سيلاف كوبياك أن عدد القاطنين فى الفسطاط قد بلغ فى هذا العصر ٢٠٠ ألف [٤].

وفى خلال العصر الأموى استكملت خطط الفسطاط عمرانها ، إذ وجدت العناصر السكانية الجديدة فى الفراغات داخل الخطط مساحات لسكناها ، وتحقق « جيرو » من حدوث تزايد سكانى فى شمال الفسطاط حين أجرى حفائر فى منطقة إسطبل عنتر ، وتشير كل هذه التطورات إلى

---

(1) W. Ku Biak, Al Fustat, Its Foundation and early urban develop ment , P 80 - 83 , 131
The Ame rcan university Cairo Press -- 1988

تحول الفسطاط من نمط المدينة المعسكر ، إلى نمط المدينة الحقيقية ، ثم إلى المدينة المختلطة سكانيا [1].

وتعرضت الفسطاط لأول حريق متعمد فى أواخر الدولة الأموية عندما فر مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين من الشام إلى مصر ، تطارده جيوش العباسيين بقيادة صالح بن على وأبى عون عبد الملك بن يزيد . فأضمر مروان بن محمد النيران فى الفسطاط وأحرق دار آل مروان المذهبة ، وأحرق الجسرين اللذين كانا يوصلان بين الفسطاط وجزيرة الروضة ثم بينها وبين الجيزة ، ولكن العباسيين أدركوه فى قرية أبو صير وقتلوه[2] واستقر لهم من بعد ذلك أمر مصر .

وإذا ما عدنا إلى المراحل التى مرت بها الفسطاط سنجد أن ابن خلدون قد أضاء لنا فى مقدمته أبعاداً عن التطور العمرانى للمدن ، فهو يقول «إعلم أن الأمصار إذا اختطت أولاً تكون قليلة المساكن وقليلة آلات البناء من الحجر والجير وغيرهما مما يعالى على الحيطان عند التأنق كالزلج والرخام والربج والزجاج والفسيفساء والصدف فيكون يومئذ يدويا وآلاتها فاسدة .

---

(1) Gayrad , is Tabl AnTar , P 60 - Rapport de Fouilles , Annales islamologivues n,25 1991 .
أندرية ريمون ، القاهرة ، تاريخ حاضرة ، ص ٢١ ، ٢٢ ، ترجمة لطيف فرج ، دار الفكر للدراسات ، القاهرة ١٩٩٤ .
(٢) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٣٠٤ .
د . فريد شافعى ، مرجع سابق ، ص ٣٦٠ .

وما ذكره ابن خلدون عن العمارة البدائية أو البسيطة ينطبق على عمران الفسطاط فى عصر الولاة ، ولذا لم يصل إلينا منه شىء يذكر . إذ لازالت الفسطاط المدينة المعسكر ، وبدأت تتحول آنذاك تدريجيا إلى مدينة تجارية صناعية إدارية .

ولكن كما يذكر ابن خلدون « إذا عظم عمرانها عمران المدينة وكثر سكانها كثرت الآلات بكثرة الأعمال حينئذ وكثر الصناع إلى أن تبلغ غايتها من ذلك »[1] وهذا ما حدث بالفسطاط فى عصر بنى أمية إذ اختلط المصريون بالعرب ، واشتغل بعض العرب بالتجارة والحرف ، وتركوا الجهاد ، ولما كانت الفسطاط مدينة حقيقية متكاملة كما سبق وأن ذكرنا ، فإنها لا تصلح لإقامة الجند إذا أنهم سرعان ما سيختلطون بالحياة العامة فى المدينة ، ولعل هذا أحد أسباب تأسيس العباسيين للعسكر والسبب الآخر هو كثرة أنصار بنى أمية فى الفسطاط .

* العسكر

نزلت جيوش العباسيين بمنطقة الحمراء القصوى من الفسطاط ، وكانت تقع إلى الشمالى الشرقى منها ، وهى التى نزل فيها من قبل قبائل بنى الأزرق وبنى روبيل وبنى يشكر بن جزيلة ، ثم خربت خططهم وبقيت صحراء إلى أن نزلها عسكر العباسيين ، وأمر أبو عون بالبناء فيها ، فبنيت فى العسكر دارا للإمارة ومسجدا عرف بجامع العسكر ثم

---

(١) ابن خلدون المقدمة ، الجزء الثالث ، ص ٨٥٨ .
تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى ، طبعة لجنة البيان ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

عرف بجامع ساحل الغلة وصارت مدينة ذات أسواق ودور عظيمة . وهذا الموقع الذى أختير للعسكر كانت تحتمه طبيعة الأرض فى ذلك الوقت ، إذ كان هو الامتداد الطبيعى للفسطاط ، فقد كان يوجد فى شمال الفسطاط بركة قارون كما كانت توجد بركة عظيمة تسمى بركة الحبش فى الجنوب من ذلك الشريط يدخل اليها الماء من النيل . سكن العسكر ولاة مصر العباسيين ، حيث حكم منها مصر خمسة وستون واليا باستثناء الفترة التى اتخذت فيها القطائع عاصمة لمصر . إذ سرعان ما عادت العسكر عاصمة لمصر ، هذا وقد اتصل عمران العسكر بالفسطاط حتى أصبحا مدينة واحدة .

ولم يتبق اليوم من أثر للعسكر إذ هجرت فى مرحلة لاحقة ، حتى أورد المقريزى فى ذلك أبياتا من الشعر تقول :

وبادوا فلا مخبر عنهم ... وماتوا جميعا وهذا الخبر

ومن كان ذا عبرة فليكن ... فطينا ففى من مضى معتبر

وكان لهم أثر صالح ... فأين هم ثم أين الأثر ؟

ويقصد المقريزى هنا ولاة مصر الذين حكموها من العسكر ، فقد كان عهدهم عهد إضطرابات [1] فضلاً عن أن آثارهم المعمارية نادرة .

---

(١) عن هذه الاضطرابات انظر ، عبد السلام الترمانينى ، أزمنة التاريخ الإسلامى ، حـ ١ ، مجلد ٢ ، ص ٦٣١ ـ الكويت ١٩٨٢ م .

* القطائع

تولى أحمد بن طولون [1] حكم مصر نيابة عن صهره باكباك القائد التركى ، ودخل الفسطاط فى ٢٣ رمضان سنة ٢٥٤ هـ .

إستقر أحمد بن طولون أول الأمر فى دار الإمارة بالعسكر ، ولكن مع نمو طموحه السياسى ، وتكوينه حاشية وجيش له ، رأى أن العسكر لاتتسع له ولجنده ، وخاصة أن ما حدث بالفسطاط من تحولات وأسباب سياسية لنقل مقر الحكم تكررمرة أخرى بالنسبة للعسكر .

صعد أحمد بن طولون إلى جبل المقطم ونظر إلى ما حوله فرأى بين العسكر والمقطم بقعة فضاء مساحتها نحو ميل مربع فأمر بإقامة مدينة عليها ووضعت خطط هذه المدينة فى شعبان ٢٥٦ هـ/ ٨٧٠ م . وامتد هذا المقر من أسفل قلعة القاهرة حالياً إلى مشهد زين العابدين المجاور إلى السيدة زينب ، واختط ابن طولون قصره وأمر أتباعه أن يشيدوا بيوتهم ، وأقطعت كل جماعة من الجند منطقة خاصة بها سميت بمن سكنها ، وعمرت أسواق بها ومنها سوق العيارين وكان يجمع العطارين والبزازين والفامين ويجمع الجزارين والبقالين والشوايين ، وبنيت بالمدينة المرافق

---

(١) هو أحمد بن طولون ولد فى ٢٣ رمضان ٢٢٠ هـ/ ٢٠ ستمبر ٨٣٥ م ، فى بغداد أوسر من رأى ، وكان أبوه طولون تركيا من موالى نوح بن أسد السامانى عامل بخارى خراسان ، أهداه إلى المأمون من جملة مماليكه ، ونشأ أحمد على حفظ القرآن واتقنه ، ودرس الفقه الحنفى ، وقد استقل بمصر عن الدولة العباسية ، وأطنب المؤرخون فى وصفه وفى كتابه سيرته - وتوفى فى ذى العقدة ٢٧٠ هـ/ ٨٨٤ م .
انظر ، د . حسين مؤنس ، تاريخ مصر من الفتح العربى إلى أن دخلها الفاطميون ، ص ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٤ .

الخاصة بها من مساجد وحمامات وطواحين وأفران ، وبقى المسجد الجامع الذى شيده ابن طولون بعد أن ضاق مسجد العسكر بأتباعه ، وأحتفل بوضع مسجد ابن طولون على جبل يشكر عام (٢٦٣ هـ / ٨٧٦م) وانتهى تشيده بعد عامين ، ومازال هذا الجامع باقيا إلى اليوم ، وهو الأثر المعمارى الوحيد الباقى من مدينة القطائع التى إتصل عمرانها آنذاك بالعسكر والفسطاط .

وتولى بعد أحمد بن طولون الحكم ابنه خمارويه فاستقر حكمه بالقطائع ووسع قصر أبيه وضم إليه الميدان وحوله إلى بستان ، وشهدت القطائع فى عهده ازدهاراً عمرانيا . ولكن بعد وفاة خمارويه هوى نجم الأسرة الطولونية وأخذت فى الإنحلال وأقبل محمد بن سليمان القائد العباسى للاستيلاء على مصر ودخل القطائع فى عام ٢٩٢ هـ/ ٩٠٥ م ، وألقى النار فيها فالتهمت الدور والمساجد والحمامات ونهبت المدينة ، ولم يبق منها سوى مسجدها الجامع . وعاد مقر الحكم إلى العسكر مرة أخرى .

* فى العصر الأخشيدى

كثرت الثروة فى مصر فى عهد الأخشيديين فى يد الأمراء الحاكمين وفى يد الطبقة العليا من السكان [1] مما أدى إلى ازدهار العمران وكثرت المبانى والبساتين والدور الخاصة والمنشآت الهامة فى العاصمة وفيما جاورها بوجه خاص تشهد بذلك النصوص التاريخية التى نقرؤها .

---

(١) سيدة الكاشف ، مصر فى عصر الأخشيديين ، ص ٢٤٨ .

فعلى سبيل المثال ما ذكره ابن حوقل فى أوائل العصر الفاطمى عن الفسطاط فهو بلا شك يصور لنا حالة تلك المدينة فى أواخر العصر الأخشيدى وما تزدان به من المبانى الفخمة والمنشآت الحسنة ، حيث يقول ، « والفسطاط مدينة كبيرة نحو ثلث بغداد على غاية العمارة والخصب والطيبة واللذة ذات رحاب فى محالها وأسواق عظام ومتاجر فخام . . وبساتين نضرة [1]» .

ومن أبرز ما أنشىء فى الفسطاط هذا العصر :

ـ السبع سقايات :

شيدها الوزير جعفر بن الفرات عام ٣٥٥ هـ / ٩٦٥ م لتزويد سكان الفسطاط وخاصة منطقة الحمراوات بالماء اللازم لهم ، وذلك عندما انحسر ماء النيل عن تلك المنطقة حتى أدى الأمر بالناس إلى أن يسيروا هم ودوابهم مسافات طويلة وشاقة كى يستقوا من بحر الجيزة فيما بين الروضة وبين الجيزة [2] .

وقد جعل لها بئرا لينقل منها الماء الى السبع سقايات أنشأها وحبسها لجميع المسلمين الذين كانوا بخط الحمراء وكتب عليها « بسم الله الرّحمن الرحيم » لله الأمر من قبل ومن بعد وله الشكر وله الحمد ومنه المن على على عبده جعفر بن الفضل بن الفرات وما وقفه له من البناء لهذه البئر وجريانها إلى السبع سقايات التى أنشأها وحبسها لجميع المسلمين وحبسه

---

(١) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٤٦ .
(٢) المقريزى ، الخطط حـ ١ ، ص ٣٤٤ .

وسبله وقفا مؤبدا لا يحل تغييره ولا العدول بشيء من مائه ولا ينقل ولا يبطل ولا يساق إلا إلى حيث مجراه الى السقايات المسبلة فمن بدله بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه . إن الله سميع عليم وذلك فى سنة خمس وخمسين وثلثمائة ـ وصلى الله على نبيه محمد وآله وسلم [١].

وكانت هذه البئر تغذى السبع سقايات عن طريق مجرى أرضى وبهذه الطريقة كان يجلب الماء إلى سكان الحمراوات [٢].

** دار الصناعة .

كان لدار صناعة السفن أثر هام فى النمو العمرانى للفسطاط ، إذ كانت لأهميتها فى صناعة السفن الحربية والتجارية أثر فى استمرار أهمية الفسطاط ، حتى بعد أن أصبحت القاهرة هى مركز الثقل الاقتصادى فى البلاد ، والقلعة مقرا للحكم . ولأهمية هذه الدار سواء حين كانت فى شاطئ جزيرة الروضة أو حين نقلت إلى الجزء الشمالى للفسطاط سنخرج عن السياق التاريخى ، ونفرد لها هنا قسما خاصاً ، حتى يستطيع القارئ استيعاب إستمرار النمو العمرانى لشاطئ الفسطاط فى مناطق طرح النهر ، وكذلك استمرار أهمية المدينة وبقاؤها إلى اليوم .

شيدت دار الصناعة فى جزيرة بابليون (الروضة حاليا) فى سنة ٥٤هـ/ ٦٧٣ م ، ويرجع سبب تشييدها إلى الهجوم الذى شنه الأسطول

---

(١) سيدة الكاشف ، المرجع السابق ، ص ٣٠٧ .
(٢) د . محمود الحسينى ، المرجع السابق ، ص ٣٣٨ .

البيزنطى على مدينة البرلس ، وكبد المسلمين خسائر فادحة [1] وذلك عام ٥٣ هـ/ ٦٧٢ م .

وكشفت أوراق البردى التى ترجع إلى عهد ولاية قرة بن شريك على مصر عن نشاط دار الصناعة فى تلك الفترة ، ففى البردية رقم ١٤١٠ بتاريخ ٩١ هـ/ ٧٠٩ م يأمر الوالى قرة بن شريك سكان قرية أفروديتو (كوم أشقوه) بتوفير أربعة عمال مهرة وثلاثة نجارين وقلاف من أجل إصلاح السفن بترسانة بابليون [2] .

وتتعدد موضوعات البرديات التى تتعلق بصناعة السفن ففى البردية رقم ١٣٧١ أمر بتجهيز السفن بجزيرة بابليون ، والرسالة رقم ١٤٠٨أمر بعمل المسامير ، كما تتضمن البرديتان رقم ١٤٣٣ و ١٤٣٤ تفصيلات عن البحارة والعمال الفنيين كالقلافين والنجارين والحدادين وغيرهم اللازمين لاصلاح وبناء وتنظيف السفن . . . . الخ [3] .

ونشطت منطقة الترسانة أو دار الصناعة فى العصر الطولونى خاصة أن أحمد بن طولون شيد قلعة بالجزيرة سرعان ما تهدمت بعد ذلك بسنوات ، وفى سنة ٣٢٥ هـ/ ٩٣٦م بنى محمد بن طفج الأخشيد داراً لصناعة السفن بالفسطاط ، فغدت السفن تصنع تارة بالفسطاط وتارة بالجزيرة ، ويذكر الكندى ، أن الفسطاط كانت مركزاً هاماً للسفن فيقول

---

(١) ابن عبد الحكم ، مرجع سابق ، ص ١٢٤ .

(٢) د . على محمد فهمى ، البحرية الإسلامية فى شرق البحر المتوسط ، ص ٣٤٩ ، ٣٥٠، بحث ضمن كتاب البحرية الإسلامية ، جامعة الإسكندرية ١٩٧٣ م .

(٣) د . على فهمى ، مرجع سابق ، ص ٣٥٣ .

« وبمصر ثمانون كورة وبكل كورة مدينة ، وتلك المدن كلها تؤتى فى الماء فى السفائن تحمل المتاع والآلات إلى الفسطاط وتحمل السفينة الواحدة ما يحمله خمسمائة بعير . ويعرض المقدسى وصفا ممتعا للسفن هناك فيقول « أنه بينما كان يتنزه على احدى ضفاف النهر متعجبا من كثرة السفن الراسية والمشيدة حياه رجل وسأله عن موطنه ، وعندما أجابه أنه جاء من المدينة المنورة أجابه الرجل أنها مدينة كبيرة ، ولكنى أخبرك يا صديقى رعاك الله أن القوارب الراسية على طول هذا الشاطئ وتلك التى غادرته إلى عديد من المدن والقرى على درجة من الكثرة تمكنها من نقل كل سكان مدينتك بالاضافة إلى أخشابها وتجارتها حتى أن الناس إذا ما شاهدوها يقولون « فى هذا المكان كانت توجد مدينة » [(١)] وكلا النصين السابقين لهما دلالاتهما ، ومن هذه الدلالات أن الفسطاط كانت مركزاً إقتصادياً هاماً ، أنه يترتب على هذا النشاط الاقتصادى حاجة شديدة إلى مركز لصناعة السفن النيلية لتنقل التجارة من وإلى الفسطاط .

ظلت دار صناعة السفن بالفسطاط تعمل أيام الفاطميين والأيوبيين ، ويدل على ذلك ما ذكره المقريزى بقوله « وأنشئت سنة ٥٧٧ هـ / ١١٨١م أربع حراريق لصناعة مصر برسم من تجرد إلى بلاد اليمن [(٢)] .

على أن نشاط هذه الصناعة لم يقتصر على انشاء المراكب النيلية فقط ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٥٤ .

(٢) المقريزى ، السلوك فى معرفة دول الملوك ، تحقيق د . محمد مصطفى زيادة و د . سعيد عاشور ، حـ مجلد ١ ، القسم ١ ، ص ٧٤ . القاهرة ١٩٥٨ .

د . عاصم رزق ، مراكز الصناعة فى مصر الإسلامية ، ص ٣٩ سلسلة الألف كتاب الثانى ، الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٨٩ م .

وانما إمتد إلى بناء السفن الحربية التى أمدت صلاح الدين الأيوبى بأساطيل البحر المتوسط خلال حروبه مع الصليبيين فى الشام ، فكانت هذه الأساطيل بعد بنائها فى دار صناعة الفسطاط تشحن بآلات الحرب والمقاتلين ثم تبحر فى النيل إلى الإسكندرية أو رشيد أو دمياط أو الفرما ، ومنها إلى البحر المتوسط لملاقاة الصليبيين (١) وبلغ من اهتمام الأيوبيين بالأسطول أن أنشأوا له على عهد صلاح الدين ديوانا خاصاً سموه «ديوان الأسطول» ورصدوا له ميزانية كبيرة (٢) ولقد كان للسفن الحربية التى بنيت فى هذه الدار على عهد الكامل محمد وابنه الصالح أيوب الفضل فى صد العدوان الصليبى على مصر الذى قاده صاحب عكا ، وعدوان لويس التاسع ملك فرنسا (٣) ثم سار سلاطين المماليك من حيث العناية بهذه الدار على نهج بنى أيوب فيذكر المقريزى أن السلطان الظاهر بيبرس كان قد أصدر مرسوماً يمنع الناس من التصرف فى أعواد العمل (أى خشب السفن) وأمر بأن تنشأ لتخزين هذه الأعواد عشرين شونة ، ليس هذا فقط بل لقد لازم الركوب بنفسه إلى هذه الصناعة كل طوال شهر المحرم سنة (٦٧٠ هـ / ١٢٧١ م) ليباشر انشاءها حتى انجازها (٤) .

كذلك إهتم الأشرف خليل ببناء أسطول فى دار صناعة مصر سنة (٦٩٢ هـ / ١٢٩٢ م) وعهد بإعداده إلى الوزير ابن السلعوس ، ثم سار

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٩ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٣٩ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٣٩ .
(٤) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٩٤ .
عاصم رزق ، مرجع سابق ، ص ٣٩ .

الناصر محمد بعد ذلك على نهج أخيه وبنى هذه الدار سنة (٧٠٢ هـ / ١٣٠٢) أسطولاً غزا به جزيرة أرواد عند ساحل مدينة طرطوس شمالى طرابلس الشام [١] ألا أن دوام الحال بالنسبة لهذه الصناعة كان من المحال ، فتوقف العمل بالدار بعد أن تكون على مر الأيام حرف فى البحر الذى يفصل بينها وبين جزيرة الروضة ، فتحولت أرضها سنة ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م إلى بستان عرف ببستان كيسان ثم ببستان الطواشى [٢] ونقلت دار الصناعة غالبا إلى موقع شمالى الموقع القديم على ساحل النيل بالقرب من دير النحاس حيث إستقرت مدة طويلة ، ثم نقلت مرة أخرى إلى ساحل بولاق خلال عهد محمد على [٣] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٩ .
(٢) المقريزى ، الخطط ، حـ ٢ ، ص ١٩٧ .
عاصم رزق ، مرجع سابق ، ص ٣٩ .

الفصل الثالث

الفسطاط .. الإزدهار الاقتصادى

الفسطاط ..
الإزدهار الاقتصادى

أسهب الرحالة والجغرافيون المسلمون فى وصف الفسطاط ونستطيع أن نستشف من أقوالهم مدى ما بلغته هـ ـه المدينة من ازدهار على مر الأيام . فها هو ذا المقدسى الجغرافى يقول عنها « أن الفسطاط هو مصر فى كل قول . اشتهر اسمه وجل قدره فهو مصر مصر . . . . كثير الأجله والمشايخ عجيب المتاجر والخصائص . حسن الأسواق والمعايش ، ولقياسرته لياقة وبهاء ، ليس فى الإسلام أكبر مجالس من جامعه ولا أحسن تجملا من أهله ، ولا أكثر من مراكب ساحله . . به أطعمة لطيفة وحلاوات رخيصة كثير الموز والرطب ، غزير البقول والحطب ، خفيف الماء ، صحيح الهواء ، معدن العلماء طيب الشتاء ، أهل سلامة وعافية ، ومعروف كثير وصدقة . . . رغبتهم فى الخيربينه . . ودورهم أربع طبقات وخمس . . وسمعت أنه يسكن الدار الواحدة مائتى نفس ، وسمعتهم يذكرون أنه يصلى قدام الأمام يوم الجمعة نحو عشرة آلاف رجل ، فلم أصدق حتى خرجت مع المتسرعة إلى سوق الطير فرأيت الأمر قريبا مما قالوا . . ورأيت القياسر والمساجد والدكاكين حوله مملؤه من كل جانب من المصلين ، وهذا الجامع يسمى الغلانى ـ يقصد مسجد عمرو بن العاص . . . وقد إلتفت عليه الأسواق . . وهو أعمر موضع

بمصر . . وزقاق القناديل عن يساره . . والجامع الفوقانى من بناء ابن طولون أكبر وأبهى من السفلانى . . . مشرف على فم الخليج وغيره وله زيادات وخلفه دار حسنة » (١) .

ونرحل إلى كتاب المسالك والممالك للاصطخرى لنجده يقدم لنا بين صفحات كتابه تعريفا شافيا للفسطاط فيذكر عن مصر « وأما صفة مدنها وبقاعها ـ مصر ـ فإن مدينتها العظمى تسمى الفسطاط وهى على النيل من شرقية ، شمالى النيل . . والبلد كله على جانب واحد إلا أن فى عدوة النيل أبنية قليلة تعرف بالجزيرة ـ يراد جزيرة الروضة ـ يليها على الشط الآخر الجيزة . . ومعظم بنائها ـ أى الفسطاط ـ بالطوب طبقات وأكثر السفل بها غير مسكونة . . وربما بلغت طبقات الدار الواحدة ثمان طبقات . . وبها مسجدان للجمعة أحدهما عمرو بن العاص فى وسط الأسواق ، والآخر بأعلى الموقف بناه أحمد بن طولون » (٢) .

يدل ما ذكره كل من المقدس والاصطخرى على امتداد عمران الفسطاط إلى مدينة القطائع ، وان كانت المدينة قد خربت كمقر لحكم الأسرة الطولونية إلا أنها سرعان ما عمرت فى الفترات اللاحقة كإمتداد طبيعى للفسطاط وضاحيتها العسكر التى صارت جزءاً لا يتجزأ من المدينة . أما الدلالة الأكثر أهمية فى حديثهما فهى استقرار الأنماط المعمارية بالمدينة ، وهذا نراه فى وصفهم العمارة السكنية بأنها مزدهرة

---

(١) المقدسى ، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ص ١٩٧ ، ١٩٨ .
(٢) الإصطخرى ، أبو اسحاق إبراهيم بن محمد ، المسالك والممالك ، ص ٣٨ ، ٣٩ ، ليدن ١٩٢٧ م .

وبعض الدور طبقات ، وذات أحجام كبيرة ، بل وبعضها لا يسكن طابقه السفلى . ومثل هذا الوصف الذى جاء قبيل العصر الفاطمى يفيد كثيرا فى تأريخ الدور المكتشفه بالفسطاط منذ أوائل هذا القرن إلى عصرنا الحاضر .

ومن أكثر الرحالة الذين أسهبوا فى وصف الفسطاط وعمرانها فى العصر الفاطمى ، الرحالة ناصر وخسرو ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م ، فيصف مدينة مصر أى الفسطاط بأنها شيدت على ربوة . وجانبها الشرقى جبلى يتكون من جبال حجرية غير عالية كالتلال . وفى طرف المدينة جامع ابن طولون وهو مشيد على ربوة وله جدران محكمة . . . وبمصر بيوت مكونة من أربع عشرة طبقة ، وبيوت من سبع طبقات . وسمعت من ثقات الناس أن شخصاً غرس حديقة على سطح بيت من . سبعة أدوار ، وحمل إليها عجلا رباه فيها حتى كبر ، ونصب فيها ساقية كان هذا الثور يديرها ويرفع الماء إلى الحديقة من البئر . وزرع على هذا السطح شجر النارنج والموز وغيرهما . وقد أثمرت كلها ، كما زرع فيها الورد والريحان وأنواع الزهور الأخرى .

وسمعت من تاجر ثقة أن بمصر دورا كثيرة فيها حجرات الاستغلال أى للإيجار ، ومساحتها ثلاثون ذراعا فى ثلاثين ، وتسع ثلاثمائة . وخمسين شخصا . وهناك أسواق وشوارع تضاء فيها القناديل دائما ، لأن الضوء لا يصل إلى أرضها ويسير فيها الناس .

وفى مصر سبعة جوامع ، غير جوامع القاهرة . والمدينتان

متصلتان . . وفيهما معا خمسة عشر جامعا (مسجد جمعة) . وذلك لتلقى خطبة الجمعة والصلاة فى كل حى منهما .

وفى وسط سوق مصر جامع يسمى « تاج الجوامع » . شيده عمرو بن العاص ، أيام امارته على مصر من قبل عمر بن الخطاب ، وهذا المسجد قائم على أربعمائة عمود من الرخام . والجدار الذى عليه المحراب مغطى كله بألواح الرخام الأبيض التى كتب القرآن عليها بخط جميل . ويحيط بالمسجد ، من جهاته الأربع ، الأسواق ، وعليها تفتح أبوابه . ويقيم بهذا المسجد المدرسون والمقرئون . وهو مكان اجتماع سكان المدينة الكبيرة ، ولا يقل من فيه ، فى أى وقت ، عن خمسة آلاف ، من طلاب العلم والغرباء والكتاب الذين يحررون الصكوك والعقود وغيرها . . . . وعلى الجانب الشمالى للمسجد سوق يسمى « سوق القناديل » لا يعرف سوق مثله فى أى بلد ، وفيه كل ما فى العالم من طرائف . ورأيت هناك الأدوات التى تصنع من الذبل كالأوعية والأمشاط ومقابض السكاكين وغيرها . ورأيت كذلك معلمين مهرة ينحتون بلورا غاية فى الجمال ، وهم يحضرونه من المغرب . وقيل انه ظهر حديثا ، عند بحر القلزم ، بلور ألطف وأكثر شفافية من بلور المغرب . ورأيت أنياب الفيل ، أحضرت من زنجبار . . . كما أحضر جلد بقر من الحبشة ، يشبه جلد النمر ، ويعملون منه النعال . وقد جلبوا من الحبشة طائرا أليفا كبيرا ، به نقط بيضاء وعلى رأسه تاج مثل الطاووس . وتنتج مصر عسلا وسكرا كثيرا .

وقد رأى فى شهرى ديسمبر ويناير بالفسطاط فى يوم واحد هذه

الفواكة والرياحين : الورد الأحمر والنيلوفر والنرجس والترنج والنارنج والليمون والمركب والتفاح والياسمين والريحان الملكى والسفرجل والرمان والكمثرى والبطيخ والعطر والموز والزيتون والرطب والعنب وقصب السكر والباذنجان والقرع واللفت والكرنب والفول الأخضر والخيار والقثاء والبصل والثوم والجزر والبنجر .

كل من يفكر كيف تجتمع هذه الأشياء التى بعضها ربيعى ، وبعضها صيفى وبعضها شتوى ، لا يصدق هذا ، ولكن ليس لى قصد فيما ذكرت ، ولم اكتب الامارأيت ، وأما سمعته ثم كتبته ، فليست عهدته على . وولاية مصر عظيمة الاتساع ،بها كل أنواع الجو من البارد والحار وتجلب كل الحاجيات لمدينة مصر من جميع البلاد ويباع بعضها فى الأسواق .

ويصنعون بمصر الفخار من كل نوع ، وهو لطيف وشفاف بحيث إذا وضعت يدك عليه من الخارج ظهرت من الداخل ، وتصنع منه الكؤوس والأقداح والأطباق وغيرها ، وهم يلونونها بحيث تشبه البلوقلمون بلون مختلف فى كل جهة تكون بها ، ويصنعون بمصر قوارير كالزبرجد فى الصفاء والنظافة ويبيعونها بالوزن .

وسمعت من بزار ثقة أن وزن الدرهم الواحد من الخيط يشترى بثلاثة دنانير مغربية وهى تساوى ثلاثة دنانير ونصف نيسابورية . . ومدينة مصر ـ أى الفسطاط ـ ممتدة على شاطئ النيل الذى عليه القصور والمناظر الكثيرة ، بحيث إذا احتاجوا إلى الماء رفعوه بالحبال من النيل . أما ماء المدينة فيحضره السقاءون من النيل أيضا . يحمله بعضهم على الأبل وبعضهم على كتفه . ورأيت قدورا من النحاس الدمشقى ، كل واحد

منها يسع ثلاثين منا ، وكانت من الطلاوة بحيث تظنها من ذهب . وقد حكوا لى أن امرأة تملك خمسة آلاف قدر ، وأنها تؤجر الواحد منها بدرهم فى الشهر ، وينبغى أن يردها المستأجر سليمة . . . وتجار مصر يصدقون فى كل ما يبيعون ، وإذا كذب أحدهم على مشتر ، فانه يوضع على جمل ، ويعطى جرسا بيده ، ويطوف به فى المدينة ، وهو يدق الجرس ، وينادى قائلا : « قد كذبت وها أنا أعاقب وكل من يقول الكذب فجزاؤه العقاب » .

ويعطى التجار فى مصر ، من بقالين وعطارين وبائعى خردوات الأوعية اللازمة لما يبيعون ، من زجاج أو خزف أو ورق ، حتى لا يحتاج المشترى أن يحمل معه وعاء .

يستخرجون من بذور الفجل واللفت زيتا للمصابيح يسمونه « الزيت الحار » . والسمسم هناك قليل وزيته عزيز ، وزيت الزيتون رخيص . والفستق أغلى من اللوز ، ولا تزيد العشرة أطنان من اللوز على دينار واحد .

ويركب أهل السوق وأصحاب الدكاكين الحمر المسرجة فى ذهابهم وايابهم من البيوت إلى السوق . وفى كل حى على رأس الشوارع ، حمر كثيرة عليها برادع مزينة ، يركبها من يريد ، نظير أجر زهيد . وقيل انه يوجد خمسون ألف بهيمة مسرجة تزين كل يوم وتكرى . ولا يركب الخيل الا الجند والعسكر ، فلا يركبها التجار أو القرويون أو أصحاب الحرف ، ويركبها العلماء . ورأيت كثيرا من الحمر البلق كالخيل بل أجمل .

وكـان أهل مـدينة مـصـر فى غنى عظيم حين كنت هناك فى سنة تسع وثلاثين وأربعـمـائة (١٠٤٧ م) . . . . ورأيت هناك رباطا يسـمى « دار الوزير » لا يبـاع فـيـه سـوى القـصـب . وفى الدور الأسـفل منه يجلس الخيـاطون ، وفى الأعلى الرفـاءون . . . وقـيل أن فى هذه المدينة مـائتى رباط أكبر منه أو مثله [١] .

يتـبين لنا مما ذكـره ناصـرو وخـسـرو أن الفـسطاط كـانت ذات نشـاط إقتصـادى كثيف ، ويرى أندريه ريمون أن الفسطاط كـانت مركـزا تجـاريا تتجه إليه السفن عبر فرعى رشيد ودمياط من دلتا النيل .

وأتت إلى الفسطاط سفن تجارية من صـقلية والشام والعراق والأندلس والمغـرب وبيزنطة وحتـى من تفليس فى جـو رجيا حـاليـاً . كـانت قـائمـة السلع التى يتم المتاجـرة فيها طويلة لدرجة مـذهلة فعلى سبيل المثال التاجر نهراى بن نسيم القادم من مدينة القيـروان والذى تم التحقق من نشاطه فى الفـسطاط خـلال الفـترة من عام ١٠٤٥ إلى عـام ١٠٩٦ يتـاجـر فى ١٢٠ سلعة مـختلفـة على الأقل . فقـد كـانت مـصـر تصـدر الكتـان إلى صـقلية وتونس ، وتستورد الحرير من الأندلس وصقلية ، والمنسوجات من تونس وصـقليـة وبلاد الروم وفـارس ، والجلود من تونس وصـقـليـة وكـانت الفـسطاط مـركـزا وسيطا لاعادة تـصدير منتجات الشـرق كـالتـوابل والمواد العطرية والصموغ والأحجار الثمينة . . . الخ .

---

(١) ناصرو خسرو ، سفر نامه ، ص ١١٦ : ص ١٢٢ ترجمة د . يحيى الخشاب ، سلسلة الألف كتاب الثاني (١٢٢) الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٣ م .

قدرت مساحة الفسطاط فى هذه الفترة بـ ٧٤٠ فدان وقدر عدد سكانها بـ ١٢٠ ألف نسمة ، ومثل ميناء المدينة مركزها الرئيسى ، وكان نشاط المدينة الاقتصادى يتمركز فى مثلث رؤوسة عند باب القنطرة فى الجنوب وباب مصر فى الشمال ، وباب الصفا فى الغرب . ومن الشارع الرئيسى على النيل تتفرع شوارع أخرى رئيسية وفرعية تتنشر بها الوكالات والأنشطة الحرفية والخانات والأسواق (١) .

مر بالفسطاط العديد من الأحداث التى أثرت فى عمرانها : ويركز مؤرخوا المدينة على حدثين هامين :

الأول : هو الشدة المستنصرية التى حلت بالبلاد فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى (٤٢٧ ـ ٤٨٧ هـ/ ١٠٣٥ ـ ١٠٩٤ م) ويعود تعاظم أمر هذه الشدة إلى اضطراب الدولة وضعفها واتصال الفتن وضعف فيضان النيل ، ويذكر المقريزى عن هذه الشدة العديد من الحوادث ومنها بيع رغيف الخبز فى زقاق القناديل بالفسطاط بخمسة عشر ديناراً وأكل الناس القطط والكلاب ولحوم البشر (٢) .

وتأكد صحة ما ذكره المقريزى من خلال وثائق الجينزة اليهودية حيث أمكن من خلالها رصد ارتفاع السلع فى تلك الشدة خمسة وعشرين ضعف الثمن العادى . وتمخضت هذه الشدة عن خراب العديد من الأماكن بالفسطاط إذ تؤكد حفريات كويباك وسكانلون وجود هجرة

---

(١) أندرية ريمون : تاريخ حاضرة ، ص ٦٢ ، ٦٣ .

(٢) المقريزى ، إغاثة الأمة بكشف الغمة ، ص ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ تحقيق دكتور سعيد عاشور ، كتاب الهلال ، العدد ٤٧٢ ، ١٩٩٠ م .

من الجزء الشرقى للمدينة تعود إلى عصر المستنصر [1].

والحدث الثانى هو حريق الفسطاط عام ٥٦٥ هـ/ ١١٦٨ م . ذلك الحريق الذى أمر بإضرامه شاور وزير الخليفة الفاطمى العاضد فى الفسطاط ، عندما توجه القائد الصليبى « آمورى » إلى مصر غازيا ، فاستولى فى طريقة على بلبيس ويصف مؤرخ صليبى ما حدث فى تلك المدينة من فظائع على يد القوات الصليبية على النحو التالى : « دخل رجالنا إلى المدينة شاهرين سيوفهم ، وبدأوا فى قتل كل من يلاقونه ، سواء كانوا رجالاً أو نساءاً ، عجائز أو شباباً ، دون مراعاة لأحد منهم . . وحين كانوا يجدون عذارى أو عجائز كامنين داخل الغرف كانوا يقتلونهم بحد السيف ولا يحافظون إلا على أولئك الذين قد يحصلون من ورائهم على فدية كبيرة ، وأخيراً حدث دمار رهيب وسلب مفزع » .

وتمكن آمورى من أسر ابن شاور ثم بعث لوالده برسالة مهينة ، تقول الرسالة :

« يتساءل ابنك فيما إذا كنت أظن بأن بلبيس قطعة من الجبن يمكننى إلتهامها ، نعم ، فى الواقع إن بلبيس هى قطعة الجبن والقاهرة قطعة الزبد اللتين أود إلتهامهما » وكان سلوك الصليبيين مذموماً إنسانياً ، كما كان قليل الحصافة سياسياً ، وحينما علم شاور بما حدث قرر الاستنجاد بنور الدين محمود حاكم دمشق ، وحين وصل الصلليبيون إلى مشارف القاهرة ، رأى شاور أنه غير قادر على الدفاع عن الفسطاط لأنها لم تكن

---

(١) أندرية ريمون ، مرجع سابق ، ص ٧١ .

محمية بالأسوار ، ولأجل منع العدو من إتخذها قاعدة له أمر بإخلائها وحرقها وفي ذلك يقول . المقريزي [١]. فنادى شاور بمصر ألا يقيم بها أحد وأزعج الناس فى النقلة منها فتركوا أموالهم وأثقالهم ونجوا بأنفسهم وأولادهم وقد هاج الناس واضطربوا كأنما خرجوا من قبورهم إلى المحشر لايعبأ والدبولدة ولا يلتفت أخ إلى أخيه وبلغ كراء الدابه من مصر إلى القاهرة بضعة عشر دينارا ، وكراء الجمل ثلاثين دينارا ونزلوا بالقاهرة في المساجد والحمامات والأزقة وعلى الطرقات فصاروا مطروحين بعيالهم وأولادهم وقد سلبوا سائر أموالهم . . وبعث شاور بعشرين ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار فرق ذلك فيها ، فارتفع لهب النار ودخان الحريق فى السماء فصار منظرا معمولا فاستمرت النار تأتى على مساكن مصر من اليوم التاسع والعشرين من صفر لتمام أربعة وخمسين يوما . . ومن حينئذ خربت مصر الفسطاط هذا الخراب الذى هو الآن كيمان مصر وتلاشى أمرها » .

وقد أجمل لنا القلقشندى الخراب الذى حدث للفسطاط منذ تأسيس القاهرة ، وحتى نهاية الدولة الفاطمية بقوله [٢]: « ولم يزل الفسطاط زاهى البنيان ، باهى السكان إلى أن كانت دولة الفاطميين (العبيديين) بالديار المصرية وعمرت القاهرة فتقهقر حالة وتناقص ، وأخذ الناس فى الانتقال عنه إلى القاهرة وما حولها فخلا من أكثر سكانه وتتابع الخراب

---

(١) المقريزى ، المصدر السابق ، حـ ١ ص ٣٣٨ ، ٣٣٩ .
(٢) القلقشندى ، المصدر السابق ، حـ ٣ ، ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ .

فى بنيانه إلى أن غلب الفرنج على أطراف الديار المصرية فى أواخر حكم العبيديين فأضرم شاور السعدى فيها النار فأتت على مساكنها وأحرقتها فتزايد الخراب فيه وكثر الخلو » .

ويشكك عدد كبير من الأثريين فى الأثر الذى تركه حريق الفسطاط على عمرانها ، خاصة أن وثائق الجنيزة لم تشر إلى هذا الحادث ألا فى مواضع محدودة وتبين أثرا جزئيا للحريق ، ولم يذكر غليوم دوتير المؤرخ المرافق لحملة آمورى على مصر حادث الحريق ، أما ابن جبير الرحالة المغربى فيذكر أن أثر الحريق كان محدودا وأنه تم اصلاح ما أفسده الحريق[1] ونرى أن الفسطاط سبق وأن تعرضت لحريق على يدمرو ان بن محمد آخر الخلفاء بنى أمية ولكنها سرعان ما عاد إليها نشاطها ، وأن الحيوية الاقتصادية للفسطاط كانت كفيلة بإعادة العمران لها ، وأن الحريق شجع على إعمار مناطق طرح النهر على شاطئ الفسطاط ، فضلاً عن ما اعتاد عليه المؤرخون المسلمون من تضخيم مثل هذه الأحداث وتضخيم ما يترتب عليها .

ويرى محمود الحسينى ان تدهور الفسطاط بدأ قبل ذلك حينما أسست القاهرة إلى الشمال منها واتخذها العبيديون مقرالهم دون سواهم . نعم أن مدينة الفسطاط بقيت زمنا مركزا للتجارة والتجار والصناعة والحرفيين وسائر الشعب ولكن قيام القاهرة صوب إلى الفسطاط ضربة قاضية

---

(1) W . Kubiak , The Burning of Misrr al Fustat in 1168 , Africana Baulletin , n 75 . 1976 .

بحيث أصبحت المدينة الجديدة كلما قطعت مرحلة فى سبيل التقدم والرقى تخطو الفسطاط بجانبها مرحلة فى طريق التدهور والسقوط . وكان من نتائج هذه الشدة وهذا الخراب الذى حل بالمدينة أن هجر السكان بعض خططهم ونشأ عن تركهم تلك الخطط ما يسميه المؤرخون «خراب الفسطاط » [1].

وهذه ملاحظة صائبة ، إذ أصبحت القاهرة وامتدادتها العمرانية صوب الجنوب فى اتجاه القلعة ومسجد ابن طولون فى العصر المملوكى ، مركز الثقل الاقتصادى لمصر ، وإن ظلت الفسطاط تحظى بأهمية خاصة ويعود ذلك لعدة أسباب لعل أهمها ، وجود مسجد عمرو بن العاص بها ، وهو يمثل كما يسميه المؤرخين تاج الجوامع ، وأول مسجد أسس بمصر ، وجامعة علمية ، والسبب الثانى استبحار العمران بالمدينة فى أراضى طرح النهر ، وذلك على حساب المدينة القديمة خلف مسجد عمرو بن العاص والتى تحولت تدريجيا إلى كيمان .

أن الفسطاط ظلت ميناءاً تجارياً يستقبل البضائع من صعيد مصر - فضلاً عن وجود العديد من المنشآت العامة ذات الأهمية الخاصة بالنسبة لمصر مثل دار الصناعة ومقياس النيل .

---

(١) د . محمود الحسينى ، المرجع السابق ، ص ٣٦٨ .



الفصل الرابع

الفسطاط.. الإنحسار.. والبقاء

الفسطاط ..
الإنحسار .. والبقاء

أخذت الفسطاط بعد الحريق الهائل الذى تسبب فى هجرة أهلها منها تلتقط أنفاسها ، فعندما تولى أسد الدين شيركوه الوزارة بعد مقتل شاور نادى فى الناس بالرجوع إلى الفسطاط « فاشتكى الناس من شدة فقرهم وخراب منازلهم وقالوا إلى أى مكان نرجع وفى أى مكان ننزل ونأوى وقد صارت كما ترى وبكو وأبكوا فوعدهم جميلاً وترفق بهم ورجع الناس إليها إلا قليلاً وعمروا ما حول الجامع العتيق » (١).

وشرع صلاح الدين الأيوبى منذ توليه الوزارة فى محاولة تنشيط حركة العمران بالفسطاط ، فجدد جامع عمرو سنة ٥٦٨ هـ / ١١٧٢ م ، وكان لسور صلاح الدين الذى تم مده ليحيط بالفسطاط والقاهرة معا أثره فى اعادة عمران القسم الغربى منها ، وهو القسم الذى صار داخل السور، أما القسم الشرقى من الفسطاط فقد ظل كيمانا (٢).

---

(١) د . عبد الرحمن زكى ، الفسطاط وضاحيتها العسكر والقطائع ، ص ٣٤ .
د . حسن الباشا ، مدخل إلى الآثار الإسلامية ، ص ٧٢ .

(٢) أسامة عبد النعيم ، أسوار صلاح الدين وأثرها فى امتداد القاهرة حتى عصر المماليك ، ص ٣٢٠ .

وهنا يحدثنا ابن جبير الذى جاء إلى مصر عام ٥٧٨ هـ/ ١١٨٢ م وزار الفسطاط أى بعد الحريق الذى نشب فيها بأربعة عشر عاماً ، أن أكثر ما بها من بنيان مستجد ، وهى مدينة كبيرة والآثار القديمة حولها ، وعلى مقربة منها ظاهر يدل على عظمة إختطاطها [١] ويعلق ستانلى لين بول على ما ذكره ابن جبير بأن المدينة كانت أقل خرابا مما يتبادر إلى أذهاننا من العبارات التى دونت عن ذلك الحريق . حتى أن ابن جبير أقام فى فندق أبى الثناء فى زقاق القناديل الذى ما يزال عامراً بالقرب من جامع عمرو [٢] .

شهدت الفسطاط فى العصر الأيوبى نشاطا علميا مكثفا خلال العصر الأيوبى ، ويعود ذلك لعدة أسباب ، منها حب صلاح الدين للعلم والعلماء ، ورغبته فى مناهضة المذهب الإسماعيلى مذهب الفاطمين ورد الاعتبار للمذهب السنى فى مصر ، وكان يرى فى المدارس الوسيلة المثالية لذلك . ومن المدارس التى أنشأها صلاح الدين ورجال دولته بالفسطاط .

* المدرسة الناصرية

بدأ صلاح الدين يجهز لمشروعه الكبير ، وهو إعادة الاعتبار للمذهب السنى فى مصر التى كان أغلب أهلها سنة ، تمهيدا لتثبيت نفوذه بها ولاتخاذ مصر قاعدة لمحاربة الصلبيين فيما بعد ، قبل سقوط الخلافة الفاطمية وأثناء وجود الخليفة العاضد ويؤكد ابن الأثير

---

(١) ابن جبير ، رحلةابن جبير ، ص ٢٧ ، طبعة لجنة تحقيق التراث ، ١٩٨١ م .
(٢) ستانلى لين بول ، سيرة القاهرة ، ص ١١١ ، طبعة الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٩٧ م .

على ذلك بقوله« كان بمصر دار للشحنة تسمى دار المعونة يحبس فيها من يريد حبسه فهدمها صلاح الدين وبناها مدرسة للشافعية وأزال ما كان فيها من الظلم ، وبنى دار العدل مدرسة للشافعية أيضا »[1] .

ويؤكد المقريزى ما سبق ذكره بأن « هذه الدار كانت سجنا يعرف بالمعونة ، فهدمها السلطان صلاح الدين فى أول المحرم سنة ست وستين وخمسمائة وأنشأها مدرسة برسم الفقهاء الشافعية ، وكان حينئذ يتولى وزارة مصر للخليفة العاضد ، وكان هذا من أعظم ما نزل بالدولة ، وهى أول مدرسة عملت بديار مصر ، [2]وكانت هذه المدرسة تعرف فى الماضى بخطة قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى ، وعرفت أيضا بدار الفلفل ، ثم قام عيسى بن زيد الجلودى ببناء هذه الدار للشرطة سنة مائتى وثلاث عشرة ثم صارت سجنا يعرف بالمعونة وتغير اسم هذه المدرسة من الناصرية الذى عرفت به فى عهد صلاح الدين إلى اسم « ابن زين التجار» أحد أعيان الشافعية ، والذى قام بالتدريس فى هذه المدرسة لمدة طويلة وتوفى سنة ٥٩٣ هـ ، وتغير اسمها بعد ذلك وعرفت بالمدرسة الشريفية[3] .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، حـ٩ ، ص ١١٠ .
ابن دقماق ، الجوهر الثمين فى سير الخلفاء والملوك والسلاطين ، ص ١١ ، تحقيق ، د سعيد عاشور ، مراجعة أحمد دراج ، جامعة أم القرى .
د . عفاف صبره ، المدارس فى العصر الأيوبى ، ص ١٥١ ، بحث فى كتاب تاريخ المدارس الإسلامية ، سلسلة تاريخ المصريين ، ١٩٩٢ م .

(٢) المقريزى ، الخطط ، حـ٢ ، ص ٣١٥ .

(٣) د . عفاف صبرة مرجع سابق ، ص ١٥٢ .

* المدرسة القمحية

بدأ صلاح الدين فى إقامة هذه المدرسة سنة ٥٦٦ هـ قبيل وفاة العاضد، وتعتبر من أهم المراكز العلمية لتدريس المذهب المالكى ، وبنيت المدرسة فى موضع قيسارية بالفسطاط كان يباع فيها الغزل فهدمها صلاح الدين وبنى المدرسة مكانها ، ويصف المقريزى هذه المدرسة بأنها من أجل مدارس المالكية حيث رتب فيها السلطان أربعة من المدرسين عند كل مدرس عدد من الطلبة وعرفت هذه المدرسة بالقمحية ، لأن صلاح الدين أوقف لها ضيعة بالفيوم تعرف بالجنوشية وكان يتحصل منها قمح يفرق على الطلبة الذين يدرسون بها .

وتعتبر المدرسة القمحية من أشهر المدارس السنية فى العصر الأيوبى ، ولعبت دوراً كبيراً فى تدريس المذهب المالكى الذى كان من المذاهب الشائعة فى مصر وشمال أفريقيا (١).

وأمتد الإهتمام بتشييد المدارس بمصر الفسطاط من ملوك بنى أيوب إلى أمرائهم ومن مدارس هؤلاء الأمراء :

* مدرسة منازل العز

كانت من الدور التى شيدت فى العصر الفاطمى ، شيدتها أم الخليفة العزيز بالله وعرفت بمنازل العز ، وكانت تشرف على النيل وتعد لسكنى الخلفاء .

أنزل السلطان صلاح الدين ابن أخيه تقى الدين عمر هذه الدار فسكنها

---

(١) د . عفاف صبرة ، مرجع سابق ، ص ١٥٣ .

مدة ثم إشتراها سنة ٥٦٦ هـ ، وعندما أراد تقى الدين أن يخرج من مصر إلى الشام « وقف منازل العز هذه وحولها إلى مدرسة للفقة الشافعى »[١] .

أوقف تقى الدين عمر مجموعة من الأوقاف للإنفاق على هذه المدرسة ومنها الحمام المجاور لها ، وعمر الاصطبل فندقا عرف بفندق النخلة وقفه عليها وكذلك أوقف جزيرة مصر التى اشتراها وعرفت بالروضة ، وقد أطلق على هذه المدرسة التقوية نسبة إلى تقى الدين عمر[٢] ويتضح لنا مما سبق أن تقى الدين عمر ترك مشروعاً معماريا مكونا من أكثر من وحدة معمارية ، وهو ما يعكس لنا نشاط عمرانيا كثيفا فى الفسطاط فى تلك الفترة .

* المدرسة الأزكشية

قام ببنائها الأمير سيف الدين أبازكوج مملوك أسد الدين شيركوه ، وأحد أمراء صلاح الدين الأيوبى ، وجعلها وقفا على الفقهاء الحنفية سنة ٥٩٢ هـ[٣] وبذلك تعتبر هى المدرسة الثانية التى تدرس الفقه الحنفى بمصر ، وقد جاءت عمارتها ضمن مجموعة معمارية تضم

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٧ .
(٢) ابن دقماق ، الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، الجزء ٤ ، ص ٩٣ ، ٩٤ .
د . عفاف صبرة ، مرجع سابق ، ص ٣٢٠ .
(٣) ابن دقماق ، الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، حـ ٤ ، ص ٩٥ .

ربعين [1] متقابلين بناهما الأمير سيف الدين ، وشيدت المدرسة علو أحد الربعين ، وهذا نموذج آخر على مجموعة معمارية من العصر الأيوبى بالمدينة .

* المدرسة الصاحبية

أنشأها الوزير بهاء الدين على بن محمد سنة ٦٥٤ هـ ، وكانت من أجل مدارس الدنيا ، وتدل المصادر التاريخية على أنه كان بها طباق لسكن الطلبة ، وكان الطلبة يتزاحمون على السكنى بها ، لعظم صيت المدرسة [2] .

* مدرسة بن رشيق

قام شعب الكانم من بلاد التكرور الأفارقة بدفع مبلغ للقاضى علم الدين بن رشيق عند وصولهم إلى مصر متجهين إلى الأراضى المقدسة

---

(١) الربع : الربع الدار حيث كانت والمنزل والوطن ، وكل ذلك مشتق من ربع المكان إذا أطمأن . وفى العمارة المملوكية يقصد به مجموعات من الوحدات السكنية ، وغالبا تعلو خان أو وكالة أو حوانيت ، وكل مجموعة من الوحدات السكنية لها مدخل وسلم خاص بها تسمى ربع ، أن من الممكن أن يكون بالمبنى الواحد أكثر من ربع .
وفى الوثائق نجد « ربع دورين متطابقين أربعة عشر طبقة » و « ربع يشتمل على دورين علوية وسفلية » و « ربع يشتمل على مساكن عدتها أربعة وعشرون مسكناً » و « ربع يشتمل على طباق دائرة عدتها ستة عشر طبعة » و « ربع دورين به مساكن ثلاثة وثلاثون سكنا وأربع قاعات » .
د . محمد أمين وليلى على إبراهيم ، المصطلحات المعمارية فى الوثائق المملوكية ، ص ٥٢ ، دار النشر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ، ١٩٩١ م .

(٢) ابن دقماق ، الانتصار ، حـ ٤ ، ص ٩٥ .
د . عفاف صبرة ، مرجع سابق ، ص ١٦٠ .

لأداء فريضة الحج ، وذلك من أجل اقامة مدرسة لتدريس الفقه المالكى بمصر فقام ابن رشيق ببنائها ، « ودرس بها فعرفت به » [1]واستمر هؤلاء وداوموا على إرسال المال اللازم لهذه المدرسة حتى صارت لها سمعة كبيرة فى بلاد التكرور على أنها مدرسة تحمل اسمهم داخل مصر[2] .

* النيل وأثره

عانت مصر خلال عامى ٥٩٧ / ٥٩٨ هـ ـ ١٢٠٠ / ١٢٠١ م من مجاعة وأزمة غلاء فى الأسعار بسبب نقصان مياه النيل ، حيث لم ترتفع مياه النيل أكثر من ١٢ ذراعا و ٢١ أصبعا وهو أدنى منسوب لمياه النيل ، ويصف عبد اللطيف البغدادى ما حل بمصر فى عام ٥٩٧هـ قائلاً «ودخلت سنة سبع مفترسة أسباب الحياة ، وقد يئس الناس من زيادة النيل وارتفعت الأسعار وأقحطت البلاد وأشعر أهلها البلاء وهربوا من خوف الجوع وإنضوى أهل السواد والريف وتفرقوا فى البلاد أيادى سبيا ومزقوا كل ممزق ، ودخل إلى القاهرة ومصر أى الفسطاط منهم خلق عظيم ، واشتد بهم الجوع ووقع فيهم الموت . وعند نزول الشمس الحمل[3]وبىء الهواء ووقع المرض والموتان واشتد بالفقراء الجوع حتى

---

(١) ابن دقماق ، مصدر سابق ، حـ ٤ ، ٩٦ .

(٢) د . عفاف صبره ، مرجع سابق ، ص ١٦٣ .

(٣) وذلك يكون من يوم ٢١ مارس إلى ٢٠ إبريل من كل عام ويبدو أن هذه الفترة التى كثر فيها عفن الجثث بالمدينة ، مع شمس هذه الفترة وريح الخماسين كل ذلك ساعد على انتشار الوباء بالمدينة .

أكلوا الميتات والجيف والكلاب والبعر والأرواث ثم تعدوا ذلك إلى أن أكلوا صغار بنى آدم فكثيراً ما يعثر عليهم ومعهم صغار مشويين أو مطبوخين فيأمر صاحب الشرطة باحراق الفاعل لذلك والآكل[١] . ويؤكد البغدادى أنه تم حصر مائة وأحد عشر ألفا من الموتى فى القاهرة وحدها وأكثر من ذلك فى الفسطاط التى يصفها أثناء زيارته لها سنة ٥٩٨ هـ بقوله : « ثم أننا دخلنا مصر فرأينا منها دروباً وأسواقاً عظيمة كانت مغتصة بالزحام والجميع خال ليس فيه حيوان إلا عابر سبيل فى الأحايين ، وأن المار فيها ليستوحش ، ومع ذلك فقلما ينفك قطر منها عن جثة وعظام متفرقة حتى خرجنا إلى موضع يسمى اسكرجة فرعون فرأينا الأقطار كلها مغتصة بالجثث والرمم »[٢] .

وكان قد حكى للبغدادى رواية ذات دلالة على عظم ما حدث بالفسطاط وذلك قبيل زيارته لها التى وصف فيها حالها كما نقلناه حيث قيل له « أنه كان بمصر تسع مائة منسج للحصر ، فلم يبق إلا خمسة عشر منسجا ، وقس على هذا سائر ما جرت العادة أن يكون بالمدينة من باعة وخبازين وعطارين وخياطين وغير ذلك من الأصناف ، فانه لم يبق من كل صنف من هؤلاء الا نحو ما بقى من الحصريين أو أقل من ذلك »[٣] .

وتؤكد وثائق الجنيزة ضخامة هذه الأزمة فى الفسطاط ، وتسجل

---

(١) عبد اللطيف البغدادى ، الأفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، ص ٥٢ ، كتابات مصرية ، القاهرة ١٩٨٨ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٦٥ ، ٦٦ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٦٠ .

مقدار ارتفاع الأسعار (وصل ثمن أردب القمح إلى ٣ دينارات فى عام ١٢٠١) ، كما تذكر تدهور الأنشطة (هبوط ايجارات الرباع إلى النصف ويوجد الكثير منها خالى بلا مكان » . وتشير هذه الوثائق أيضا إلى نزوح السكان إلى القاهرة (١) .

إتخذ الصالح نجم الدين أيوب من جزيرة الروضة مقراً سلطانياً من خلال إقامة القلعة الصالحية بها عام ٦٤٦ هـ/ فكان لذلك أثره فى إزدهارمصر الفسطاط لبعض الوقت ، ذلك أن الجند إنتقلوا إلى مصر ليكونوا على مقربة من القلعة الصالحية . وقد تضخمت أسواق مصر وبنى الصالح نجم الدين أيوب أمام الجسر الذى يربط الجزيرة بساحل الفسطاط قيسارية عظيمة تضم كل ما يلزم الجند المقيمين فى القلعة الصالحية (٢) .

على أن أمر هذه القلعة لم يدم طويلاً ، فقد أمر عز الدين أيبك التركمانى (أول ملوك المماليك) عام ٦٤٩ هـ بإخلاء القلعة ، ولم يترك فيها أحداً من المماليك ، بل هدمها ، واستفاد من أنقاضها فى بناء المدرسة المعزية بالفسطاط على مقربة من شاطئ النيل ، كذلك فعل المنصور قلاوون (٦٧٨ هـ ـ ٦٨٩ هـ) حين أراد عمارة البيمارستان المنصورى ومدرسته . أما ما بقى من أنقاض القلعة الصالحية إلى أيام الناصر محمد فقد تمت الإستفادة منه ، وخربت بعد ذلك تماما (٣) .

---

(١) أندرية ريمون ، القاهرة تاريخ حاضرة ، ص .
(٢) ابن سعيد المغربى ، النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة ، ص ٢٧ .
(٣) ابن دقمان ، مرجع سابق ، حـ ٤ ، ص ١١٣ .
القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، حـ ٣ ، ص ٣٣٩ .

زار الفسطاط فى أواخر العصر الأيوبى الرحالة ابن سعيد المغربى[1] وقدم لنا وصفاً لحالها فى ذلك الوقت ، فيقول لنا لما أقبلت على الفسطاط أدبرت عنى المسرة ، وتأملت أسواراً مثلمة سوداء ، وآفاقاً مغبرة ، ودخلت من بابها ، وهو دون غلق ، يفضى إلى خراب معمور بمبان مشتتة الوضع ، غير مستقيمة الشوارع ، قد بنيت من الطوب الأدكن والقصب والنخيل ، طبقة فوق طبقة وحول أبوابها من التراب والأزبال ما يقبض نفس النظيف ، ويغض طرف الظريف ، فسرت وأنا معاين لاستصحاب تلك الحال إلى أن سرت فى أسواقها الضيقة فقاسيت من ازدحام الناس فيها بحوائج السوق والروايا التى على الجمال ما لا يفى به لا مشاهداته ومقاساته ، إلى أن انتهيت إلى المسجد الجامع فعانيت من ضيق الأسواق التى حوله ما ذكرت به ضده فى جامع إشبيلية وجامع مراكشى ، ثم دخلت إليه ، فعاينت جامعا كبيراً قديم البناء ، غير مزخرف ولا محتفل به فى حصره . . . . إلا أن مع هذا كله ، على الجامع المذكور من الرونق وحسن القبول ، وانبساط النفس فى صحنه ، ولقد تأملت ما وجدته فيه من الإرتياح والأنس دون منظر يوجب ذلك ، فعلمت أنه سر مودع من وقوف الصحابة رضوان الله عليهم فى ساحته عند بنائه ، واستحسنت ما أبصرته فيه من حلق المتعددين لقراءة القرآن والفقه والنحو فى عدة أماكن . . . ثم انفصلنا من هنالك إلى ساحل النيل ، فرأيت

---

(١) ولد ابن سعيد المغربى بقلعة يحصب فى غرناطة سنة ٦١٠ هـ/ ١٢١٣ م . من قبيلة يمنية احتل أبناؤها هذا المكان عند فتح الأندلس ، قدم إلى مصر سنة ١٢٤٦ م ، ويقى فيها فترة ، ووصف لنا أحوال الفسطاط فى أخريات دولة الأيوبيين .
د . عبد الرحمن زكى ، الفسطاط وضاحيتها القطائع والعسكر ص ٥٧ .

ساحلاً كدر التربة غير نظيف ، ولا متسع المساحة ، ولا مستقيم الإستطالة ، إلا أنه مع ذلك كثير العمارة بالمراكب وأصناف الأرزاق التى تصل من جميع أقطار النيل ، ولئن قلت إنى لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل فإنى أقول حقا . والنيل هنالك ضيق يكون الجزيرة التى بنى فيها السلطان الآن قلعته ـ يقصد الصالح نجم الدين أيوب ـ قد توسطت الماء ومالت إلى جهة الفسطاط ، وبحسن سورها المبيض الشامخ حسن منظر الفرجة فى ذلك الساحل .

وأما ما يرد على الفسطاط من متاجر البحر الإسكندرانى والبحر الحجازى فانه فوق ما يوصف ، وبها مجمع ذلك لا بالقاهرة ومنها يجهز إلى القاهرة وسائر البلاد . وبالفسطاط مطابخ السكر والصابون ومعظم ما يجرى هذا المجرى لأن القاهرة بنيت للاختصاص بالجند ، كما أن جميع زى الجند هو بالقاهرة أعظم منه بالفسطاط ، وكذلك ما ينسج ويصاغ وسائر ما يعمل من الأشياء السرقيقة السلطانية ، والخراب فى الفسطاط كثير . والقاهرة أجد وأعمر ، وأكثر زحمة ، بسبب إنتقال السلطان لها ، وسكنى الأجناد فيها ، وقد نفخ روح الإعتناء والنمو فى مدينة الفسطاط الآن . لمجاورتها للجزيرة الصالحية ـ حيث يوجد حكم وقلعة الصالح أيوب ـ وكثير من الجند قد إنتقل إليها للقرب من الخدمة(١) .

---

(١) ابن سعيد المغربى ، المحلى فى حلى المقرب ، تحقيق د . زكى محمد حسن نشر جامعة القاهرة ، ١٩٥٣ .
د . عبد الرحمن زكى ، مرجع سابق ، ص ٥٧ : ص ٧٠ .

وملاحظات ابن سعيد جديرة بالاهتمام ، فهو أدرك خراب أجزاء من الفسطاط نتيجة للمجاعات والأوبئة وحريقها فى السنوات الماضية على زيارته ، ودخلها من باب مصر الذى شيد فى العصر الأيوبى ، وشاهد القلعة الصالحية فى أوج إزدهارها ، وبين أثرها فى نشاط الحركة العمرانية فى الفسطاط .

* الفسطاط فى العصر المملوكى

إذا حاولنا معالجة الصورة العمرانية لمصر الفسطاط فى العصر المملوكى سوف نجد أشكالا متعددة من صور العمران ، منها ما هو داثر خراب فى شكل أطلال ، وكيمان متخلفة عن الحريق فى شرقى الفسطاط ، ومنها مناطق قد خربت بعد الحريق لأخذ أنقاضها لتستخدم من جديد فى العمران الحادث . ومنها مرافق ومبان قديمة حافظت على حياتها العمرانية وإن اختلفت صورة استخدامها عن سابق عهدها ، أى أنها تدنت صورتها العمرانية عن سابق عهدها ، من حيث الإستخدام الوظيفى بسبب ما مر على مدينة الفسطاط من خراب وتدهور ، ومثل هذه الصورة واضحة فى بقايا مصر الفسطاط فى المبانى التى ظلت كأماكن يمكن الإستفادة من مبانيها فى وظائف أخرى غير التى أقيمت من أجلها أول مرة [1] ومنها مرافق ومبان حافظت على صورتها ووظيفتها الحضرية - خاصة المرافق الدينية بحكم قدسيتها وإتساع مواردها عن طريق الوقف . وإن كانت مثل هذه المرافق قد تناقص عددها عن سابق عهدها .

---

(١) د . عبد العال الشامى ، مدن مصر وقراها فى القرن الثامن الهجرى ، ص ٥٣ ، سلسلة اصدارات مجلة الآداب والعلوم الإنسانية ، المجلد التاسع ، جامعة المنيا ١٩٩١ م .

هذه الصور الثلاث السابقة تمثل العمران القديم فى مصر الفسطاط .

أما العمران الحادث فهو أوضح صور الجانب الإيجابى للعمران بمصر الفسطاط فى العصر المملوكى . وهذا ما يجعل القول بأن مصر الفسطاط فى عمرانها خلال العصر المملوكى البحرى تفضل ما كان قائما منذ زوال العصر الذهبى للفسطاط (العصر العبيدى ـ أى الفاطمى ـ الأول) .

ومصادر الصورة العمرانية التى سنقدمها للفسطاط فى هذا العصر تعتمد أساسا على ما سطره ابن دقماق فى كتابه « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » باعتباره أوفى مصدر يتحدث عن مصر الفسطاط منذ نشأتها وحتى أواخر القرن الثامن الهجرى ، بل ليس بعيدا أن يكون المقصود من عنوان الكتاب « واسطة عقد الأمصار » أن تكون مصر الفسطاط هى المقصوده بين جملة الأمصار العظمى فى الإسلام كالكوفة والبصرة والقيروان والقاهرة . . . . الخ وإذا كان يعيب كتاب ابن دقماق أنه مجرد مسودة لم تستكمل بعد وفيها فراغات عديدة مما يخل بالغرض المطلوب ، كما أن هناك أوراقا ساقطة من المخطوط فى هذا الجزء الخاص بمصر الفسطاط فضلا عن التداخل أو الإدراج لبعض صفحات مصر الفسطاط فى الموضع الخاص بالقاهرة ، لكن أفضل ما يميز كتاب ابن دقماق هو اعتماده الكبير على ابن المتوج الذى يغطى الثلث الأول من القرن الثامن الهجرى ثم يقدم ابن دقماق بعد ذلك ما استجد فى عصره حتى نهاية القرن الثامن الهجرى [1] .

---

(١) د . عبد العال الشامى ، المرجع السابق ، ص ٥٤ .

ونستطيع أن نحدد عددا من العوامل التى أثرت على عمران الفسطاط إيجابا وسلبا فى النقاط التالية : ـ

أولا : العوامل الإيجابية : ـ

ـ التغييرات التى طرأت على شاطئ النيل أمام مدينة مصر الفسطاط :

كان شاطئ النهر يجف أمام شاطئ الفسطاط وهو ما يعرف بظاهرة طرح النهر ، أى اضافة أراضى للشاطئ على حساب مجرى النيل فى الشاطئ الشرقى بينما ينحر النهر فى الشاطئ الغربى لمجراه ، ولم تشهد منطقة الفسطاط ظاهرة طرح النهر بوضوح إلا فى أواخر القرن السابع الهجرى ، ومن ثم حدث عمران واسع على أراضى طرح النهر بطول شاطئ الفسطاط [٢].

ـ إحتفاظ مصر الفسطاط ببعض الوظائف ـ خاصة الاقتصادية : ـ

بالرغم من العوامل السلبية كحريق الفسطاط والمجاعات الناتجة عن انخفاض منسوب النيل ونقل السلطة المركزية للقاهرة ، وهذا الإحتفاظ قد أتاح لبقايا الفسطاط أن تبدأ فى المحافظة على العمران القديم الباقى ، ثم تأتى مرحلة العمران الحادث منذ بدأت الدولة الأيوبية وبلغ ذروته فى القرن الثامن الهجرى . ويمكن أن نرى من مراجعة ابن دقماق أن نرى أمثلة كثيرة للمرافق والمنشآت التى استحدثت فى القرن السابع الهجرى خاصة أواخره فأكسبت العمران الحادث فى القرن الثامن صورة عمرانية

---

(١) محمد رمزى : شاطئا النيل تجاه مصر القديمة والقاهرة ، ص ٥١٧ ، مجلة العلوم ، السنة التاسعة ، القاهرة ١٩٤٢ م .

مزدهرة خاصة في مجال المرافق الدينية باعتبارها نواه حضرية أساسية فى كل مرحلة نمو عمرانى حادث(١) .

ـ النمو العمرانى الكبير للقاهرة فى غربيها وجنوبها الغربى المتزامن مع العمران الحادث فى غربى الفسطاط من وراء التحام النطاقات العمرانية الحادثة وملأ الفراغات والفواصل بين مدينتى مصر الفسطاط والقاهرة والقلعة ليظهر مجمعا حضريا كبيرا فى القرن الثامن الهجرى (٢) .

ثانيا : العوامل السلبية :

المقصود هنا ذكر أهم العوامل التى صادفت النمو العمرانى لمصر الفسطاط وأثرت على درجة النمو سواء أكانت هذه العوامل سابقة للقرن الثامن الهجرى أو كانت خلال ذلك القرن . وهذه العوامل هى كما يلى :ـ

ـ حريق الفسطاط عام ٥٦٤ هـ والمجاعات الناتجة عن نقص مياه النيل . ونتج عن كليهما آثار سيئة على عمران المدينة وبالرغم من رجوع سكان المدينة إليها ، ومحاولة ترميم ما خرب إلا أن آثارها كانت أكبر من أن يتم استرجاع عمران المدينة كما كان أول مرة ، وتخلف عن ذلك الكيمان والأطلال التى مازالت بقاياها موجودة إلى اليوم ؛ من ثم فقد كانت الجهات الشرقية فى عداد الخراب . يقول المقريزى معلقا على حريق الفسطاط « فأتى على مساكنها فأصبحت منذ ذلك الحين تعرف باسم كيمان مصر » وتلاشى أمرها وإفتقر أهلها ، وذهبت أموالهم

---

(١) للأمثلة أنظر : ابن دقماق ، الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، جـ ٤ ، ص ٧٨ . و د . عبد العال الشامى ، المرجع السابق ص ٥٧ .
(٢) د . عبد العال الشامى ، المرجع السابق ، ص ٥٨ .

وزالت نعمتهم » [1]. وهذه مبالغة شديدة منه ويذكر القلقشندى [2] أنه منذ عصر الظاهر بيبرس بدأ الهدم فى أطلال خطط (أحياء) الفسطاط والبناء بالأنقاض بساحل النيل بفسطاط مصر والقاهرة ، وتزايد الهدم فيه إلى الآن (عصر القلقشندى : القرن الثامن الهجرى) وقد كان هذا الهدم سببا فى إندثار أكثر الخطط القديمة للفسطاط .

- الفناء الكبير أو الموت الأسود عام ٧٤٩ هـ :

إذا كان ما حدث من آثار سلبية على مصر الفسطاط فيما سبق القرن الثامن الهجرى وترك آثاره على العمران لبعض الوقت فإن القرن الثامن الهجرى - وهو فترة الإزدهار العمرانى - قد شهدفى عهد الناصر حسن (٧٤٩ هـ - ٧٥١) إنتشار وباء عام (امتد من الهند والشرق الأقصى إلى مصر وأوربا) كان من آثاره أنه كان يموت بمصر والقاهرة فى اليوم الواحد ما بين عشرة وعشرين ألف نفس ومن الطبيعى أن يكون أثر هذا الفناء الكبير أو الوباء العام على الفسطاط أكثر وضوحا وتأثيرا . فإن الوفيات الجماعية فى مثل هذا الوباء تؤدى إلى خراب الدور لإقفار معظمها من السكان ، ولكن بعد الوباء بدأت العمارة بصورة واضحة خاصة فيما يحيط بالجامع العتيق [3] .

ولم تكن تلك هى الكارثة الوحيدة التى تأثرت بها الفسطاط فقد تعرضت لمجاعة فى عصر الأشرف شعبان من عام ٧٧٦ هـ - ٧٧٨ هـ .

---

(١) المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٣٨ ، ٣٣٩ .
(٢) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٣ ، ص ٣٣٨ .
(٣) د . عبد العال الشامى ، المرجع السابق ، ص ٦٠ .

وقد دام الغلاء نحو سنتين ، وزاد من خطورته ما أعقبه ـ بعد عامه الأول ـ من وباء . وقد اعتبر المقريزى هذا الغلاء نذيرا لما بلغتة الفسطاط من شدة أدت إلى بداية الخراب الذى بدأ يحل بها حتى زاد مع بداية القرن التاسع الهجرى لذلك يقول : ولم يزل يخرب مصر الفسطاط ـ أى بعد غلاء عصر الأشرف شعبان ـ شيئا بعد شىء إلى عام ٧٩٠ هـ فعظم الخراب فى خط زقاق القناديل وخط النحاسين ، وشرع الناس فى هدم دور مصر وبيع أنقاضها حتى صارت على ما هى عليه الآن (فى القرن التاسع الهجرى) [١].

بقيت للفسطاط العديد من الوظائف الاقتصادية والدينية والخدمية ، وهى الوظائف التى بقيت لها بعد زوال وظيفتها السياسية الإدارية ، ومن الطبيعى أن تكون الوظيفة الاقتصادية فى مقدمة الوظائف نظرا لعمرها الحضارى فى هذا المجال منذ نشأتها الأولى كعاصمة لمصر الإسلامية لها موقعها النهرى الواضح وتوسطها الوجهين البحرى والقبلى ورسوخ الصناعات القائمة على الخامات الزراعية وغيرها بها لعدة قرون مما يصعب معه إستئصال هذه الوظيفة الاقتصادية وهذا ما تعكسه جملة المرافق الاقتصادية التاريخية وفى مقدمتها المنشآت التجارية والصناعية .

فى مقدمة المنشآت التجارية نجد الأسواق الرئيسية والفرعية (السويقات) والقياسر والرباع والفنادق ، وهذه المنشآت تخدم التجارة الداخلية والخارجية . وعلى الرغم مما أفسحه ابن دقماق من صفحات

---

(١) المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٣٠ ، إغاثة الأمة بكشف الغمة ، ص ٤٠ .

لدراسة هذه المنشآت إلا أن هناك صعوبة فى فصل الصورة التاريخية لهذه المنشآت عن الصورة المعاصرة اللهم إلا إذا حرص ابن دقماق وهو يستعرض تاريخ هذه المنشآت على ذكر صورتها بالنسبة لصورتها التاريخية على سبيل المقارنة بين الصورتين سلبا أو أيجابا .

وعند ذكر المرافق التجارية خاصة الأسواق يذكر ابن دقماق تاريخها منذ النشأة ، مع بيان الأسماء التى نسبت إليها الأسواق فقد تكون منسوبة إلى مجموعات عرقية كالبربر أو المغاربة أو العراقيين أو لأشخاص لهم مكانتهم أو لتجمعات حرفية كالصيادين والسماكين والزياتين ، أو إلى ما كان يباع بها من سلعة كالرقيق [١] .

هذا وقد أحصى ابن دقماق من الأسواق الكبيرة ثلاثا منها السوق الكبير وهو سوق مشهور قصبة واحدة [٢] له مسالك إليه كثيرة . وأما السويقات فقد ذكر منها نحو العشرين [٣] .

ولا تمثل الأسواق والسويقات إلا منشآت التجارة الداخلية لسد احتياجات سكان المدينة مثل باقى المدن ، وأما المنشآت الكبرى التى تخدم غير سكان المدينة فهى تلك التى تؤدى جملة وظائف من بينها التبادل التجارى وما يتطلبه من خدمات سواء كانت تلك المنشآت الكبرى داخل الأسواق أو خارجها .

---

(١) د . عبد العال الشامى ، المرجع السابق ، ص ٨٢ .
(٢) كلمة قصبة هنا : تعنى أنها قطعة واحدة متصلة للأغراض التجارية فحسب .
(٣) ابن دقماق ، مرجع سابق ، حـ ٤ ، ص ٣٢ ، ٣٤ .

ـ القياسر

وقد عدد ابن دقماق إثنى عشر قيسارية ، وحرص على أن يحدد أوصاف هذه المبانى ذات الصفة التجارية المتخصصة كمنشآت يقوم بها النشاط التجارى ويسكن فى أدوارها العلوية أصحاب الحرف .

والقيسارية قد تكون ذات مساحة كبيرة نسبيا عن المبانى العادية فهى متعددة الأبواب على نحو ما ذكر قيسارية المحلى « فهى سكن الصوافيين وهى بسوق الغرابليين والعطارين وتشتمل على ستة أبواب ، وهذه القيسارية مسكونة جميعها ، وليس بها حانوت خال ، وكان يباع بها سائر أنواع الصوف الخيش والشعر وغيره ، وكان ينزل إليها فى أيام أسواق مصر تجار القاهرة للبيع والشراء بها ، وأزقة أبوابها الخراب الآن (فى القرن الثامن الهجرى) كانت كلهامسكونة ، ولم يبق بها الآن مسكون إلا اليسير وخرب غالب علوها .

ـ وإذا كانت بعض القياسر فى عصر ابن دقماق ليست عامرة كسابق عهدها إلا أن هناك قياسر أخرى عامرة ومسكونة جميعها مثل قيسارية شبل الدولة التى كانت معروفة بأقمشة النساء [1] .

ولما كانت القيسارية تمثل مبنى كبير له وحداته المتعددة فإن خرابها بمعنى زوال صفتها التى نشأت من أجلها ، لا يمنع من استخدامها فى غرض آخر استغلالا لهذا المبنى القائم مثل قيسارية ابن الأرسوفى الكبرى ، فهى من القياسر المعطلات لها سنون مغلقة ، فجعلت صبانة فى

---

(١) ابن دقماق ، مرجع سابق ، حـ ٤ ، ص ٣٨ .

وقت من الأوقات ، كما أن قيسارية ابن الأرسوفى الصغرى يضرب بها النحاس ، أما قيسارية ورثة الظاهر التى كانت معروفة ببيع القماش الشامى فقد تعطلت لفترة طويلة حتى سد بابها البحرى من دهليزها وجعل حانوتا ، وأسكنت القيسارية من بابها القبلى للأساكفة حيث أنها كانت بأول سوق الأساكفة [1] .

واضح من النص السابق كيف أن بدأ العناية بالقياسر التى تعطلت قد أخذت أشكالا مغايرة لأصل النشأة ، وهى محاولات للإستفادة من بعض وحداتها المكانية بما يناسب ما حولها من حوانيت ، كما يعكس النص ما كانت عليه من تخطيط وعظم فى المساحة فالمهم هو استغلال هذه المبانى بما يعود بالنفع على ملاكها [2] .

ونظرا لأن القياسر تمثل مشروعات استثمارية ذات عائد ، فقد أصبحت من المرافق التى يتم وقفها على المشروعات الخيرية والخدمية التى تحتاج إلى عائد القياسر المالى الشهرى . وقد بلغ من حرص بعض الواقفين لهذه القياسر على المشروعات أن وضع وصية الوقف على باب القيسارية مثل قيسارية ابن ميسر الكبرى بسوق وردان ، وكانت مرسومة لبيع الخام البلدى (النسيج الكتانى) والمجلوب [3] . ومن أشهر القياسر الموقوفة بالفسطاط قيسارية الصبانة التى أوقفها السلطان المنصور قلاوون (٦٧٨ هـ / ٦٨٩ هـ) على البيمارستان المنصورى [4] .

---

(١) ابن دقماق ، مرجع سابق ، ٤ ، ص ٣٨ .
(٢) د . عبد العال الشامى ، مرجع سابق ، ص ٨٣ .
(٣) ابن دقماق ، مرجع سابق ، حـ ٤ ، ص ٣٨ .   (٤) المرجع السابق ، حـ ٤ ص ٣٧ .

وأما الفنادق فقد أورد منها ابن دقماق فى حصره ستة عشر فندقا بالفسطاط إلا أن ستة منها وردت كمجرد أسماء أو عناوين دون ذكر بيانات ، أى بوجود بياض بالأصل دالة على أن الكتاب كان مسودة لم يكتب لها أن تستكمل فى صورتها النهائية [1] .

ومن المألوف أن تنسب هذه الفنادق لأصحابها الذين أقاموها أول مرة ، أو إلى ما اشتهرت به من سلع مثل فندق « الكارم »وفندق « الحصر» و « القصب » وفندق دار التفاح ودار الخضر والدقيق والعسل ، وقد ينسب الفندق إلى الموضع الذى يقع فيه مثل الفندق بالصبانين .

وقد يحدد ابن دقماق ما يباع فى الفندق والجهات التى ترد منها هذه السلع مثل فندق الحصر ، فهذا الفندق بموردة الحلفاء (الميناء النهرى للفسطاط) يباع به الحصر الرفيعة والحصر القطبان المجلوبان من الفيوم ، ويباع أيضا بالفندق الرطب الأمهات (نوع من البلح الذى تشتهر به قرى الجيزة) والزيتون الأخضر وفندق القصب الذى يباع به القصب السكر .

وقد يحدد ابن دقماق الطوائف التى تنزل الفندق من التجار مثل فندق عمارة الذى ينزله الشامين ، ومن الطبيعى أن ينزل تجار الكارم بفندقهم . ونظرا لأن بعض الفنادق قد أصابها التدهور مع تدنى العمران فى الفسطاط ، فقد أشار ابن دقماق إلى نمط الإستخدام البديل للنشاط التجارى لمثل هذه الفنادق إذا ماأزيلت تماما ، فقد شرع الناس فى

---

(١) د . عبد العال الشامى ، مرجع سابق ، ص ٨٩ .

إستغلال أراضى الفندق فى مجال البناء وفقا لنظام الأحكار (أى تأجير الأرض للبناء دون ملكيتها وذلك بمبالغ زهيدة) وهذه الصورة تمثل المرة الأولى التى يرد ذكرها عند ابن دقماق فى هذه الحالة وفى مثالين آخرين هما عن فندق حوى بن حوى العذرى وفندق عمارة (٤).

ولما كانت الفنادق من المشروعات التجارية الإستثمارية فإنه كان يتم وقفها على مرافق هامة ينفق عليها من عائد أوريع الفنادق وهناك أمثلة للفنادق التى تم وقفها ، من ذلك ، فندق الكارم فإنه من وقف الأمير تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين . والفندق بالصبانين المعروف وقف المقر الأشرف المرحوم السيفى أيدمر أمير جاندار بظاهرية حوانيت الصبانين « وهذه فائدة تفيد بإقامة حوانيت مستغلة للبيع فى حوائط الفندق الخارجية » . وأما فندق الملك السعيد الذى امتلكه من بعده قلاوون الألفى فقد أصبح وقفا على المارستان المنصورى ، كراؤه فى كل شهر نحو الألفى درهم « وهذه فائدة تعكس إيراد الفندق الشهرى ، وقد ذكر ابن دقماق ثمن أحد الفنادق وهو فندق الوكالة الذى قد ربنحو ٢٥٠ ألف درهم » (٢).

ومن المرافق الصناعية ـ التجارية بالفسطاط نجد مطابخ السكر التى انفردت بها الفسطاط دون القاهرة ولها فيها شهرة تاريخية طويلة حتى لقد عد من فضائل مصر وخير ما يرفع منها السكر الأبيض على نحو

---

(١) د . عبد العال الشامى ، مرجع سابق ، ص ٨٥ .
(٢) د . عبد العال الشامى ، مرجع سابق ، ص ٨٩ .

ما ذكر الدمشقى [١]. وابن فضل الله العمرى [٢]والقلقشندى [٣].

وإذا كان ابن دقماق قد فصل القول عن مطابخ السكر فى الفسطاط وحدد منها أكثر من ستين مطبخا فإنه عول فى ذلك على ابن المتوج الذى أحصى من مطابخ السكر ستة وستين مطبخا على نحو ما نقل عنه المقريزى ذلك [٤]وهذا الرقم يمثل العامر من تلك المطابخ فى حين قد أجمل ابن دقماق فى حصره العامر وغير العامر مع ملاحظة وجود بياض بأصل المخطوط فى آخر هذا الحصر مما قد يكون تفسيرا لسقوط بعض هذه المطابخ عند ابن دقماق [٥].

ومن مراجعة ما جاء عن مطابخ السكر يمكن الخروج بالصورة التالية ، فى مقدمة ما يذكر عن المطابخ أنها كانت من المشروعات السلطانية التى أقامها السلاطين ، وذلك بهدف سد احتياجات الدولة ، واحتياجات السلطان، ولتكون من بعده مشروعات منتجه لأولاده ، وهذا مما يعكس أهميتها كمشروعات استثمارية ذات عائد نظرا لكون السكر الأبيض من السلع المصدرة من مصر لمختلف الأقطار .

لهذا ففى مستهل حصر المطابخ يذكر ابن دقماق المطابخ السلطانية

---

(١) الدمشقى ، الإشارة إلى محاسن التجارة ، ص ٣٢ .

(٢) ابن فضل الله العمرى ، مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار . ص ١٨ حيث يقول ومن مصر يجلب السكر على إختلاف أنواعه إلى كثير من البلاد .

(٣) القلقشندى ، صبح الأعشى ، حـ ٣ ، ص ٣١٣ .
حيث ينقل عن العمرى .

(٤) المقريزى ، الخطط حـ ١ ، ص ٣٤٢ ، ٣٤٣ .

(٥) ابن دقماق ، مرجع سابق ، حـ ٤ ص ٤٦ .

بخط دار الملك ولها شهرتها فى المكان الذى يجمعها وهى سبعة على صف واحد ، منها مطبخ الدولة ، ومطابخ للديوان الخاص السلطانى ، ثم أن السلطان حسن أفرد منها لأولاده ثلاثة .

إلى جانب إمتلاك السلاطين وأولادهم للمطابخ كان هناك الأمراء والتجار المقتدرين ممن استثمروا أموالهم فى إمتلاك المطابخ وتشغيلها طلبا لما تدره من عائد ، ومثل هؤلاء المستثمرون لديهم المقدرة المالية على إقامة المطابخ وتشغيلها نظرا لما تتطلبه من أدوات (الدولية) والمادة الخام والعاملين فضلاً عن المشرفين .

ومن الملاحظ أن ميناء الفسطاط استمر فى نشاطه فى هذا العصر ، ولبساطة منشآت الميناء ، كانت المراكب الملاحية تسحب إلى اليابسة ، مما جعل انحسار ماء النيل لا يعوق أنشطة المرفأ ، وقد أدى تراكم الرمال والطمى فى فرع النيل بين الفسطاط وجزيرة الروضة أثر سلبى على حركة التجارة إلى الميناء ، وساهم فى نهضة بولاق .

وأما عن المواد التى كانت تنقل إلى الميناء فكانت الحبوب والقمح التى يجرى تخزينها فى مخازن واسعة (شون) بالإضافة إلى التوابل التى كان يتاجر فيها آل الكريمى ، وكان يوجد فى الفسطاط أربعة تجار من بين ٤٦ تاجراً من هذه الأسرة كانوا يقيمون فى الحاضرة المصرية وذلك طبقا لإحصاء جاستون فييت [(١)].

وقد قامت الباحثة سيلفى دونوا بحصر الشوارع المستحدثة بالمدينة

---

(١) أندرية ريمون ، القاهرة ، تاريخ حاضرة ، ص ١٥٠ ، ١٥١ .

فى العصر المملوكى من خلال ماكتبه ابن دقماق والمقريزى ، وقد لاحظت أن بالمدينة شبكة من الشوارع تمتد من الشمال إلى الجنوب تقطعها شبكة أخرى من الشرق إلى الغرب ، أما الملاحظة الأكثر أهمية هى عدم وجود أحياء خالصة لدين معين فاليهود والمسيحيين والمسلمين عاشوا جنبا إلى جنب فى المدينة [1] وفى هذه الشبكة من الطرق كانت تتركز أنشطة المدينة .

ونحن فى العصر المملوكى أمام مدينة كانت مسورة بأسوارها داخل المجمع الحضرى الكبير الذى يضم القلعة والقاهرة والفسطاط ، ولكن أسوار الفسطاط منها ما أزيل لكى يفسح المجال للنمو العمرانى فى الغرب ما بين السور الغربى وساحل النيل ـ أما سائر الأسوار وما بها من أبواب فقد جاء تحديدها على النحو التالى :

فكان يستخدم ـ السور الشرقى الجنوبى فى عملية نقل ماء النيل إلى القلعة ، وكانت نهاية السور الجنوبى عند كوم ابن غراب حيث باب القنطرة ، وهو باب مصر الفسطاط الذى يفضى إلى دير الطين جنوبى مصر الفسطاط حيث جسر الأفرم الذى يمثل أقصى امتداد عمرانى لمصر الفسطاط جنوبا على امتداد شاطئ النيل .

ـ السور الشمالى : يمثله الآن مجرى العيون ، وكانت نهايته الشرقية

(1) Sylvie denoix , Eustat -Misr d'apres ibn duqumav et Magrizi le caire . ifoa . sp . 1992 .

التى تلتقى مع السور الشرقى عند باب الصفا . أما نهاية السور الشمالى الغربية فقرب كوم المشانيق وموردة الخلفاء حيث باب مصر .

ـ السور الغربى : وكان فيه باب الساحل ، وكان لهدم الجزء الذى شيد من هذا السور فائدة فى عمران ساحل مصر كعمران حادث[1] .

ويبدو ومن كلام المؤرخين أن هذا الجزء من السور لم تتم عمارته أصلاً ، وفى داخل الأسوار نجد نطاقين عمرانيين ، الأول شرقى هو مجرد أطلال لمدينة الفسطاط المتخلفة عن حريقها والمجاعات وما تلى ذلك من تخريب بقصد جمع أنقاض المدينة لاستخدامها من جديد فى مبانى حادثة ـ والنطاق الثانى : هو ما تبقى عن عمران الفسطاط فى الغرب والذى عرف بمصر القديمة أو العتيقة ، ولعل أوضح معالمه العمرانية مسجد عمرو بن العاص وقصر الشمع وما حولهما من مناطق سكنية ومرافق عامة حافظت على حياتها العمرانية ثم أصبحت بمثابة النواة لمدينة مصر الفسطاط فى امتدادها على طول النهر فى العصر المملوكى .

شهدت الفسطاط ظهور مناطق عمرانية جديدة لعل أبرزها منطقة جسر الأفرم ، وينسب هذا الجسر إلى الأمير عز الدين أيبك الأفرم ، وهذه المنطقة كانت شريط ساحلى لنهر النيل كان مغموراً بماء النهر ثم إنحسرت المياه فصارت أراضى طرح النهر هذه فضاء متصلاً بما يليها شرقاً من أراضى السهل الفيضى التى سميت باسم بركة الحبش . وكان ماء النيل يصل من خلال خليج بنى وائل بعد مروره على بركة الشعيبية .

---

(١) د . عبد العال الشامى ، مرجع سابق ، ص ٧٢ .

فلما إستأجر الأمير عز الدين أيبك الأفرم بركة الشعيبية وجعلها بستانا ردم المجرى المائى أو الترعة الواصلة إلى أراضى البركة وبنى أسوار للبستان وأقام جسرا على البستان ليحميه من الفيضان العالى فأقام على ذلك سنين[١].

ويدل ما سبق على أن الجسر شيد فى مكان مرتفع عن منسوب السهل الفيضى ليصبح بديلاً للجسور الطبيعية فى حماية الأراضى الزراعية من الفيضان ، كما أنه يسمح بإقامة المبانى عليه لتطل على النهر ولتصبح فى حماية من الفيضان ، ولذا فقد كثرت العمارة بهذه المنطقة ، وأطلق عليها جسر الأفرم ، وهو المسمى القديم الذى لم تعد له دلالة مرتبطة بحماية الأراضى الزراعية بعد إقامة الدور والمبانى وثبات أرض الجسر منذ القرن السابع الهجرى ، وفى القرن الثامن الهجرى ، كما يقول المقريزى - تنافس عظماء دولة الناصر محمد بن قلاوون من كبار رجال الدولة فى البناء بجسر الأفرم ، وأقيمت المساكن المبالغ فى زخرفتها بحيث صار خط الجسر أعمر خطط مصر الفسطاط ، وسكانه أرق الناس عيشا ، وأترف المنعمين حياة ، وأقرهم نعمة . وهكذا تبدو أهمية جسر الأفرم كعامل طبوغرافى أفسح المجال للنمو العمرانى الشريطى على امتداد جبهة النهر جنوبى الفسطاط فصار هذا الحى متنفسا عمرانيا حادثا للمقتدرين بما يحقق القول العربى الشهير « الأطراف سكنى الأشراف »[٢].

---

(١) د . عبد العال الشامى ، مدن مصر وقراها ، ص ٦٤ .
(٢) د . عبد العال الشامى ، المرجع السابق ، ص ٦٤ .

* فى العصر العثمانى

ظلت الفسطاط فى العصر العثمانى ميناءاً نهريا هاماً على ساحل النيل، وإن غلبت تسمية مصر القديمة عليها ، وصار إسمها القديم الفسطاط فى ذاكرة التاريخ ، واهتم ولاة الدولة العثمانية بها ، وإن كان نمو بولاق إلى الشمال منها فى ذلك العصر قد أثر عليها بالسلب ، شهدت الفسطاط نشاطا عمرانيا فى ذلك العصر ، فقد شيد مصطفى باشا شاهين الذى تولى أمر مصر سنة ٩٦٧ هـ ، ربعا بمصر القديمة عرف بربع السادات [(١)] وتدلنا سجلات محكمة مصر القديمة بما تضمة من حوادث وقضايا ، ووقفيات على طبيعة الحركة العمرانية بمصر القديمة آنذاك .

كان ميناء مصر القديمة النهرى يمثل منفذاً للقاهرة إلى مدن وقرى الصعيد وتجارة القوافل الواردة من سنار ودار فور والتجارة الواردة من الجزيرة العربية واليمن عبر القصير فإسنا وقوص وتحمل هذه المراكب الواردة من الجنوب إلى القاهرة الحبوب والأقمشة المصنوعة من القطن والكتان والزيوت المختلفة والسكر والعصفر ، وتحمل هذه المراكب فى طريق عودتها مصنوعات القاهرة وأوربا ومنتجات مدن وقرى الوجه البحرى إلى الصعيد ومن أسواق أسيوط وإسنا تجد هذه البضائع طريقها إلى دار فور وسنار وغيرها من نواحى السودان الشرقى والغربى ، وكانت أسيوط وجرجا وإسنا وقوص محطات نهرية تجارية ارتبطت ملاحيا بمصر

---

(١) محمد بن أبى السرور البكرى ، المنح الربانية فى الدولة العثمانية ص ١٧٠ ، ١٧١ . تحقيق دكتورة ليلى الصباغ ، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث ، دار البشائر ، دمشق ، ١٩٩٥ م .

القديمة والتى شهد ميناؤها أعدادا كبيرة من المراكب والمتاجر المختلفة والناس من بائعين ومشترين ووسطاء ، وشكلت الأوانى الفخارية والجرار التى كانت ترد من الصعيد على الأطواف العائمة [1] إحدى السلع الهامة التى كانت تجد لها سوقاً رائجة فى القاهرة وقرى ومدن الوجه البحرى وكانت الأوانى الفخارية والجرار سلعة معفاة من الرسوم والضرائب . كما كانت ترد إلى مصر القديمة منتجات الصعيد الزراعية مثل القصب السكرى الوارد من أطفيح وقراها .

ونبات الحلفاء الصعيدى الذى كان يستخدم كوقود فى المنازل ، وكانت واردات القاهرة من هذا النبات الجاف من الضخامة بحيث سجلت احدى الوثائق العثمانية صفقة اشترى فيها أحد التجار من أهل الصعيد ستا وأربعين ألف حزمة من الحلفاء مرة واحدة [2] لقد كان النشاط التجارى والصناعى بمصر القديمة أثره فى نشاط أسواق المدينة ، ومن أسواق مصر القديمة الرئيسية فى ذلك العصر ، سوق الخليج وسوق الشرب وسوق دار النحاس .

ولأهمية ميناء مصر القديمة إعتبره التنظيم الإدارى لمصر العثمانية

---

(١) الأطواف جمع طوف وهو عبارة عن عدة أوانى فخارية مغلقة باحكام يربط بعضها ببعض ويوضع أعلاها مجموعة من ألواح خشب النخيل الخفيف ويتراوح طول الطوف الواحد من أربعين إلى سبعين قدماً وعرضها من ثلث إلى نصف القدم ، ويقوم على الطوف الواحد من ستة إلى ثمانية رجال يستخدمون فروع الشجر بديلاً عن المجاديف ويتخذون مطبخهم ويديرون معاشهم فوق الطوف ، فاذا ما باعوا حمولتهم فى مصر القديمة عادوا إلى الصعيد سيراً على الأقدام .

د . عبد الحميد سليمان ، تاريخ الموانئ المصرية فى العصر العثمانى ، ص ٢٦٩ ، سلسلة تاريخ المصريين العدد ٨٩ ، الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٩٥ .

مقاطعة مالية مستقلة ، ثم إتحد مع بولاق فى نهاية القرن السادس عشر الميلادى ، ثم انضمت اليهما مقاطعة خضرا ، التى كانت تشتمل على جهات تحصيل الرسوم والضرائب من جزيرة خضرا وعدة جهات فى امبابة بالاضافة إلى عدة مقاطعات فرعية ، وأطلقت دفاتر الرزنامة على هذه المقاطعة اسم « مقاطعة اسكلة بولاق ومصر القديمة وخضرا وتوابعها» وكان من أبرز جهات هذه المقاطعة جمرك مصر القديمة ، حيث كانت تحصل فيه الضرائب على السلع الواردة إلى مصر القديمة من صعيد مصر وكان ضمن هذه المقاطعة مدابغ الجلود فى مصر القديمة ومن مقاطعات التزام مصر القديمة أيضا ، مقاطعة « مال حماية كتابة جمرك در بندر مصر القديمة » التى أنشئت عام ١١٧٣ هـ/ ١٧٥٩ م ، على أن يدفع ملتزمها للخزينة السلطانية مبلغ ١٠٠٠ بارة ارتفعت فى العام التالى ١٠٤٠ بارة .

وتعددت الالتزامات المالية على الملتزمين بمصر القديمة لتعدد الأنشطة الاقتصادية بها ، وكان القلقشندى المؤرخ المملوكى قد ذكر أيضا أن الأنشطة الاقتصادية بالفسطاط كانت كثيرة وأن متحصلها كثير ، وكان الالتزام فى ذلك الوقت معروفا باسم الضمان ، حيث يدفع الضامن مبلغا مقررا كضريبة عن مكان ما ويحصلها هو بعد ذلك ، والزيادة له والنقص عليه [1] .

---

(١) د . عبد الحميد سليمان ، مرجع سابق ، ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

* فى عصر محمد على وخلفاؤه

شهدت مصر القديمة نشاطا عمرانيا فى عصر أسرة محمد على ، وتركز هذا النشاط بصفة خاصة على المنشآت التعليمية ومنها ، مدرسة المعادن التى افتتحت فى يوليو ١٨٣٤ م وأغلقت بعد عامين ، ويرجح أن السبب فى ذلك افتتاح المهندسخانة ، وكانت هذه المدرسة قد نقلت قبل إغلاقها إلى بيت الدفتر دار بالأزبكية ، وكان مكان هذه المدرسة بمصر القديمة قصر البارودى .

ومن هذه المدارس أيضا مدرسة الكيمياء التطبيقية التى افتتحت فى ١٤ نوفمبر عام ١٨٣١ م ، وكان الغرض من إنشائها إعداد العامل الماهر الذى يعمل فى مصانع الحكومة وكان يقوم أحد الصناع الأجانب بتعليم التلاميذ واسمه إيمو وكان اسم مديرها حليم بك ، ولم تعمر هذه المدرسة طويلا [١] وشيد فى عهد محمد على بمصر القديمة ، طواحين للهواء لطحن الغلال [٢] .

وفى عهد الخديوى إسماعيل تم تشييد عدد من المصانع الحربية فى المنطقة بين المعصرة ومصر القديمة ، منها مصنع لصب المدافع بالمعصرة ، وآخر لصناعة البنادق وثالث لإنتاج الذخيرة ، كما نقل المدابغ من باب اللوق إلى منطقة مصر القديمة سنة ١٨٦٥ م . [٣] .

---

(١) د . عبد الرحمن زكى ، القاهرة فى ألف عام ، ص ٢٦٦ ، مكتبة الأنجلو ، الطبعة الثامنة ، ١٩٨٧ .

(٢) حسن عبد الوهاب ، طواحين الهواء ، مجلة العمارة ص ٧٠ ، مجلة العمارة ، المجلد الثالث سنة ١٩٤١ ، العدد ٣ ، ٤ .

(٣) د . محمد حسام الدين اسماعيل ، مدينة القاهرة من ولاية محمد على إلى إسماعيل ، ص ٢٧٥ ، ٣٦٤ . دار الآفاق العربية ، القاهرة ، ١٩٩٧ .

الفصل الخامس

الفسطاط .. كما كانت

الفسطاط .. كما كانت

كانت الفسطاط منقسمة إلى قسمين . قبلى وبحرى ويقال لهما عمل فوق وعمل أسفل . فالقبلى (عمل فوق) له طرفان : غربى وشرقى . فالغربى من شاطئ النيل فى الجهة القبلية وأنت مار فى الشرف المعروف بالرصد (جبل أثر النبى والطواحين) إلى القرافة الكبرى (شرقى الفسطاط) والشرقى من القرافة الكبرى إلى العسكر - والبحرى عمل أسفل ما عدا ذلك إلى حد المدينة الشمالى .

بدأ عمرو بن العاص ببناء المسجد وداره الكبرى وأمامها داره الصغرى . ثم اختطت القبائل بعد ذلك . وكانت خطط الفسطاط كما يلى :

خطة أهل الراية

أهل الراية هم جماعة من قريش والأنصار وخزاعة وغفار ومزينة وأشرس وجهينة وثقيف ودوس وعبسى بن بغيض وجرش بنى كنانة وليث بن بكر. وسموا أهل الراية ونسبت الخطة إليهم لأنهم جماعة لم يكن لكل بطن منهم من العدد ما ينفرد به بدعوة من الديوان فكر كل بطن أن يدعى باسم قبيلة غير قبيلته ، فجعل لهم عمرو بن العاص رايه لم ينسبها إلى أحد ، وقال وقوفكم تحتها . فكانت لهم كالنسب الجامع ،

وكان ديوانهم عليها . واجتماع هذه القبائل لما عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم من الولاية بينهم .

وقد ابتدؤا بهذه الخطة من المصف الذى كانوا عليه فى حصارهم الحصن وهو باب الحصن الذى يقال له باب الشمع ثم مضوا بخطتهم إلى حمام الفار بسويقة المغاربة من خطة عمر بن العاص وشرعوا إلى باب المسجد مسجد عمرو المعروف بباب الوراقين ثم يسلك إلى حمام شمول، وهذه الخطة من أعظم الخطط وأوسعها ، وفيها زقاق القناديل وكان جنوب شرق جامع عمرو .

*** خطة مهرة :**

وهم بنو مهرة بن حيدان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة بن مالك بن حمير من قبائل اليمن . إختطت مهرة قبلى خطة الراية (شرقى جامع عمرو) واختطت أيضا على سفح جبل يشكر مما يلى الخندق إلى شرقى العسكر إلى جنان بنى مسكين . وكانت خطتهم الأولى حوزا لهم يربطون فيها خيلهم عند صلاتهم فى مسجد عمرو يوم الجمعة ، ثم بنوا فيها مساكنهم ، وتركوا منازلهم بيشكر .

*** خطة تجيب**

وهم بنى عدى وسعد بن الأشرس بن شبيب بن الأشرس بن كندة . فمن كان من ولد عدى وسعد يقال لهم تجيب وتجيب اسم أمهما عرفت القبيلة بها .

وهذه الخطة تلى خطة مهرة وفيها درب الممصوصة آخره حائط شرقى من حصن بابليون .

* خطط لخم

وهى ثلاث : الأولى بنو لخم بن عدى بن مرة بن أددومن خالطهم من جذام ، ابتدأت من نهاية خطة أهل الراية وأصعدت ذات الشمال (جهة الغرب) . وفى هذه الخطة سوق بربر وشارعه مختلط بين لخم والراية .

والثانية بنو عبد ربه بن عمرو بن الحارث بن وائل بن راشدة ابن لخم ، وأولها شمال شرق الكنيسة المعروفة بميكائيل التى تقع بالقرب من خليج بنى وائل . وظلت هذه الكنيسة موجودة إلى زمن المقريزى .

والثالثة . خطة بنوراشدة بن أدب بن جزيلة بن لخم ، وهى متاخمة للخطة التى قبلها . وفى هذه الخطة جامع راشدة (اندثر) وجنان كهمس بن معمر وهو المشهور بالمعشوق . وللخم مواضع أخرى بالفسطاط فى خطط اللفيف والحمراء .

* خطط اللفيف

سموا بذلك لالتفاف بعضهم ببعض ، وسبب ذلك أن عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية لقتال المسلمين ، فبعث عمرو بن جمالة الأزوى ليأتيه بالخبر فمضى ، وأسرعت هذه القبائل التى تدعى باللفيف ، وتعاهدوا على اللحاق به ، واستأذنوا عمرو بن العاص فى ذلك فأذن لهم وهم جمع كبير ، فلما رآهم عمرو بن جمالة استكثرهم وقال تا الله ما رأيت قوماً قد سدوا الأفق مثلكم وأنكم لكما قال الله تعالى « فاذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا » .

فسموا اللفيف من يومئذ ـ وسألوا عمرو بن العاص أن يفرد لهم

خطة ، فكانوا مجتمعين فى المنزل متفرقين فى الديوان ، اذ انضم كل بطن منهم إلى بنى أبيه .

وكان عامتهم من الأزد من الحجر ومن غسان وشجاعة والتفت بهم نفر من جذام ولخم والزحاف وتنوخ من قضاعة وهذه الخطة أولها مما يلى الراية سالكا ذات الشمال (جهة الغرب) إلى القرب من سوق وردان .

* خطة يحصب

حى من اليمن إذا نسبت إليهم قلت يحصبى مثل ثعلبى ، وهم بنو يحصب بن مالك بن أسلم بن زيد بن غوث بن حمير . وموضعها كيمان ، وهى تتصل بالشرف الذى يعرف بالرصد .

* خطة بنى وائل

وهو وائل بن زيد مناة بن أقصى بن إيامس ابن حرام بن جذام بن عدى ، وهى من السفح المعروف بالرصد إلى خطة خولان .

* خطة القبض

وهم بنو القبض بن مرثد ، وهى بجانب خطة بنى وائل نحو بركة الحبش ، وكان سبب نزول بنى وائل وبنى عبد ربة وراشده والفارسيين الفسطاط ، أنهم كانوا فى طوالع جيش عمرو بن العاص فنزلوا فى مقدمة جيشه وحازوا هذه المواضع قبل فتح مصر .

* خطة المعافر

وهم بنو المعافر بن يعفر بن مرة بن أدد . وهى من الرصد إلى سقاية أحمد بن طولون . وهى القناطر التى تطل على عفصة وتفصل بين

القـرافـتين ، والقناطر للمـعـافـر ولهم إلى مـصلى خـولان وإلى الكوم المشرف على المصلى .

* خطة السلف بن سعد

وكانت فيما بين الكوم المطل على تربة القاضى بكار وبين المعافر .

* خطة وعلان

وهم بنو وعلان بن قرن بن ناجية بن مراد وكلهم من مذجح . إختطت وعـلان من زقـاق الصنم المعـروف بسرية فـرعـون . وأوله بـاب السـوق الكبيـر ، واختطت أيضـا بخولان ، ثم انفـردت وعـلان بخططهـا مـقـابل المسـجـد المعروف بالدينورى ، وأسندت إلى خـولان ، وأصـبـحت هذه الخطة فى زمن ابن دقماق كيمان تطل على قبر القاضى بكار .

* خطط خولان

وهم بنو خـولان بن عـمرو بن مـالك بن زيد بن عـريب وخـولان قـبيلة يمنية .

* خطة مذجح

وهم بنو مـالك بن مرة بن أدد بن زيد بن يشـجب بن عـريب بن زيد بن كهلان بن عبدالله . وقيل مذجح بن يحابر بن مالك بن زيد بن كـهلان . وسموا مذجح لشجرة تحالفوا عندها اسمها مذجح .

* خطة رعين

وهم ينور عين بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن حمير . وخطتهم جنوب خطة مذجح .

* خطة بنى الكلاع

وهو الكلاع بن شرحبيل بن أسعد بن حمير . وهذه الخطة متصلة بخطة رعين إلى الشمال من مسجد الأقدام .

* خطة الصدف

وهم بطن من كندة ينسبون فى حضرموت إلى الصدفى ، وهم بنو مالك بن سهل بن عمرو بن قيس بن حمير ، وقيل بنو مالك بن مرقع بن كندة ، وإنما سمى الصدف لأنه صدف بوجهه عن قومه حين أتاهم سيل العرم وكانوا قد أجمعوا على ردمه فصدف عنهم إلى حضر موت فسمى الصدف ، وقيل انما سمى الصدف لأنه كان رجلاً شجاعاً لا يذ عن لأحد من العرب فبعث إليه بعض ملوك غسان ليقدم به عليه ، فعدا على الرسول فقتله وخرج هارباً ، فبعث إليه الملك رجلاً فى خيل عظيمة فكلما جاء حيا من العرب سأل عن الصدف فيقولون صدف عنا مالك ، وما رأينا له وجهاً فسمى الصدف من يومئذ . ثم لحق بكنده فنزل فيهم وعطائهم فى الديوان مع كندة .

* خطة سبأ

وهم بنو مالك بن زيد بن وليعة بن معبد بن سبأ . وسبأ اسم رجل ، ولدعامة قبائل اليمن ، وهو ابن يشجب بن يعرف بن قحطان .

* خطة الرجبة

قال ابن دقماق : والذى أعرف الرجبة هو شيء تعمد به النخلة ، وهو الرجبة بن زرعه بن كعب .

* خطط الفارسيين

وهم قوم ممن حضر فتح مصر من الفارسيين ، وكانوا بقايا جند باذان عامل كسرى على اليمن ، أسلموا فى الشام ورغبوا فى الجهاد ، فنفروا مع عمرو بن العاص ، وأخذوا خطة فى سفح الجبل الذى يقال له جبل باب البون . قال المقريزى وهذا الجبل اليوم شرقى من وراء خطة جامع ابن طولون تعرف أرضه بالأرض الصفراء وهى من جملة العسكر .

* خطط أهل الظاهر

وأول هذه الخطة من شمال شرق خطة لخم ، وتتصل بموضع العسكر. ومن هذه الخطة سويقة العراقيين ، وعرفت بذلك لأن زياداً لماولاه معاوية بن أبى سفيان البصرة غرب جماعة من الأزد إلى مصر ، وكان واليها آنذاك مسلمة بن مخلد فأسكنهم بجوار خطط أهل الظاهر .

وسميت هذه الخطط بالظاهر لأن القبائل التى نزلته كانت بالإسكندرية ثم رجعت بعد رجوع عمرو ، وبعد أن اختطت القبائل بالفسطاط ، فخاصمت عمرو ، وأقترح عليهم معاويه بن حديج ، أن يختطوا ظاهر خطط الفسطاط ، أى خارج الخطط ، وكانت القبائل التى نزلت الظاهر من العتقاء ، وهم جماعة من القبائل كانوا يقطعون الطريق على من يأتى النبى صلى الله عليه وسلم ، فبعث لهم الرسول بالسرايا فأتت بهم أسرى ، فأعتقهم الرسول ، فقيل لهم العتقاء ، وديوانهم مع أهل الراية ، وفيهم طوائف من الأزد وفهم .

* خطة غافق

والغفق هو الهجوم على الشىء فجأة . وهم منسوبون إلى غافق بن

الحارث بن عك . وهذه الخطة تلى خطة لخم إلى خطة الظاهر بجوار درب الأعلام .

* خطط الحمراوات

وهى ثلاث : دنيا ووسطى وقصوى وسميت بذلك لنزول الروم بها . وهم حمر الألوان ، وكانت الحمراء على ثلاثة بنونيه وروبيل والأزرق ، وكانوا ممن سار مع عمرو بن العاص إلى مصر من عجم الشام ممن كان رغب فى الإسلام من قبل اليرموك ومن أهل قيسارية .

فالحمراء الدنيا بها خطة بلى (بفتح الباء وتشديد اللام) وخطة ثراد من الأزد وخطة فهم بن عمرو ومن قيس بن عيلان وخطة بنى بحر بن سوادة من الأزد .

والحمراء الوسطى بها خطة بنى نبه ، وهم قوم من الروم حضر الفتح منهم مائة رجل . وخطة هذيل بن مدركة . وخطة بنى سلامان من الأزد. وخطة عدوان .

والحمراء القصوى : وهى خطة بنى الأزرق من الروم ، حضر الفتح منهم أربعمائة رجل ، وخطة بنى روبيل ، وكان يهوديا فأسلم . حضر الفتح منهم ألف رجل . وخطة بنى يشكر ابن جزيلة ، وكانت منازل يشكر مفرقة فى الجبل فاندثرت حتى جاءت جيوش بنى العباس فعمروها ، وكانت فى زمن ابن دقماق مخربة .

قال ابن المتوج الحمراوات ثلاث أولى ووسطى وقصوى . فأما الأولى فتجمع جابر الأوز وعقبة العداسين وسوق وردان وخطة الزبير إلى

نقاشى البلاط طولا وعرضا على قدر ذلك . وأما الوسطى فمن درب نقاشى البلاط إلى درب معانى طولا وعرضا على قدره .

وأما القصوى فمن درب معانى إلى القناطر الظاهرية يعنى قناطر السباع وهى حد ولاية مصر من القاهرة (١) .

ونود أن نلمح هنا إلى أن الخطط فى الفسطاط توازى الأحياء فى المدن اليوم ، ويربط بين هذه الخطط شبكة متنوعة من الطرق نستطيع أن نعرف بها على النحو التالى :

* الحارات (٢) .

فى كلام ابن دقماق نجد خلطاً بين مفهوم الحارة والخطة ، فحارة الوسميين يقول هذا الخط قريب من باب القنطرة وحارة بنى الليثى يذكر أنها من أعمر أخطاط مصر ، وسميت بعض الحارات فى الفسطاط بجنسية سكانها كحارة الهنود ، أوحارة تجمع أناس متفرقين كحارة الغربا ، وكان يوجد بالحارات مرافق عامة كحارة بنى اليزيدى التى كان يوجد بها قاعة ابن اليزيدى الموسومة لعمل الأفراح وبها المصنع أى الصهريج المرسوم أى المخصص لخزن ماء السبيل (٣) .

---

(١) انظر ما كتبه ابن دقماق فى كتابه ، الانتصار لواسطة عقد الأمصار عن خطط الفسطاط .
وكذلك يوسف أحمد ، الفسطاط ، سلسلة المحاضرات الأثرية ، ص ٩ ، ١١ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٨ . القاهرة - ١٩١٧ م .

(٢) الحارة لغة : محلة متصلة المنازل ، ومن ثم قيل الحارة هى المحلة ، لأن أهلها يحورون إليها أى يرجعون ، جمعه حارات ، وكل أهل محلة - دنت منازلهم ، فهم أهل حارة ، لأنهم يحورون إليها ، أى يرجعون .
الزبيدى ، لحن العوام ، ص ٦٨ ، ص ٢٦٩ ، القاهرة - ١٩٦٤ .

(٣) ابن دقماق ، مصدر سابق ، ص ١٢ ، ١٣ .

والحارات فى الفسطاط فى رأى هى ما نشأ من فراغات بين الخطط سكنت فى مراحل تالية ، لما كانت أصغر من الخطط فقد عرفت بالحارة ، ويبدو من كلام ابن دقماق أن الحارات قد تختص بطائفة معينة كحارة الصيادين ، أو تعرف الحارة بشخص كحارة ابن الراجح ، أو بأسره كبنى الليثى .

*** الأزقـــة [1].**

عدد ابن دقماق ما يزيد على ١٣٠ زقاقا [2] وأشار إلى العامر وغير العامر من هذه الأزقة فى عصره ، وما بهذه الأزقة من مرافق عامة ، ومساكن .

ومن أشهر أزقة الفسطاط ، زقاق القناديل وسمى بهذا الاسم لأنه كان منازل الأشراف وكان على أبوابهم القناديل ، زقاق الأندلسيين ، زقاق زويلة وفى هذا الزقاق المسجد الذى يقال ان تجيب تعاقدت فيه على قتل عثمان بن عفان رضى الله عنه . ويذكر أحيانا ابن دقماق مكان الزقاق فى خطط الفسطاط ، كزقاق الزمرة من الحمراء ، زقاق اللبان من الحمراء ، ومن أزقة الفسطاط أيضا زقاق الريس ، زقاق بنى العوام ، زقاق بنى الرصاص وهو من الأزقة غير النافذة ، وكل ما فى الزقاق كان من أملاك بنى الرصاص ، وهذه الخصوصية فى الأزقة ناتجة عن التدرج فى مستويات الشوارع بالمدينة ، وكذلك من خصوصية الخطط بالقبائل

---

(١) الزقاق الطريق الضيق نافذاً أو غير نافذ إلى غيره من الشوارع أو الرحبات أو الخوجات .
(٢) ابن دقماق ، مصدر سابق ، ص ١٣ : ص ٢٥ .

وبطونها . وهم إهتموا بعمارة مسجد هذا الزقاق . ومثل هذا التقسيم كـان له صداه حين قنن فقهاء المسلمين فقه تخطيط المدن الإسلامية . ومسئولية القاطنين عن مرافق خططهم .

*** الدروب** [1] .

أحصى ابن دقماق بالفسطاط ٧٥ درباً مشهوراً [2]، وترجع شهرة بعض هذه الدروب إلى ما بها من مرافق ، مثل درب المعاصر ففيه معصرة زيت لم يكن بمصر مثلها لجودة عمارتها ، وكثرة أعوادها ، وعدة أحجارها ، وقد سكن بهذا الدرب أكابر أعيان المصريين . وإذا كان للدرب شهرة ينفرد بها فإنه يشير إلى ذلك مثل درب الوداع الذى بآخر مصر الآن ـ أى فى عصر ابن دقماق ـ ويشيع منه الجنائز ، وهذا الدرب ينطبق عليه تعريف الدروب بأنها كل طريق واسع يؤدى إلى ظاهر البلد ، وهذا يذكرنا فى القاهرة بالدرب الأحمر الذى يؤدى إلى ظاهر القاهرة ، وبباب الوداع بالحطابة بالقرب من القلعة والتى كانت الجنائز تخرج منه إلى جبانة باب الوزير . ومن دروب الفسطاط ، درب العداسين ، درب الريح ، درب السباع ، درب الكند ، درب الخشبة ، درب سالم درب الوحل ، درب الكرمة ، درب الضيافة .

---

(١) الدرب : المدخل الضيق ، هو باب السكن الواسع ، وكل طريق يؤدى إلى ظاهر البلد ، والجمع دروب ، وأدراب ودراب .

(٢) ابن دقماق ، مصدر سابق ، ص ٢٥ ، ص ٢٩ .

* الرحاب [1].

الرحاب هى بمثابة الميادين فى المدن اليوم ، وربما كانت الرحاب فى الفسطاط هى ملتقى الأزقة والدروب فى المدينة ، ومنها رحبة المكارية والزعفران ، وهذه الرحبة كان بها موقف . . المكارية الذين كانت تنقل دوابهم الناس ولذا لم يكن من الغريب أن يكون موضعها بالقرب من باب مصر الذى يؤدى إلى القاهرة . ومن المرجح أنه كانت توجد . بكل خطة من خطط الفسطاط على الأقل رحبة واحدة ، ومن هذه الرحاب ، رحبة الزبيرى ، رحبة أشهب ، رحبة بنى هلال رحبة عقيل ، رحبة البورى ، رحبة ابن سهم ، رحبة ابن تميم [2].

* الخوخات [3].

أحصى ابن دقماق فى الفسطاط ٢٨ خوخة ، فهى تفضى إلى درب أو زقاق أو طريق أو رحبة أو بستان بما يوفر على السالك لتلك السبل مشقة الدوران فى مثل هذه الأزقة والدروب الملتوية الطويلة فضلاً عن كون بعض هذه الأزقة والدروب غير نافذة . ولذلك كانت الخوخات وسيلة مناسبة لإرشاد المار حيث تفصل بين مسالك المدينة ، وتمنع السائر من

---

(١) الرحبة ، الأرض الواسعة ، رحبة المكان ومتسعه ، مثل رحبة المسجد ساحته ، والجمع رحاب ، ورحب .
(٢) ابن دقماق ، مصدر سابق ، ص ٣٥ : ص ٣٧ .
(٣) الخوخة : باب صغير وسط باب كبير نصب حاجزاً بين دارين أو مخترق ما بين كل دارين .
(٤) د . عبد العال الشامى ، مدن مصر وقراها فى القرن الثامن الهجرى) ص ٧٧ .

الولوج إلى أماكن غير نافذة . أو أماكن خاصة بقبيلة أو عائلة [٤] كخوخة ابن كاتب الحميدى والتى سكن داخلها جماعة من الأكابر . ومن خوخات الفسطاط أيضا .

خوخة الشامى ، خوخة الواقع ، خوخة الرزازين ، خوخة الفقيه نصر ، خوخة السلمى ، خوخة الصفى ، خوخة الفائزى ، خوخة بسم الله ، خوخة السراج .

* السقائف والأقبية

السقيفة : العريش يستظل به ، ولكن المقصود بها هنا أسقف من الحجر أو الخشب تعلو الطرق ، ويعلوها فى أغلب الأحيان فى الفسطاط مبنى ، ويمر الناس تحت هذه السقائف ، وأما المبانى التى تعلو هذه السقائف أو تحملها فهى متعددة ، أعطى ابن دقماق أمثلة منها :

دور العبادة كالمساجد فتسمى السقيفة باسم المسجد ، كسقيفة مسجد الزبير رضى الله عنه ، وهى يسلك من سفلها إلى سوق وردان وإلى درب البلاط وشارعه ، وسقيفه مسجد شجاعة ، وهذه السقيفة علو درب شجاعة وهى حاملة لمسجد ذكر ابن دقماق أنه ينسب إلى شجاعة صاحب الخطة ، وكان به إمام صالح من الأخيار يعرف بعبد العزيز الضرير أو إلى الكنيسة المعلقة ، وهى حاملة للكنيسة المعلقة يسلك من سفلها إلى جميع قصر الشمع ـ وقد تنسب السقيفة إلى المكان الذى تعلوه ، كسقيفة درب الكتان ، أو إلى شخص ، كسقيفة ابن الغارف . وأحصى ابن دقماق سبعين سقيفة فى الفسطاط [٢] .

---

(١) المرجع السابق ، ص : ٧٧ .

أما الأقبية ، فهى أسقف معقودة من الحجر ، وهى تتميز بتحملها لأدوار عليا ، لمتانة بنائها عن السقائف التى يبدو أنها لم تكن تتحمل أكثر من طابق فوقها ، والأقبية فى الفسطاط تشبه الساباط فى عمارة القاهرة كساباط مدرسة قجماس الإسحاقى وإن كان ابن دقماق ذكر ساباطا بالفسطاط ، كان بالربع العادلى ، كان طرف منه يرتكز على جدار الربع ، والطرف الآخر على أعمدة من الصوان .

وإن كان يغلب على الظن أن الأقبية إستخدمت لأغراض متعددة بالفسطاط ، ويرجع ذلك كما ذكرنا إلى متانتها من الناحية الإنشائية ، ومن هذه الأقبية بالفسطاط ، قبودار الصاحب معين الدين ، وهذا القبو على خليج بنى وائل عند التقائه بالنيل ، وكان يحمل دار ابن الصاحب ، ومثل هذا النوع من الأقبية الذى يصل بين طرفى دار على خليج رأيت مثله فى مدينة بروج الأثرية ببلجيكا والتى تعود أبنيتها إلى العصور الوسطى ، حيث انتشرت الأقبية التى تربط بين طرفى الدور أعلى قنوات المدينة ، وانتشرت هذه الأقبية فى مدينة البندقية الإيطالية .

وقد يحمل القبو فساقى ماء الحمامات ، ولذا ينسب بعضها إلى الحمامات ، مثل قبو الحمام المعروف بابن سنا الملك الحامل لفساقى [1] ماء الحمام ، قبو حمام طن والذى يعلوه أيضا فساقى مياه الحمام ، وقد

---

(١) الفساقى ، هى خزانات المياه أعلى الحمامات والقصور ، ويرفع إليها الماء بواسطة السواقى ، ويبدو أن هذه الفساقى كانت كبيرة .
انظر ، ليلى إبراهيم ومحمد أمين ، المصطلحات المعمارية فى الوثائق المملوكية ، ص ٨٥ .

ينسب القبو إلى المكان الذى يوجد به ، كقبو زقاق عز الدين مرزوق ، وقبو زقاق البواقين ، وأحصى ابن دقماق بالفسطاط من الأقبية المشهورة نحو العشرة [1] .

* العقبات

كلمة العقبة تعنى المرقى الصعب من الجبال ، ولكنها فى الفسطاط تمثل بقايا أرضية الفسطاط الصخرية التى ظلت على ارتفاعها النسبى مما جعلها عقبة فى سبيل السالك للطرق تظهر مرتفعة عن منسوب الطرق والدروب ، ومن ثم جاء وصفها عند ابن دقماق « يصعد إليها من الطريق أو من الرحبات » .

وقد تكون العقبات أيضا هى الطرق التى تأخذ فى الارتفاع النسبى حين يقصد السالك طريقاً نحو الأكوام ، مثل كوم ابن غراب وكوم المحاير وكوم دينار وكوم المشانيق ، وعلى ذلك فالصلة واضحة بين العقبات والكيمان حتى لقد أوردهما ابن دقماق على التوالى فبدأ بالعقبات وثنى بالكيمان . وأحصى ابن دقماق أكثر من عشرين عقبة مشهورة وهى فى مجملها منسوبة إلى مجموعات عرقية عربية قبائل أو إلى أشخاص [2].

---

(١) ابن دقماق ، مصدر سابق ، ص ٥٣ ، ٥٤ .
د . عبد العال الشامى ، مرجع سابق ، ص ٧٨ .

(٢) ابن دقماق : مصدر سابق ، ص حـ ٤ ، ص ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣
د . عبد العال الشامى ، مرجع سابق ، ص ٧٩ .

*** برك الفسطاط**

أعطت البرك التى حول الفسطاط بعداً عمرانياً إضافيا لانستطيع أن نغفله عند الحديث عن المدينة وتطورها العمرانى عبر العصور، ومن هذه البرك :

*** بركة الحبش**

عرفت هذه البركة بعدة أسماء ففى صدر الإسلام عرفت ببركة المعافر، كما عرفت أيضا ببركة حمير نسبة لقبلتين عربيتين نزلتا حولها زمن الفتح الإسلامى لمصر ، كما عرفت أيضا باصطبل قرة نسبة إلى قرة بن شريك العبسى الذى ولى مصر من سنة ٩٠ هـ إلى سنة ٩٦هـ الذى اهتم بها وغرسها قصبًا ، كما عرفت ياصطبل القامش أى القصب الذى كان يزرع بها .

أما عن اسم بركة الحبش فمن المرجح أنها تنسب إلى الجنان الواقعة قبلى البركة وهى منسوبة إلى قتادة بن قيس بن حبشى الصدفى الذى شهد فتح مصر، والجنان تعرف بالحبش وبها تعرف بركة الحبش [١] .

كانت بركة الحبش تقع جنوبى مدينة الفسطاط فيما بين جبل المقطم والنيل ، وكان الجبل يحيط بها من الجهتين الشرقية والشمالية ، والجهة الشرقية كانت على شكل هضبة أقيم على بعضها قرية البساتين القديمة، وأما الجهة الشمالية فتمثل هضبة اسطبل عنتر حاليًا وكان الجزء الغربى

---

(١) ابن دقماق ، جـ ٤ ، ص ٥٥، المقريزى، الخطط ، جـ ٢، ص ١٥٢ محمد الششتاوى ، متنزهات القاهرة فى العصر المملوكى والعثمانى، ص ١٢٤ . رسالة ماجستير بكلية الآثار، جامعة القاهرة ، ١٩٩٤م.

منها يمثل جبل كان يسمى قديمًا الرصد. والحد الجنوبى للبركة كان حدائق وبساتين. والحد الشمالى الشرقى ينتهى إلى البئر الطولونية لا تزال موجودة حتى الآن بحى البساتين جنوبى القاهرة وتسمى الآن بئر أم سلطان وهى تمثل مأخذ مياه القناطر التى أنشأها أحمد بن طولون والتى لا يزال الجزء الجنوبى منها باقيا بالبساتين الآن.

وقدر محمد الششتاوى مساحة بركة الحبش بألفين ومائتى فدان، كانت حتى منتصف القرن العشرين أراضى زراعية تقع فى زمام قرية دير الطين (حى دار السلام حاليا) وزمام قرية البساتين.

أما عن تاريخ البركة فأول من أهتم بها هو الأمير قرة بن شريك العبسى الذى غرس بها قصبًا، ثم دخلت فى ملك أبى بكر المادرائى [(١)] الذى كان وزيراً للطولونيين، وقد قام بوقفها فى سنة ٣٠٧هـ/ ٩١٩م على بعض المنشآت المائية والأمور الخيرية مثل الصرف على فقراء سكان القرافة من المعافر وغيرهم [(٢)].

ثم استولى عليها الوزير الفاطمى الصالح طلائع (٥٤٩ـ ٥٥٦هـ/ ١١٥٤ـ ١١٦١م) وأوقفها على السادة الأشراف الحسينيين أحفاد الحسين بن على كرم الله وجهه [(٣)].

---

(١) هو أبو بكر محمد بن على المادرائى، ولد بنصيبين سنة ٢٥٨هـ، وقدم إلى مصر سنة ٢٧٢هـ، تولى عدد من المناصب فى الدولة الطولونية إلى أن دخل العباسيين مصر، فحملوه إلى بغداد، ثم عاد إلى مصر مرة أخرى ودبر أمرها وأمر ونهى، كان واسع الثراء محبا لأمور الخير، توفى فى شوال سنة ٣٤٥هـ.
المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ١٥٥، ١٥٦.
محمد الششتاوى، مرجع سابق، ص ١٢٨.

(٢) ابن دقماق، مصدر سابق، جـ٤، ص ٥٥، ٥٦.

(٣) المصدر السابق.

وفى العصر الأيوبى شاركهم فيها أقاربهم الطالبيين، وفى العصر المملوكى ثبت الوقف عليهم عدة مرات [١]، ثم استولى عليها النشو ناظر الخاص للسلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وعوض الأشراف عنها مالاً من بيت المال يصرف لهم سنويًا ، فلما مات الناصر محمد وتسلطن من بعده الملك المنصور أبو بكر فى ٧٤١ هـ/ ١٣٤٠م بادر باعادة البركة إلى الأشراف وظلت وقفًا عليهم بعد ذلك، وظلت البركة فى العصر العثمانى تتبع فسطاط مصر من الناحية الإدارية .

كانت بركة الحبش تغذى بالماء عن طريق خليج بنى وائل الذى يخرج من النيل جنوبى مصر القديمة ، وكانت أرض البركة وقت أن يغمرها النيل تشبه البرك ولهذا سميت بركة وبعد أن ينتهى فيضان النيل ويصرف الماء عنها تنكشف أراضيها ، ولا تحتاج إلى الحرث للينها بل تلاق لوقًا وتزرع أصنافًا شتوية مثل الكتان والبرسيم والقصب وكانت تحف بها أشجار الجميز والعنب والنخيل [٢] .

بنيت حول بركة الحبشى الدور والقصور والمناظر والجواسق والجوامع والأديرة والكنائس منذ الفتح الإسلامى لمصر، وكان العمران على أحسن ما يكون فى العصر الفاطمى، وعاش حولها المسلمون وأهل الذمة حيث تداخلت دورهم، واستمرت البركة عامرة بعد ذلك فى زمن الدولة الأيوبية [٣] .

---

(١) محمد الششتاوى ، مرجع سابق، ص ١٣٠ .

(٢) محمود الحسينى، مرجع سابق، ص ١٦٨ : ١٧٧ ، محمد الششتاوى، مرجع سابق، ص ١٣٠ .

(٣) هو الوزير الصاحب تاج الدين محمد بن الصاحب فخر الدين بن الوزير الصاحب بها الدين على بن سليم بن حنا ، من أسرة عريقة تولت أرفع المناصب فى الدولة المملوكية وكانوا أهل علم ودين وأدب ولد سنة ٦٤٠ هـ/ ١٢٤٢م وتوفى سنة ٧٠٧ هـ/ ١٣٠٧م. المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٤٢٩ .

وفى بداية العصر المملوكى زاد الإهتمام بإقامة منشآت دينية على حدود البركة ، فشيد الصاحب تاج الدين بن حنا [١] جامع سنة ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣م على حافة البركة فى شاطئها الغربى بناحية دير الطين ، وذلك عند تعميره بستان المعشوق بجواره ، وفى هذا الجامع يقول الشاعر السراج الوراق :

بنيتم على تقوى من الله مسجداً   وخير مبانى العابدين المساجد
فقل فى طراز معلم فوق بركة   على حسنها الزاهى لها البحر حاسد

وكان الصاحب تاج الدين شيد رباطًا من ذى قبل على بركة الحبش سنة ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م [٢].

كما أقيم حول البركة فى العصر المملوكى بعض المنشآت التى إرتبطت بالتنزه فقد بنى الملك الناصر محمد بن قلاوون مسطبة لإطعام الطير بغرض الصيد هناك ، كما بنى ابنه أنوك منظرة وحوشًا لتربية الطيور كان يقضى أغلب أوقاته بها مع مغنية شغف بها حبا [٣].

ويبدو أن العمران حول البركة بغرض السكنى توقف بعد فترة الإزدهار التى شهدتها مصر فى زمن الناصر محمد بن قلاوون . خصوصًا أن مصر تعرضت لمحن وشدائد عظيمة منذ مطلع القرن التاسع فهجرت الإقامة حول البركة ، فضلاً عن زيادة نشاط الحركة العمرانية

(١) المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٢٩٩ ، محمد الششتاوى ، مرجع سابق ، ص ١٣١ .
(٢) د. محمد حمزة ، قرافة القاهرة فى عصر سلاطين المماليك ، رسالة ماجستير مخطوطة ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٦م ، محمد الششتاوى ، مرجع سابق ، ص ١٣١ .
(٣) محمد الششتاوى ، مرجع سابق ، ص ١٣٤ : ١٣٦ .

بالقاهرة ، مع ملاحظة بعد بركة الحبش عن مدينة القاهرة ، وظلت البركة في العصرين المملوكي والعثماني موضع تنزه فقط .

*** بركة الشعيبيه**

سميت بركة الشعيبيه بهذا الاسم نسبة إلى بنى الشعيبية الذين بنوا حولها في العصرين المملوكي والأيوبي . تقع هذه البركة شمال بركة الحبشي ، ويمثل موقعها حاليا منطقة الزهراء بمصر القديمة ، وتبلغ مساحتها أربعة وخمسين فدانًا . وكان الماء يأتيها من خليجين أحدهما يقع جنوبها والخليج الآخر هو خليج بنى وائل وكان يقع شمالها .

كانت هذه البركة وقفا للمؤرخ أسعد بن مماتي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩م ، ثم استأجر البركة الأمير عز الدين الأفرم ، الذى عمرها ، وتخربت الدور والمناظر التى حول البركة فى بداية القرن ٩ هـ / ١٥م ، وصارت البركة مزارع وبساتين . وكانت البركة فى أوج ازدهارها متنزها لأهل مصر ، حيث كانت الشخاتير (مراكب النزهة) تدخلها ، وظلت موضع تنزه بعد تحويلها لبستان حتى تعرضت للتخريب والدمار ، وتحولت إلى كيمان . فى القرن ٩ هـ / ١٥م . [١].

*** بركة شطا**

كانت بركة شطا تقع شمال بركة الشعيبية ، وكان الماء يدخل إليها من خليج بنى وائل بواسطة برابخ (أنابيب) وبواسطة قنطرة تتوسط جسر الحبات الفاصل بينها وبين بركة الشعيبية جنوبها .

---

(١) محمد الششتاوى ، مرجع سابق ، ص ١٣٧ ، ١٣٨ .

كانت الدور تحيط بالبركة وكان بجوارها بستان فيه منظرة ، وطاحون وحمام وبظاهر بابه حوض سبيل كان القاضى مخلص الدين الموقع المعروف بالمخلص قد عمرهم، وكذلك كان يتوسط البركة مسجد يعرف بمسجد الجلالة يتوصل إليه من خلال قناطر. وتخربت الدور والبساتين حول البركة فى القرن ٩ هـ/ ١٥م. نظراً لانقطاع الماء عنها وأصبح موضع البركة كيمانا.

ويرى محمد الششتاوى أنه كان لانحسار ماء النيل عن الضفة الشرقية فى بداية القرن ٩هـ/ ١٥م أثر سلبى على الجزء الجنوبى من الفسطاط ، وبالتالى تأثرت البرك الثلاث السابقة بذلك، لصعوبة مدها بالماء عن طريق خليج بنى وائل الذى لم يهتم أحد بمده وتنظيفه حتى طغى الرمل عليه ، بالإضافة إلى المحن التى تعرضت لها مصر آنذاك ، ومن المعروف أن العمران نشط بالفسطاط فى الجزء المواجهة لجزيرة الروضة فى عصر المؤيد شيخ، إلا أن القسم الجنوبى من المدينة لم يأخذ حظه من التعمير مرة أخرى إلا فى العصر الحديث .

* دار الإمارة

لم يكن فى الفسطاط فى بداية عهدها دار إمارة خاصة ، بل كانت الدار التى يقيم بها الوالى بمثابة دار إمارة [1] وقد إختط عمرو بن العاص داراً له بجوار المسجد الجامع لا يفصل بينها وبين المسجد سوى الطريق ، وظل هذا الوضع قائما حتى آخر الدولة الأموية ، هذا وإن كان عبد العزيز بن مروان قد بنى فى خلافة أخيه عبد الملك داراً سميت « بدار الذهب » سنة ٦٧ هـ/ ٦٨٦ م ذات قبة مذهبة ، ولفرط سعتها ، كانت تعرف بالمدينة ، إتخذها مقراً له ، ثم اتخذت مقراً لأمراء مصر من بعده [2] ويذكر الكندى عن هذه الدار أن عبد العزيز بن مروان « أمر ببنيان الدار المذهبة فى سنة سبع وستين التى تدعى بالمدينة بسوق الحمام وهو غربى المسجد الجامع » .

ظلت الدار المذهبة منزلاً لأمراء مصر إلى أن أمر باحراقها مروان بن محمد أثناء تعقب العباسيين له [3] وحين تم النصر للعباسيين اختط صالح بن على وأبوعون داراً للإمارة فى العسكر ، وذكر البلوى أن دار الإمارة هذه كان يطلق عليها اسم « بلد الإمارة » ووصفها بقوله : « كان لها بابان

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٩٦ .
المقريزى ، الخطط ، حـ ١ ، ص ٢٩٦ .
القلقسندى ، صبح الأعشى ، حـ ٣ ، ص ٣٣٥ .
د . حورية سلام ، الحياة الاقتصادية والاجتماعية بمدينة الفسطاط حتى العصر الفاطمى ، ص ٧٣ ، رسالة ماجستير بكلية الآداب جامعة القاهرة ، ١٩٧٣ م .
(٢) الكندى : الولاة والقضاه ، ص ٤٩ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٤٩ .

أحدهما بالحارة المعروفة بحوض أبى قديرة ، وبابها الآخر الملاصق للشرطة الفوقانيه وكان باب الشرطة أيضا أحد أبوابها ، وكانت كلها دار واحدة ، ولها باب إلى المسجد الملاصق للشرطة [1] ومعنى هذا أن دار الشرطة كانت جزءاً من دار الإمارة فلما نزل أحمد بن طولون مصر نزل دار الإمارة بالعسكر ، ولما وجد أنها تضيق بعسكره بنى سنة ٢٥٩ هـ / ٨٧٢ م قصره وحول السهل الممتد بين هذا القصر وجبل يشكر إلى ميدان كبير للاستعراضات العسكرية والرياضية وسمى القصر كله الميدان [2] وكان للقصر الذى جعله داراً للإمارة ثلاثة أبواب عالية متصلة بعضها ببعض خصص الباب الأوسط منها وهو الباب الرئيسى له [3] بينما كانت الحاشية والعسكر تخرج من البابين الآخرين . وكان له أيضا باب للصلاة بمحازاة جامعة الشهير وباب الميدان حيث كان يمر منه الجند وباب الحرم الخاص بالنساء ، ثم أبواب أخرى تسمى بأسماء حجابها :

باب الدرمون ، وباب وعناج ، وباب الساج الذى سمى باسم الخشب الذى صنع منه ، وباب السباع ، وسمى هذا الباب بهذا الاسم لأنه صور عليه سبعين من جص .

وأبواب القصر الرئيسية يبدو أنها كانت أبواب تذكارية ولم تكن أبواب بسيطة .

---

(١) البلوى ، سيرة أحمد بن طولون ، ص ٥٥ .

(٢) الكندى ، مرجع سابق ، ص ٢١٥ .

المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٣١٣ .

(٣) البلوى ، مرجع سابق ، ص ٥٥ وما بعدها .

وزاد خمارويه فى هذا القصر ، ودمر القصر والميدان وهما رمز لحكم الطولونيين عند دخول جيوش العباسيين مصر ، وظل الولاة بعد ذلك بنزلون دار الإمارة بالعسكر حتى اتخذ كافور الأخشيد لنفسه داراً عند جامع بن طولون جعلها داراً للإمارة وكانت تقع عند بركة قارون وبلغت تكاليف هذه الدار مائة ألف دينار [١] .

* شرطة الفسطاط

كان حاكم مصر سواء أثناء تبعيتها للدولة الإسلامية أو أثناء إنفصالها هو الذى يعين صاحب الشرطة ، الذى كانت مهمته تطبيق القوانين وتنفيذ العقوبات ، ومنذ انشاء العسكر كانت هناك شرطتان بالفسطاط سميت شرطة العسكر بالشرطة العليا على أساس أنها تقع إلى الشمال من شرطة الفسطاط التى سميت بالشرطة السفلى [٢] . وشغل الترك هذا المنصب ابتداء من عهد أحمد بن طولون وطوال حكم بقية الدولة .

كان من بين واجبات صاحب الشرطة الاهتمام بنشر الفضيلة والمحافظة على الأخلاق ، فيذكر الكندى أنه فى ولاية مزاحم بن خاقان سنة ٢٥٣ هـ / ٨٦٧ م أمر صاحب شرطته [٣] أزجور بمنع النساء من

(١) د . حورية سلام ، الحياة الاقتصادية والاجتماعية بمدينة الفسطاط ص ٧٧ ، ٧٨ .
(٢) الكندى ، الولاة القضاة ، ص ٢١٠ .
المقريزى ، الخطط ، حـ ١ ، ص ٣٠٤ .
(٣) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٢١٠ .

الخروج من بيوتهن والتوجه إلى الحمامات والمقابر . كما أمر بسجن المؤنثين والنوائح [1] .

وكان صاحب الشرطة بمثابة نائب للوالى يؤم الناس فى الصلاة إذا مرض الوالى ، ويتولى شئون البلاد إذا خرج الوالى من الفسطاط ، فقد أم خارجة بن حذافة صاحب الشرطة أيام عمرو ابن العاص الناس فى الصلاة أثناء مرض عمرو [2] كما ناب عباس بن سعيد المرادى صاحب الشرطة عن عبد العزيز بن مروان والى مصر عند خروجه إلى الخليفة عبد الملك بن مروان سنة ٦٧ هـ / ٦٨٦ م ، كما كان حفص ابن الوليد صاحب شرطة الفسطاط قبل أن يلى حكم مصر من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك [3] .

* دار الضرب

من الممكن تحديد موقع دار ضرب النقود فى الفسطاط مما ذكره ابن عبد الحكم عند حديثه عن زيادة عبد الله بن طاهر فى المسجد الجامع حيث يقول « ثم زاد عبد الله بن طاهر فى عرضه بكتاب المأمون بالإذن له فى سنة ثلاث عشرة ومائتين وأدخل فيه دار الرمل إلا ما يقرب منها من دار الضرب [4] وكذلك ما ذكره المقريزى عند إشارته إلى الزيادات التى ألحقت بالمسجد الجامع سنة ٣٥٥ هـ / ٩٦٥ م حيث يقول زاد فيه أبو بكر

---

(١) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، حـ ١ ، ص ٣٣٧ .
(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١٠٥ .
(٣) الكندى ، ص ٤٩ ، ٧٤ ، ٧٥ .
(٤) ابن عبد الحكم ، مصدر سابق ، ص ١٣٢ .

محمد بن عبدالله الخازن رواقا واحداً من دا رالضرب وهو الرواق ذو المحراب والشباكين المتصل برحبة الحارث » ثم أكد هذا القول عند حديثة عن عمارة الجامع في العصر الفاطمي إذ قال « في شهر رمضان سنة ٤٤٠ هجرية جددت الخزانة التي في ظهر دار الضرب»[١] .

وظلت دار الضرب [٢] . قائمة في الفسطاط حتى عهد الآمر الفاطمي الذي أمر بانشاء دار جديدة للضرب في القاهرة عاصمة الفاطميين .

وضربت النقود في الفسطاط منذ فترة مبكرة في عصر الولاة وعثر في حفائر الفسطاط على مجموعة من النقود تحمل أسماء الولاة أو عمال الخراج الذين تولوا أعمالهم في مصر مثل فلوس القاسم ابن عبيد الله عامل خراج مصر سنة ١١٦ ـ ١٢٤ هجرية ، وهذه المجموعات من النقود محفوظة في متحف الفن الإسلامي ، وكان علي بن سليمان العباسي أول من ضرب الدنانير في الفسطاط في العهد العباسي وفي عهد الطولونيين ظلت دار الضرب في الفسطاط تقوم بعملها . وكان لتشدد أحمد بن طولون أثره في إقبال الناس على التعامل بالدنانير دون غيرها ، كما تعززت مكانة الفسطاط في الأسواق الخارجية فقد كان الدينار الاحمدي من أحسن الدنانير الإسلامية وأثقلها وزنا ، فأقبل عليه الناس

---

(١) المقريزي ، الخطط ، حـ ٢ ، ص ٢٥٠ ، ٢٥١ .

(٢) عبد الرحمن فهمي ، النقود العربية ماضيها وحاضرها ، ص ٤٩ ، ٥٠ المكتبة الثقافية (١٠٣) القاهرة ١٩٦٤ م .

فى أسواق الشرق إقبالاً عظيماً [1] وظلت دار الضرب فى الفسطاط تصدر العملة باسم الحكام الإخشيديين ، باستثناء عهد كافور ، وهكذا ظلت النقود تضرب بدار الضرب فى الفسطاط حتى نهاية عهد الإخشيديين ، بل بعد قيام الدولة الفاطمية حتى عهد الآمر الفاطمى . وكان يشرف على أعمال دار الضرب فى الفسطاط متولى دار الضرب . وأشار ابن سعيد المغربى أن صدقه بن الحسن هو الذى تولى دار الضرب المصرية فى الفسطاط فى العصر الإخشيدى . وكان يعهد إلى القاضى بالإشراف على دار الضرب ، فحين تولى الحسن بن زرعة قضاء مصر سنة ٣٢٤ هـ / ٨٣٨ تولى أيضا الإشراف على المواريث والأحباس ودار الضرب . وإشراف القاضى هو ضمان لشرعية وزن الدراهم والدنانير والتأكد من عدم غش الذهب . وقد كان القاضى يجتهد فى خلاص الذهب وتحرير عيار [2] .

* المرافق التعليمية والدينية

انتشرت المرافق التعليمية والدينية بالفسطاط ، وقد أحصى ابن دقماق نحو ٢٤ مدرسة بها ، ومن أطرف ما ذكره من معلومات عن هذه المدارس ما أنفق على تشييدها ، مثل المدرسة المسلمية المنسوبة إلى القاضى ناصر الدين بن مسلم الكارمى فقد أوصى بعمارتها من بعده وأرصدها ستة

---

(١) متز ، الحضارة الإسلامية ، حـ ٢ ، ص ١٧١

(٢) المقريزى ، الخطط ، حـ ٢ ، ص ٦ [illegible]

حورية سلام ، مرجع سابق ، ص ١٢١ ، ٣٢٢ .

عشر ألف دينار ، فعمرت وجاءت من أحسن المدارس فلم يكن بمصر مدرسة أحسن بناء منها [١] .

ومن المدارس المملوكية الشهيرة بالفسطاط المدرسة المعزية التى عمرها الملك المعز أيبك عام ٦٥٤ هـ ، وكان لها عدة أوقاف منها الحمامين المتجاورين وربع الطاووس [٢] ومن الواضح تركز المدارس على شاطئ النيل أى فى القطاع الغربى من الفسطاط الحادث بعد خراب الفسطاط ويدل ذلك على حداثة نشأة هذه المدارس . ومن أمثلتها « المدرسة البدرية الخروبية » فهذه المدرسة على شاطئ النيل مطلة عليه ، عمرها القاضى بدر الدين الخروبى وهى إلى جانب داره . وقد أقيمت سنة سبعمائة هجرية [٣] .

وأسرة الخروبى هذه لها أكثر من مدرسة مثل المدرسة العزية الخروبية التى عمرها القاضى عز الدين على ساحل النيل ، وكذلك المدرسة التاجية الخروبية عمرها القاضى تاج الدين الخروبى أخو عز الدين المذكور قبله [٤] .

وتختلف المدارس القائمه فى القطاع القديم من مدينة الفسطاط عن تلك التى أقيمت على شاطئ النيل ، فالمدارس فى داخل الكتلة السكنية

---

(١) ابن دقماق ، مرجع سابق ، حـ ٤ ، ص ٩٩ .
(٢) ابن دقماق ، مرجع سابق ، حـ ٤ ، ص ٩٣ . والحمامان جاءا فى وصف وكالة الملك وهما مشهورين بحمامى السلطان .
(٣) ابن دقماق ، مرجع سابق ، حـ ٤ ، ص ٩٨ ، ٩٩ .
(٤) المرجع السابق ، حـ ٤ ، ص ٩٨ .

القديمة كانت فى مساجد معلقة مثل المدرسة بالمسجد بسوق وردان وهو مسجد معلق بسوق وردان المنفرد ليس يجاوره شىء بل الطرق دائرة عليه وهو من المساجد الخطية وليس بمصر مسجد منفرد ، والطرق دائرة عليه سوى هذا المسجد ومسجد آخر بالرحبة التى آخر الجير ، وهذا المسجد سفله حوانيت دائرة عليه من جهاته الأربع [1] .

ومثل هذه المدارس أو المساجد المعلقة تقوم الحياة فيها اعتمادا على العائد الذى يأتيها من تأجير الحوانيت فى الطابق الأرضى وذلك بالإضافة إلى ريع الأراضى الزراعية والعقارات الأخرى . من أمثلة هذه المدارس مدرسة ابن الأرسوقى « فهى فى مسجد معلق يتم الدخول إليه من سفل ساباطه (سقيفته) ، ومن وقف هذه المدرسة الحوانيت التى بسفله والقيسارية الكبرى والقيسارية الصغرى [2] .

ولما كان المذهب الشافعى والمذهب المالكى هما أكثر المذاهب الفقهية إنتشارا بمصر فإن التدريس كان يتم فى المدارس وفقا لأحد هذين المذهبين أو هما معا أو دون تقييد بمذهب معين ، ومن أمثلة المدارس التى يتم التدريس فيها على المذهب الشافعى مدرسة ابن الأرسوفى . وكمثال لما كانت تضمه المدرسة من عاملين للتدريس والوظائف الأخرى نذكر ما كان بالمدرسة المجدية الخليلية التى أقيمت عام٦٦٣ هـ . وكان فيها عدد من

---

(١) المرجع السابق ، حـ ، ص ٩٨ .
(٢) ابن دقماق ، مرجع سابق ، حـ ٤ ، ص ٩٨ .

المدرسين والمعيدين عشرين نفرا ، وإماما ومؤذنا مواظبين وقيما لكنسها وفرشها ووقود مصابيحها وإدارة ساقيتها وإجراء الماء إلى ساقيتها .

وتشمل المرافق الدينية بالفسطاط المساجد الجامعة ومساجد الصلوات الخمس ومن أبرزها : ـ

ـ الجامع الناصرى : وقد فصل ابن دقماق الحديث عنه فيما يتعلق بتاريخ النشأة وخصائص الموضع ووصفه الداخلى وقد بدأ إنشاء هذا الجامع عام ٧١١ هـ بواسطة القاضى فخر الدين ناظر الجيوش المنصورة ، وتدبير القاضى كريم وكيل السلطان وناظر خاصته ، وقد إكتمل المسجد الجامع فى العام الثانى ٧١٢ هـ (٢) .

وإذا كان المسجد الجامع العتيق قد إرتبط بالنشأة الأولى للفسطاط فان الجامع الناصرى خير مثال لما شهدته الفسطاط فى القرن الثامن الهجرى من إنشاء مساجد جامعة لها ملحقاتها .

ومن جوامع الفسطاط التى ذكرها ابن دقماق أيضا جامع الأمير عز الدين أيبك الأفرم ، الجامع التاجى ، الجامع العلائى ، الجامع بالرصد جامع الشاميين ، جامع راشده . ويتضح مما ذكره ابن دقماق عن هذه الجوامع أن مواضع هذه الجوامع المستجدة جاءت فى مناطق النمو العمرانى خارج مدينة الفسطاط فى الجنوب والجنوب الشرقى ، ومنها

---

(١) المرجع السابق ، حـ ٤ ، ص ٩٦ .
د . عبد العال الشامى ، مرجع سابق ، ص ٩٢ .
(٢) ابن دقماق ، مرجع سابق ، حـ ٤ ، ص ٧٦ ، ٧٧ .

ما كان فى الشمال ، مما يعكس مدى حاجة السكان الجدد فى أطراف الفسطاط إلى المساجد التى تعددت لزيادة حجم سكان الفسطاط .

* مساجد الصلوات :

أحصى ابن دقماق منها نحو ٥٣٧ مسجدا ، وقام بذكر توزيعها على الشوارع والأماكن من الأزقة والأسواق والدروب والحارات والأكوام والسويقات والعقبات ، بل وما كان منها داخل الفنادق مثل مسجد فندق الكارم ومسجد بفندق بنى الرصاص ومسجد بفندق الجوباشى [1]. وقد يعمر المسجد فوق الفندق بمعرفة من أقام الفندق فيصبح مسجدا معلقا كالذى عمره الجلال ابن القطروانى علو فندقه [2]. وإقامة المساجد الخمس داخل المرافق العامة من الأمور المعتادة حتى تقام الصلاة لوقتها . ومن أطرف ما فى الفسطاط بعض مساجدها التى الحقت بالحمامات مثل مسجد حمام أبى قرده الذى عمره الصاحب بهاء الدين [3]وهناك الكثير من الحمامات التى تجاور المساجد حتى أن تحديد المسجد يشار إليه بأنه بجوار حمام كذا . والصلة واضحة وكبيرة بين الحمامات العامة والمساجد .

وأول مساجد الصلوات التى أشار إليها المؤرخون مسجد فى اصل حصن الروم عند باب الريحان قبالة الموضع الذى يعرف بالقالوس وكان

(١) المرجع السابق ، جـ ٤ ، ص ٩٠ .
(٢) المرجع السابق ، جـ ٤ ، ص ٨٨ .
(٣) ابن دقماق ، مصدر سابق ، جـ ٤ ، ص ٨٩ .

يسمى مسجد القلعة [١]، كما يشير المؤرخون إلى مساجد أخرى أنشئت بالفسطاط مثل مسجد بادى الذى كان يقع فى خطة قبيلة غافق ، ومسجد إبراهيم القراط فى خطة قبيلة دهنة إحدى بطون غافق ، ومسجد سيبان وهو مسجد تعلوه قبة كان يقع فى أحد خطط قبيلة مهرة وهى خطة سيبان [٢]ويذكر الكندى مسجد عبد الملك بن مروان انه كان موضعه يجلس فيه أهل المدينة يتحدثون فمر بهم عبد الله وهو أميرهم فسألوه أن يبنى لهم فيه مسجداً وشكوا إليه ما يلقون من الشمس فبناه لهم ، فكانوا يجتمعون فيه، وينفى الكندى نسبة هذا المسجد إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب مؤكداً أنه لعبد الله بن عبد الملك ، ويحدد موقعه على الوجه الآتى :

يحده من قبليه الطريق الأعظم إلى المسجد الجامع ، ومن بحرية الطريق الذى يؤدى إلى سوق بربر وشرقه إلى السويقة المسماه بسويقة مسجد عبد الله وغربية الطريق الذى يسلك منه على الجب الذى يقال له جب عبد الله [٣].

كما يشير ابن عبد الحكم إلى مسجد سمى مسجد الأبيض وكان قاضى الفسطاط يجلس فيه للقضاء سنة ١٤٤ هـ/ ٧٦١ م .

كما يشير الكندى إلى مسجد عند سفح المقطم كان يسمى مسجد محمود وكان يركب إلى مسجد محمود لالتماس هلال رمضان ، ويذكر

---

(١) ابن عبد الحكم ، مصدر سابق ، ص ١٣٢ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٢١ ، ١٣٥ .
(٣) الكندى ، مصدر سابق ، ص ٤٠٧ ، ٤٠٨ .

أن الأخشيد أمر أبا بكر قاضى الفسطاط فى ذلك الوقت بأن يعلن إلى الناس رؤية هلال رمضان من هذا المسجد ويبدو أن السبب فى ذلك أن موقع المسجد كان من الارتفاع . بحيث يسمح برؤية الهلال . وأول من خرج بالناس إلى مسجد محمود لرؤية هلال رمضان القاضى اسماعيل بن اسحق الذى تولى قضاء الفسطاط سنة ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م .

ولم يشر ابن عبد الحكم إلى هذا المسجد ، ويبدو أنه لم يكن قد أنشئ إلا فى وقت متأخر نسبيا إلا أنه كان موجوداً أيام الطولونيين ، حيث يشير الكندى أنه حين تزايدت علة أحمد بن طولون أمر الناس بالدعاء له فغدا الناس بالدعاء إلى مسجد محمود بسفح المقطم سنة ٢٧٠ هـ / ٨٨٣م[١] .

* الحمامات

الحمامات من المنشآت العامة التى كثر تشييدها فى المدن الإسلامية لإرتباطها بنظافة المسلم ، وقد بلغ عدد حمامات الفسطاط فى عهد ابن دقماق ٤٥ حماما ، وتعود أهمية الحمامات إلى أنها من المشروعات ذات العائد الكبير ، فقد كانت تقام لتصبح وقفا على المنشآت الدينية كالمساجد ، فتم وقف الحمامات على الجامع العتيق بمصر الفسطاط وكذلك على الجامع الأقمر بالقاهرة ، وعلى الخانقاة التى بناها علاء الدين ابن صاحب الموصل ، وهناك حمام أوقفه تقى الدين عمر على مدرسته منازل العز بالفسطاط ، وحمام آخر أوقف على التكاررة

---

(١) الكندى ، مصدر سابق ، ص ٢٣١ .

وهم من مسلمى غرب إفريقيا ، وكان لهم وجود مستمر بالمدينة ، وهذه بعض أمثلة المنشآت التى أوقفت عليها حمامات الفسطاط .

ومن أقدم حمامات الفسطاط حمام الفار بسويقة المغاربة وهى من خطة عمرو بن العاص ، سمى بهذا الاسم لما استصغرته الروم بالنسبة لحماماتها الواسعة ، ومشيد هذا الحمام عمرو بن العاص ، ومن حمامات الفسطاط حمام الخشابين وحمام سوق وردان ، وحمام السيدة وحمام السوق الكبير حمام أبى مرة . ومن الملفت للنظر وجود حمامات بالدور الخاصة بالفسطاط ، وهذا يدل على مدى ما وصلت إليه عمارة هذه الدور ، ورصد منها ابن دقماق إحدى عشر حماماً ، ومن هذه الحمامات حمام الصاحب فخر الدين بن الخليلى بداره ، وحمام ولده الصاحب عماد الدين ، وحمام بدار السكرى انشأه القاضى فخر الدين(١) .

*** البيمارستانات (٢) .**

شيد بالفسطاط عدد من البيمارستانات أولها بيمارستان فى زقاق القناديل بنى فى عهد بنى أمية ، ثم تلى ذلك تشييد أحمد بن طولون البيمارستان العتيق ويعرف بالأعلى حوالى عام ٢٥٩ هـ أو ٢٦١ هـ ، وكان خاصا بأفراد الشعب ، وأنفق ابن طولون على تشييده ستين ألف دينار ، ولكى يضمن إستمرار خدماته ، أوقف عليه سوق الرقيق

---

(١) ابن دقماق ، مصدر سابق ، ص ١٠٤ : ١٠٧ .

(٢) بيمارستان : كلمة فارسية مكونة من مقطعين بيمار أى مريض وستان : مكان ، وتناظر فى العربية دار الشفاء أو المستشفى .

ومنشآت معمارية عديدة ، أما البيمارستان الأسفل فقد أنشئ فى عهد الدولة الإخشيدية عام ٣٤٦ هـ ، وقد بناه الخازن الذى عمر مقياس النيل بالروضة وأقيم بالأهراء (الشون الخاصة بالغلال) على ساحل مصر ، وألحق به المنشىء دورات مياه منها واحدة خصصت لتغسيل الموتى ومواضع للسقاية وحمامين ، وأجرى إلى المنشأة الماء من بئر فى دار الصناعة بساحل مصر . وأجرى الأخشيد على هذا البيمارستان أوقاف عديدة منها قيسارية ودور وحوانيت وذكر المؤرخون أنه كان يوجد فى هذا البيمارستان من الأزيار الصينى الكبار والقدور النحاس والهواوين والطشوت ونقل إليه من البيمارستان الأعلى أضعاف ذلك . وقد خرب البيمارستان فى العصر المملوكى [١] .

وتبع بناء البيمارستانات وجود عدد من الأطباء المشهورين بالفسطاط على رأسهم أبو الحسن على بن رضوان الذى عاش فى الفسطاط بين عامى ٩٨٠ ، ١٠٦١ م وألف العديد من المؤلفات الطبية أشهرها « دفع مضار الأبدان بأرض مصر [٢] وهذا المخطوط ألفه ردا على طبيب القيروان الشهير ابن الجزار ناقدا وشارحاً للأوبئة وأسبابها وطرق علاجها، وكان ابن الجزار ألف كتابا بعنوان « كتاب فى نعت الأسباب المولدة للوباء فى مصر وطريق الحيلة ، فى دفع ذلك وعلاج ما يتخوف

---

(١) ابن دقماق ، مصدر سابق ، ص ٩٩ .

(٢) هذه المخطوطة محفوظة فى دار الكتب المصرية ، تحت رقم (٣٦ طب ـ ف ٤٣٧) وتقع فى ٢٢ ورقة أبعادها ٢٠ × ٢٠ سم مكتوبة بخط نسخى وثلث جميلين ، تحتوى كل صفحة على ٢٥ سطرا وتبدأ بقوله ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد أما بعد هذا كتاب على بن رضوان فى دفع مضار الأبدان بمصر . . ﴾ .

منه » نتيجة لأقوال سمعها ابن الجزار من بعض المغاربة الذين اعتلت صحتهم فى مصر ، فأراد ابن رضوان أن يصحح ويبين ما جاء فى كتاب ابن الجزار . وجاء كتاب ابن رضوان فى خمسة عشر فصلاً ، وانتقد ابن رضوان أهل مصر بسبب بعض عاداتهم السيئة التى عادت عليهم بالأمراض ومنها « أن أهل مصر يرمون فى النيل الذى يشربون منه ماءه فضول حيواناتهم وجيفهم ومجارى كنفهم مما يؤدى إلى اصابتهم بأمراض شتى . رغم أن أبدانهم قد اعتادت على ذلك وعقد ابن رضوان مقارنه فى كتابه بين البيئة وارتباطها بصحة الإنسان فى كل من القاهرة والفسطاط ، فالقاهرة بالنسبة للفسطاط أجود هواءً وأعدل وأصلح حالاً ، وأردأ موضع فى المدينة الكبرى هو فى الفسطاط حول الجامع العتيق ، ولابن رضوان كتاب آخر هو « الكافى فى كيفية تعليم صناعة الطب » .

وعثر فى حفائر مدينة الفسطاط على عدد كبير من الآلات الجراحية والمعدنية ، ويرجح الدكتور هنرى عوض أن هذه الأدوات الطبية ترجع إلى ما قبل العصر الفاطمى ، وهذه الأدوات تشتمل على مجموعة كبيرة من المكاوى التى تستعمل فى الكى وهى أنواع وأشكال عدة تستعمل فى مختلف العمليات الجراحية مثل نواصير العين والأست وفى استئصال الأورام الحميدة والخبيثة والبواسير والزوائد اللحمية وعرق النسا والقيلة المائية والفتق والشفة المشقوقة ولوقف النزيف الشريانى وكذلك وجد بالفسطاط كثير من المجسات المعدنية ويعتبر العرب أول من استعمل المجسات وكذلك مجموعة كبيرة من المباضع (المشارط) منها الطويل

والقصير وحاد الطرف أو غير حادة وكذلك مجموعة من خافض اللسان والملاقط والجفوت المختلفة الأشكال والأحجام لوضع المواد الكاوية على البواسير وللهاة المتلهبة ، ومن الأدوات الطبية المكتشفة بالفسطاط والمحفوظة فى متحف الفن الإسلامى والمتحف القبطى ومجموعة الدكتور هنرى عوض الخاصة :

١ ـ مكواة زيتونية يكون بها الفالج والصادع وخلع الورك .

٢ ـ مكواة ذات السفودين يكوى بها المفصل فى حالة الخلع والشلل .

٣ ـ مكواة آسية طرفها يشبه ورق الآسس يكوى بها الشعر الزائد فى العين .

٤ ـ مكواة مساوية يكوى بها فى حالة وجع الظهر فى ثلاثة صفوف فى كل صف ثلاثة كيات .

٥ ـ مكواة مجوفة طرفها أنبوبى دقيق الجدار والطرف الآخر مصمت كالمرود .

٦ ـ مكواة دائرية يكوى بها فوق الحدبة الباردة .

٧ ـ مبضع حاد الطرفين لشق الجلد فوق الشرايين لربطها .

٨ ـ مبضع نشيل .

٩ ـ مبضع يشبه الحربة .

١٠ ـ مبضع اللوزة معقوف الطرف وهو حاد من جهة غير حاد من الجهة الأخرى .

١١ ـ مبضع قصير نصله مستدير لشق الأورام والتجمعات الصديدية والخراريج .

١٢ ـ مبضع معقوف الطرف أحد أطرافه حاد والطرف الآخر غير حاد يشق به على البواسير .

١٣ ـ سكين عريض .

١٤ ـ مبضع مثلث الشكل لطيف يستعمل فى جراحات العين .

١٥ ـ مبضع لطيف حاد من جهة يستعمل فى جراحات العين .

١٦ ـ جفت لإستخراج المواد الغريبة الساقطة فى الأذن .

١٧ ـ منقاش وهو جفت ذو أسنان لإزالة التآليل .

١٨ ـ جفت وله حابس لوقف النزيف .

١٩ ـ جفت ينتهى طرفه بدائرتين يستعمل لإزالة بقايا العظام من الكسور .

٢٠ ـ جفت لطيف لإزالة الشعر الزائد من العين .

٢١ ـ جفت لطيف ومعه مرود لإزالة المواد الغريبة الساقطة فى العين .

٢٢ ـ أنبوبة النملة وهى من الحديد جزؤها الأعلى مصمت توضع على النملة وتشد عليها حتى تقطع من جذورها .

٢٣ ـ قصبتان يشد بهما على الجلد الزائد فى حالة إسترخاء الجفن فيسقط بعد أيام .

٢٤ ـ ملاعق مختلفة الأشكال والأحجام لوضع المواد الكاوية على اللهاة والنواسير .

٢٥ ـ مدس وهو آلة كالمرود ينتهى بمعلقة حادة تدخل فى الأورام لمعرفة أنواعها .

٢٦ ـ نوع من المقصات يسمى المقراض .

٢٧ ـ سنارة ذات ثلاث شعب لتشمير الجلد فى العمليات الجراحية .

٢٨ ـ مجارد من الحديد طرفها كالمبرد لجرد العظام .

٢٩ ـ خافض اللسان لكبسه فى عمليات استئصال اللوزتين .

٣٠ ـ آلة لحفظ الصفاق من حديد تشبه الملعقة أحد الطرفين عريض والآخر ضيق توضع لحفظ الأنسجة أثناء العمليات الجراحية حتى لا يغوص فيها المشرط .

٣١ ـ عتلات مختلفة الأحجام لإزالة وقلع بقايا الضروس المكسورة .

٣٢ ـ موسعات لتوسيع مجرى البول وللنواسير .

٣٣ ـ بريد وهو كالمرود لجس النواسير وسبرغورها .

٣٤ ـ سنارة لقلع بقايا الأسنان .

٣٥ ـ آلة كالمرود وطرفها معقوف كالسنارة لإزالة الأجسام الغريبة من الحلق كالعظام أو قطع اللحم .

٣٦ ـ ملعقة كحت لطيفة تستعمل فى عمليات العين .

٣٧ ـ مثقب يصلح لثقب العظام .

٣٨ ـ آلة لكحت جفن العين من الداخل فى حالات الرمد الحبيبى .

٣٩ ـ أنبوبة مجوفة طرفها مبرى على هيئة القلم لبزل الماء من البطن .

٤٠ ـ أنبوبة نحاسية لإخراج الديدان والصديد من الأذن أسفلها ضيق وأعلاها واسع يدخل الطرف الضيق فى الأذن ثم يمص مصاً قوياً ليخرج ما فيها .

٤١ ـ إبرة مستقيمة لخياطة الجروح .
٤٢ ـ إبرة مستديرة لخياطة الجروح .
٤٣ ـ مقطع لطيف يقطع به العظم المكسور .
٤٤ ـ مقطع عريض يقطع به العظم .
٤٥ ـ مقطع آخر لقطع العظم نهايته على شكل طائر (١) .

* أسواق الفسطاط

ولكى تكتمل لنا الفسطاط كما كانت لابد لنا وأن نزور أسواقها والتى مثلت الحركة الاقتصادية بالمدينة فى أزهى عصور إزدهارها . ولابد لنا أن نزيل لبسا شاع بين الكثيرين ، وهو أن الأسواق فى مدن العالم الإسلامى كانت للتجارة فقط ، هذا اللبس ناتج عن بيع السلع الصناعية فى أماكن إنتاجها ، فقد كانت الأسواق مواقع إنتاجية وتجارية فى نفس الوقت ، بل إختلطت حوانيت الصناعة وحوانيت التجارة داخل المدينة ، وعندما دخل المنتج الحديث المعاصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين من أوربا إلى العالم الإسلامى إنهار المنتجالمقابل اليدوى فى مدن العالم الإسلامى نتيجه لكثافة المنتج الغربى ورخص سعره إذن فقد كانت مدننا مدنا صناعية ، وهى نقطة لو ركزنا قليلاً لوجدنها على سبيل المثال

---

(١) د . هنرى أمين عوض ، لمحة عن الجراحة فى فجر الإسلام بمصر ، من ص ٢٧٦ : ٢٨٢ ، بحث ضمن أعمال المؤتمر العالمى الثانى عن الطب الإسلامى ، حـ٣ ، الكويت ١٩٨٢ م .

تمثلت فى الفسطاط فى مطابخ السكر السابق ذكرها على سبيل المثال لاالحصر . بل قدمت لنا الوثائق أوصاف عدد من المنشآت الصناعية بالفسطاط منها على سبيل المثال :

وثيقة لمعصرة زيت حار وحلو ، جاء فيها وصف تفصيلى لمبنى المعصرة ، والأدوات التى كانت تستخدم فى عصر بذور الزيت ، وحددت الوثيقة موقع المعصرة بالفسطاط أو مصر كما كانت تعرف آنذاك تجاه المدرسة الكوبكية . وهذه الوثيقة مؤرخة بسنة ٦٢٤ هـ [١] وتبقى بالفسطاط مصبغة أثرية وهى منشأة صناعية فريدة.

والآن آن لنا أن نتجول فى أسواق الفسطاط :

* سوق القناديل

امتازت هذه السوق بالإزدهار فى العصر الفاطمى لقربها من جامع عمرو بن العاص ، وكان يقع على الجانب الشمالى لمسجد عمرو بن العاص ، وبيعت فيه كافة ألوان السلع والمنتجات والأصناف النادرة ، والبضائع والتحف ، وكان يزخر بالتجار المصريين والقادمين من البلدان الإسلامية ، وكان يباع فيه أوانى وأوعية بلورية فى غاية الجمال ، وكانت تصنع فى مصر ومنها ما يرد من بلاد المغرب ، وكان المصريون يأتون بالبلور من مناطق بنواحى بحر القلزم [٢] كما بيع فيه أنياب الفيل التى

---

(١) أحمد محمد أحمد ، المنشآت الصناعية فى العصر المملوكى ، ص ٣٠ رسالة ماجستير بكلية الآداب ، جامعة سوهاج ، ١٩٨٥ .

(٢) ابن عبد الحكم ، مصدر سابق ، ص ١١٠ .

د . ممدوح عبد الرحمن الريطى ، أسواق الفسطاط والقاهرة فى العصر الفاطمى ، ص ٢١ ، رسالة دكتوراة بكلية الآداب ، جامعة المنيا ، ١٩٩٢ .

قدم بها التجار من زنجبار . فضلاً عن جلود الأبقار التى وردت من الحبشة وهى تشبه جلد النمور ، وصنع منها الصناع المصريون النعال والأحذية [1] .

* سوق الرقيق

كان يطلق عليه سوق دار البركة ، وهى أول سوق نشأت بالفسطاط على أيدى العرب الفاتحين لمصر [2] واستمرت تعمل لعرض الرقيق وشاهدها ابن عبد الحكم ، وكان يعرض بها الرقيق المجلوب من بلاد النوبة والسودان وأرمينيا وبلاد الروم وجزر البحر المتوسط ، وكان يأتى به إلى أسواق مصر التجار اليهود الذين اشتهروا بتجارة الرقيق ، وكانت هذه السوق تقع أمام دار أحمد بن المدبر عامل خراج مصر زمن الخليفة المتوكل العباسى ، وظلت عامرة ، وأحدث بها أحمد بن طولون توسعات سنة ٢٥٦ هـ / ٨٦٩ م [3] وأدخل فى السوق دار أحمد بن المدبر.

* سوق بربر

سمى هذا السوق بهذا الاسم نسبة إلى قوم من بلاد النوبة قدموا إلى مدينة الفسطاط وكان معظم تجارة من النوبة وبلدان افريقية ، وهو يقع فى آخر سوق القناديل ، وعرضت فيه بضائع ومنتجات النوبة ، وأيضا

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢١ .
(٢) السيوطى ، حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ، حـ ١ ، ص ١٣٤ .
(٣) البلوى ، سيرة أحمد بن طولون ، ص ٥٦ ، ٥٧ .

السلع القادمة من المغرب ومنها ريش النعام وجلود الحيوانات الملونة ، وكان يتبع موقع هذا السوق خطة قبيلة غفار [1] .

* سوق الصرف

تقع بجوار مسجد عمرو بن العاص ، وتمتعت بمركز تجارى مرموق بسبب نشاطها ، الذى أدى إلى رواج المعاملات المالية والتجارية بالأسواق التجارية بالفسطاط ، وكان الصيارفة بهذه السوق من أهل الذمة وخاصة اليهود ، وابتعد المسلمون عن هذه المعاملات خوفا من الوقوع فى براثن الربا الذى حرمه الإسلام ، الأمر الذى جعل اليهود ينفردون بمثل هذه العمليات مما زاد ثراءهم زيادة فاحشة ، وكان لهم وكلاء فى أسواق المدن الإسلامية الكبرى ، والثغور يتولون عمليات الصرافة نيابة عنهم [2] وكانت تقع بهذه السوق رحبة الصيارفة بالجانب الذى يجاور جامع عمرو بن العاص من هذه السوق ، وكان يشترط فى الصراف أن يكون عارفا بأحكام الشرع الإسلامى ليتجنب الوقوع فى المحظور ، كان الصيارفة يقومون بتبديل العملات الأجنبية بالمصرية أو العكس أو يفكون الدنانير بدراهم فى نظير فائدة تعود عليهم ، وكانوا يكشفون الزيوف والنقص فى وزن الدنانير بالموازين ، ويحررون السفاتج[3] وبين التجار عند عقد الصفقات التجارية ، وكان التجار

---

(١) ابن دقماق ، مصدر سابق ، حـ ٤ ، ص ٣٢ .
ممدوح الريطى ، مرجع سابق ، ص ٢٣ ، ٢٤ .
(٢) المقريزى ، الخطط ، حـ ٢ ، ص ٣٤٠ .
(٣) السفاتج : كانت وسيلة من وسائل المعاملات المالية فى أسواق الفسطاط ، لكنها كانت محدودة خلال القرنين الأول والثانى الهجريين ثم عم إستخدامها فى الدولة الإسلامية خلال القرنين الثالث والرابع ، وذلك نتيجة لنشاط التجارة وازدياد المعاملات المالية ، =

يأخذون رقاعا منهم بما لديهم من أموال ثم يشترون ما يلزمهم ويحولون ثمنه عليهم . وهو ما أكدته أوراق البردى العربية التى كشفت عن أسماء العديد من الصيارفة اليهود والنصارى بالفسطاط [(1)] .

* سوق الوراقين

إشتهرت بتخصصها فى تجارة الورق ، حيث يذكر ابن عبد الحكم أن العرب كانوا يختطون فى الفسطاط بجوار أصحاب القراطيس الدور والسكن ، وكان بالفسطاط مطابخ للورق أكبر من الحموى والبغدادى ، وكان غاليا فى الثمن [(2)] ويمدنا ابن زولاق بصورة صادقة عن نشاط سوق الوراقين بالفسطاط فى ذلك العهد ، وما كان يدور فيها من المناظرات والمساجلات العلمية والأدبية ، فضلا عن مزاولة الوراقين لعملهم فى نسخ المخطوطات وبيع الأقلام والورق وأدوات الكتابة اللازمة للمؤلفين والأدباء [(3)] ومن الوراقين بالفسطاط الشاعر ابن أبى الجوع وكان ينسخ

= وصعوبة حمل المبالغ الكبيرة من بلد إلى آخر ، لذلك لجأ التجار إلى استعمال السفاتج وهى رقاع يكتبها التجار أو الصيارفة أو المشتغلين بالأعمال المالية والتجارية بقيمة المبالغ التى يأخذونها ، وتكون قابلة للصرف فى أى بلد لأى من عملائهم ، وكانوا فى هذا يقومون بدور البنوك ، فكان التجار يأخذون رقاعاً منهم بما لديهم من الأموال ثم يشترون ما يلزمهم ويحولون ثمنه عليهم ، كما كان الولاة يرسلون مازاد من دخل ولاياتهم إلى مقر الخلافة فى بغداد بسفاتج ففى سنة ٢١٣هـ/ ٨٢٨م أرسل والى مصر سفاتج بمائة وسبع وأربعين ألف دينار . ابن مسكوية ، تجارب الأمم ، حـ ١ ، ص ١٤٦ حورية حسن ، مرجع سابق، ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

(١) جروعمان، أوراق البردى العربية ، حـ ٦ ، ص ١٨١ .

(٢) القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، حـ ٢ ، ص ٦٥ .

(٣) ابن زولاق ، فضائل مصر وأخبارها ، ص ٣٨ ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، تاريخ رقم ٣٥٩١ .

كل خمسين ورقة بدينار . وكان ذلك فى زمن العزيز بالله ، وابنه الحاكم بأمر الله .

* سوق الزياتين

كانت هذه السوق تختص ببيع مختلف أنواع الزيوت التى يحتاجها أهل المدينة ، وقد سبق وأن ذكرنا أنه عثر على وثيقة تصف بالتفصيل إحدى معاصر الزيوت بالمدينة .

* سوق الخلعيين

وهو من أسواق الفسطاط المتخصصة فى بيع الملابس المستعملة ، وهو يشبه سوق دار الأنماط القديمة بالمدينة ، وله كثير من الزبائن والرواد وربما تخصص فى عرض الخلع التى كان يهديها الخلفاء إلى الأهالى لإستمالة قلوبهم إلى الحكم الفاطمى [1].

* سوق الراجين

تقع بجوار سقيفة القطانين وله علاقة وثيقة بالقطانين الذين يعرضون صناعاتهم من الملابس القطنية بالسوق ، ولهذا السوق شهرته بالفسطاط فى تجارة الملابس ، حيث كان يوجد بالفسطاط مخازن كبيرة للقطن ، خلال القرن الثالث الهجرى ، والتى صنعت منها القمصان التى كانت تخلط بالكتان والصوف والحرير [2] كما صنعت عمائم من القطن والكتان

---

(١) ابن ميسر ، أخبار مصر ، ص ١٢ .
ممدوح الريطى ، مرجع سابق ، ص ٣٠ .
(٢) جروهمان ، أوراق البردى العربية ، حـ ٦ ، ص ١٤٠ ، ٢٨٠ .

بالفسطاط ويبدو من كلام المؤرخين والوثائق أن المنسوجات القطنية كانت قليلة بمصر ، وكانت تخلط بالحرير أو الكتان .

* سوق الخشابين

إزدهرت المصنوعات الخشبية بالفسطاط ، وإزدهرت بها أيضا تجارة الأخشاب اللازمة لبناء السفن وأدواتها ، كما كان بها حوانيت النجاريين الذين يصنعون الأدوات الخشبية لأهالى الفسطاط [1] وجلب الخشب إلى الفسطاط من بلاد الصعيد ، ففى بردية يرجع تاريخها إلى سنة ٣٨٤ هـ / ٩٩١ م يذكر أحد التجار إلى وكيلة مخاطبا بقوله له « وصل بقية الخشب الذى بالأقصر » [2] كما عرض بها بعض المصنوعات الخشبية اللازمة للمساجد مثل المنابر والشبابيك والأبواب التى صنعت من أخشاب الساج التى وردت من بلاد الهند .

ومن أطرف أسواق الفسطاط سوق نجارى المغارف والتى كان يصنع بها أدوات المطبخ الخشبية ومنها المغارف .

* سوق السماكين

تقع السوق داخل المدينة ما بين سويقة المغاربة ومربعة الفاكهنين ، ولها عدة مسالك تؤدى إليها ، ويباع فى هذه السوق الأسماك الطازجة والمملحة ، وكانت تصلها أسماك البحر المالح فى فصل الشتاء ، وتجهز فيها وترسل إلى القاهرة [3] .

---

(١) المقريزى ، الخطط ، حـ٢ ، ص ١٣٣ ، ١٣٥ .
(٢) جروهمان ، أوراق البردى العربية ، حـ٦ ص ٥٨ .
(٣) ممدوح الريطى ، مرجع سابق ، ص ٢٧ .

* سوق القصبة

يمتد هذا السوق من منطقة العسكر إلى جامع ابن طولون ، وسمى بسوق العسكر ، ثم اعتبر من جملة أسواق الفسطاط عندما إندمجت هذه الخطط مع خطط مدينة الفسطاط فى نهاية القرن الثالث الهجرى[1] واشتهرت هذه السوق بالباعة الجائلين الذين كانوا يتراصون فى صفوف منتظمة على جانبى الطريق ، وكانت هذه المسافة كبيرة إلى حد ما ، لدرجة أن الباعة من أصحاب الحمص المسلوق بلغ عددهم حوالى ثلثمائة وتسعين بائعا ، وأمام كل منهم قدراً مملوءاً بالحمص [2] ، أضف ذلك مجموعة الباعة للسلع الأخرى الذين يضعون معروضاتهم على قفصيات أو حوامل خشبية ، وأطلق عليهم أصحاب المقاعد [3] فضلاً عن الحوانيت التى تبيع مختلف السلع والأصناف بهذه السوق ،

---

(١) الكندى ، الولاة والقضاة ، ص ٢٧٢ .

(٢) المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٣١ .

(٣) إستقر وضع الباعة الجائلين أو أرباب المقاعد فى أسواق المدن الإسلامية طبقا للحق الذى قرره لهم فقهاء المسلمين ، وهو حق الإختصاص ، والذى هو عبارة عما يختص مستحقة الانتفاع به ، ولا يملك أحد مزاحمته فيه ، وهو غير قابل للشمول ، والمفاوضات ، وتدخل تحت ذلك صور متعددة منها : مرافق الأسواق المتسعة التى يجوز البيع والشراء فيها كالدكالين المباحة ونحوها ، فالسباق إليها حق بها . . » ويقول ابن تيمية فى الفتاوى « أنه يجوز الإرتفاق بما بين العامر من الشوارع ، والرحاب الواسعة ، بالعقود للبيع والشراء ، فإن سبق إليه أحق به ، لقوله صلى الله عليه وسلم « منى مناخ من سبق » وله أن يظلل بما لا يضر المارة » خالد عزب ، فقه العمارة الإسلامية ، ص ١٠٣ . دار النشر للجامعات المصرية ، ١٩٩٧ .

من جملة الأسواق العامة التى لا تختص ببيع سلعة واحدة ويتضح من ذكر هذه الرواية أن رواد السوق كانوا على درجة كبيرة حتى أنهم يستهلكون هذه الكميات من طعام غير أساسى ، ولكى نغادر الفسطاط فسوف نخرج منها من حيث دخلناها ، فقد دخلناها زائرين فى رحلة عبر الزمان والمكان من أبوابها والمؤرخون ذكروا أن بالفسطاط أبوابا شيدت مع تشييد سور صلاح الدين الذى يحصنها ويحميها ضد أعدائها ، وهذه الأبواب هى :

*** باب مصر**

هذا الباب بناه بهاء الدين قراقوش من دخل مصر الفسطاط إلى مدينة مصر ، من الطريق التى تعرف بالمراغة بالقرب من السيدة زينب بجوار كوم المشانيق ، وباب مصر كان بخط الحمراء القصوى ، وكان به برجان يمنة ويسره بعتبه سفلى صواناً وقوس معقود عليه ، ودفتين يغلقان عليه ، وكان يسلك منه إلى أربعة طرق . وهى الطريق إلى القاهرة ، وعلى يمنته إلى الفواخير وعلى يسرته إلى البحر وإلى داخل المدينة [1].

وهدم هذا الباب فى العصر المملوكى ، ولم يبقى له أثره .

*** باب الصفا**

كان هذا الباب الباب الرئيسى الذى يؤدى إلى مدينة مصر الفسطاط وهى فى كمالها ، ومنه تخرج القوافل والعساكر ، وموضعه بالقرب من

---

(١) ابن دقماق ، جـ ٤ ، ص ٢٧ .
المقريزى ، الخطط ، جـ ٤ ، ص ٢٧ .

كوم الجارح ، وكان بابا كبيراً ببرجين متقابلين يعلوهما عقد كبير ، وهو بعتبة كبيرة سفل صوانا ، وكان بجواره ساباط يعلوه مسجد معلق . هدم باب الصفا فى عهد الظاهر بيبرس (٦٥٨ هـ/ ٦٧٦ هـ ـ ١٢٦٠ / ١٢٢٧م) على يد سيف الدين بن سدار وإلى الفسطاط ، وهذا الهدم يعكس إنتهاء الخطر الحربى الذى من أجله شيد سور الفسطاط وسمى هذا الباب بهذا الاسم لوقوعه على رأس درب الصفا ، ودرب الصفا هو امتداد الشارع الأعظم ، وهو الطريق الذى يربط بين القاهرة والفسطاط ، والذى يبدأ من باب زويلة فى الشمال ويمتد فى الجنوب الغربى حتى مشهد السيدة نفيسة [١] .

* باب الساحل :

هو يقرب الكبارة وهو تل كبير كان يقع شرق مذبح السيدة زينب ، وكان يقال له كوم الكبارة وكوم المشانيق وعرف بالمشانيق لأنه كان قبل أن يعمر يشنق عليه أرباب الجرائم ، وكان هذا الباب يفضى بسالكه إلى ساحل النيل القديم ، وكان يقع شرق باب مصر فيما بين سوق المعاريج ودار التفاح . ولما بنى الجامع الجديد الناصرى جعل الحد الشرقى له فى محل السور الذى كان فيه هذا الباب [٢] .

---

(١) ابن دقماق ، مرجع سابق ، حـ ٤ ، ص ٢٨ .
المقريزى ، الخطط ، حـ ١ ، ص ٣٤٧ .
(٢) يوسف أحمد ، الفسطاط ، ص ٥٦ .

* باب القنطرة

هذا الباب فى قبلى أى جنوب مدينة مصر عرف بقنطرة بنى وائل التى كانت هناك ، وهو من بناء بهاء الدين قراقوش ، وكان من يخرج منه يجد على يساره بركة شطا [1].

(١) يوسف أحمد ، الفسطاط ، ص ٥٦ ، ٥٧ .



الفصل السادس

الآثار الباقية بالفسطاط

الآثار الباقية بالفسطاط

* جامع عمرو بن العاص.

هو أول مسجد جامع أقيم في مصر ، لذا يسمى بالجامع العتيق ، وتاج الجوامع ، أنشأه بالفسطاط الصحابى الجليل عمرو بن العاص عام ٢١ هـ / ٦٤١م. وبإنشاء هذا الجامع تكاملت الوظائف الحضارية لمدينة الفسطاط والتى يمثل فيها المسجد الجامع مركز الإشعاع ، حيث حددت تعاليم الإسلام ضرورة وجود مسجد جامع لأهل المدينة يخطب فيه إمام المسلمين ، تغلق المساجد الأخرى يوم الجمعة حيث تقام الصلاة الجامعة لأهل المدينة . وهذا المسجد بطبيعة الحال يمثل رمزاً سياسيا إذ يعكس وحدة المسلمين تحت راية إمام المدينة ، ووحدتهم الدينية وتضامنهم ، وشارك فى تشييد هذا المسجد جمع من صحابة رسول الله ﷺ ، منهم الزبير بن العوام ، والمقداد وعبادة بن الصامت . كان المسجد بسيطا فى عمارته كمساجد الإسلام الأولى تأسيا بمسجد المدينة المنورة ، ومساحته آنذاك ٥٠ ذراعا × ٣٠ ذراعا ، وله ستة أبواب بابان فى كل ضلع من أضلاعه ما عدا حائط القبلة .

وعبر عصور التاريخ الإسلامى إلى اليوم أجريت توسعات بالمسجد وتجديدات ، ومن العبث فصل هذه الإضافات أو التجديدات عن عمران

الفسطاط، إذ تمثل كل توسعة مرحلة من مراحل التطور العمرانى للمدينة، فكثافة عدد السكان تتطلب توسعة المسجد، وكل تجديد أو زخرفة تتم بالمسجد تنم عن إزدهارها أو أهميتها خاصة فى عصور إنحسار الوظيفة السياسية عن المدينة.

* الزيادة الأولى

أول زيادة فى المسجد حصلت فى عام ٥٣ للهجرة على يد مسلمه بن مخلد الانصارى والى مصر من قبل معاوية بن أبى سفيان، وكانت بعد تأسيس المسجد باثنين وثلاثين عامًا. نقل الكندى «أن المسلمين شكوا إلى مسلمة ضيق المسجد بهم، فأبلغ شكواهم إلى الخليفة معاوية، فأمر بتوسيع المسجد». ومع مسجد عمرو من الناحية الشرقية حيث كانت دار عمرو، ومن الجهة البحرية دون الجهتين الغربية والقبلية، وأنشئت به رحبة فى الجهة البحرية، وزينت الحيطان والسقف بأنواع الزخرفة، وأضيف إلى المسجد أربعة مآذن فى أركانه الأربعة يصعد إليها من الخارج، كما غطى المسجد بالحصر، وقبل ذلك كان مغطى بالحصباء.

* الزيادة الثانية

فى ولاية عبد العزيز بن مروان لمصر، هدم المسجد عام ٧٩هـ/ ٦٩٨م لتجديدة وتوسيعه من الجهة الغربية، وأنشأ فيه رحبة، وبعد عشرة أعوام، أى فى عام ٨٩ هـ/ ٧٠٧م، تم تعلية سقف المسجد.

* الزيادة الثالثة

فى عام ٩٣ هـ/ ٧١٠ م، هدم قرة بن شريك المسجد، وأدخل فيه دار

عمرو ودار ابنه عبد الله وجزءاً من الطريق ، وأنشأ به محرابًا مجوفًا ، على غرار محراب عمر بن عبد العزيز بالمسجد النبوى ، وسمى محراب عمرو وطلى قرة أعمدة المسجد بالذهب ، كما نصب بالمسجد منبرا خشبيا .

* الزيادة الرابعة

فى عام ١٣٣هـ/ ٧٥٠ـ٧٥١م ، وسع الوالى العباسى صالح بن على فى المسجد من الجهة البحرية ، وأدخل فيه دار الزبير بن العوام ، وبهذا أزال النتوء الذى نتج عن ادخال دارى عمرو وابنه عبد الله فى المسجد . وأنشأ لذلك بابا خامسًا فى الجهة الشرقية ـ سمى فيما بعد باب الكحل لمقابلته لزقاق الكحل .

وأضاف أربع دعامات خلف المسجد بجانب الباب الأول .

وفى عام ١٧٥هـ / ٧٩١م زاد فى المسجد موسى بن عيسى الهاشمى ، الوالى على مصر من قبل هارون الرشيد ، من الناحية البحرية ، فأدخل فيه نصف رحبة أبى أيوب . ولما انتقص الطريق ، بسبب إمتداد المسجد ، وسع موسى بن عيسى الهاشمى الطريق بجزء من دار الربيع بن سليمان .

* الزيادة الخامسة

فى عام ٢١٢ هـ/ ٨٢٧م ولى مصر عبد الله بن طاهر ، من قبل الخليفة المأمون . وفى جمادى الآخرة من العام ذاته ، أمر بتوسيع المسجد ، فأضيف إلى مساحته من الجهة الغربية مثلها ، فاستوعبت هذه التوسعة النصف الغربى من رحبة أبى أيوب ، وفى شهر رجب عاد ابن طاهر إلى

بغداد ، وعهد إلى عيسى بن يزيد الجلودى اتمام الزيادة . وكانت مساحة الجامع فى ذلك العهد ١٦٠ ×١٥٠ ذراعا ، ومساحة مسجد عمرو لم تتغير منذ ذلك الحين .

وفى عام ٢٧٥هـ/ ٨٨٨م وفى يوم جمعة اشتعلت نيران شديدة فى المسجد ، وبدأ اشتعالها فى أحد الأبواب ، وامتد اللهب إلى رحبة الحارث ، ونشأ عن هذا الحريق تلف معظم الإضافات التى أنشأها ابن طاهر ، فأمر خمارويه بن أحمد بن طولون بتجديد بناء هذا الجزء من المسجد مع ، هذا التجديد روعى أن يتم طبقا للأصل ، وتعاقبت منذ ذلك الحين التجديدات على المسجد . إلى أن تأثر المسجد عام ٥٦٤هـ/ ١١٦٨ ـ ١١٦٩م . بحريق الفسطاط الشهير ، مما جعل صلاح الدين الأيوبى يجدد المسجد بأكمله ، فجدد واجهة القبلة كلها هى والمحراب الكبير ، ورخمه ونقش عليه اسمه ، . . إلخ . وقد رأى الرحالة البلوى الذى زار مصر فى القرن ٨ هـ/ ١٤م ، النص الكتابى الذى يثبت تجديد صلاح الدين للمسجد على محرابه وقرأه كما يلى :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر . النصر والفتح المبين لسيدنا ومولانا الإمام المستضىء بنور الله . أبى محمد الحسن أمير المؤمنين . أمر بتجديده الملك الزاهر الناصر المجاهد ، صلاح الدنيا والدين ، أبو المظفر يوسف ، وفقه الله تعالى لطاعته﴾ .

وتوالت الإصلاحات فى العصرين المملوكى البحرى والجركسى وأهمل المسجد فترات طويلة إلى أن هدمه مراد بك عام ١٢١٢هـ/

١٧٩٨م وذلك لسقوط سقفه وأعمدته ، وميل إيوانه الغربى وسقوط بعضه ، ثم أقام الأعمدة من جديد ، وبنى مئذنتين ، وجدد والأسقف ، وعلق قناديل الزيت . وجدد محمد على مسجد عمرو بن العاص أيضا ، ولقى المسجد رعاية خاصة من لجنة حفظ للآثار العربية . وقدم ابن دقماق نقلاً عن ابن المتوج وصفا مسهبا للمسجد فى عصرة ، والاصلاحات التى تمت به عبر العصور .

يقع المسجد حاليا بالقرب من الآثار الباقية لمدينة الفسطاط القديمة ، وهو يتكون من صحن واسع مكشوف تحيط به أربع ظلل ، ويتوسط الصحن قبة مقامة على ثمانية أعمدة رخامية مستديرة . وتتكون ظلة القبلة من إحدى وعشرين بائكة على جدار القبلة . وتتكون كل بائكة من ستة عقود مدببة ، مرتكزه على أعمدة رخامية مستديرة وبصدر ظلة القبلة محراب مجوف مزخرف ، ومحراب آخر غير مزخرف ، وعن يمين هذا المحراب منبر من الخشب ، وبجدار القبلة لوحتان من عصر مراد بك إحداهما مؤرخة (١٢١٢ هـ/ ١٧٩٢م) كما تقع دكة المبلغ الخشبية بين البائكتين التاسعة والعاشرة ولها سلم . وأقيم أمام ظلة القبلة بائكة جديدة من إثنى عشر عقدا ترتكز على ثلاثة عشر عموداً وهى موازية لحائط القبلة . وتتكون كل من الظلتين الشمالية الشرقية . والجنوبية الغربية من تسع بائكات تحصر بينها سبعة أروقة موازية لجدار القبلة ، ما عدا البائكات التى أمام الأبواب الثلاثة عقودها عمودية على جدار القبلة . وترتكز كل العقود من ناحية الصحن على عمودين ، كما تشرف واجهات ظلات القبلة والمقابلة لها على الصحن من خلال بائكة من إثنى عشر عقدا ،

وواجهات ظلات الجانبين من خلال بائكة من ثمانية عقود وتوجد فى كوشات العقود صرر مزخرفة . وبقى من مآذن المسجد اثنتان جددتا فى العصر العثمانى ، وترجحان على الأرجح إلى عصر مراد بك ، إحداهما فوق المدخل الأيمن فى الواجهة ، والثانية فوق الزاوية القديمة عند الطرف الأيمن من جدار القبلة . وكلتاهما ذات قمة مدببة على الطراز العثمانى .

* جامعة عمرو بن العاص

كان جامع عمرو كالجوامع الأولى فى ديار الإسلام مقراً للعلم والعلماء ، فتلقى به الطلاب علوم الفقه والتفسير الحديث ، والعلوم اللغوية من نحو وبلاغة وأدب وتاريخ إسلامى والرياضيات والفلك .

وكان بالمسجد زوايا لتدريس العلم ، وقف الخيرون عليها أموالاً كثيرة ، فكثرت المناظرات العلمية ، ومطارحة الشعر ، وظهر التنافس بين العلماء والتلاميذ ، وخاصة بين المذاهب الفقهية .

وسجل المقريزى بعض حالة المسجد العلمية فقال :

«كانت هناك زاوية الشافعى يدرس بها الإمام رضى الله عنه فعرفت به ، وتولى التدريس بها أعيان الفقهاء وجلة العلماء» « والزاوية المجدية - بصدر المسجد بين المحرب الكبير ومحراب الخمس ، داخل المقصورة الوسطى - رتبها الوزير مجد الدين بن أبى الأشبال» .

« والزاوية الصاحبية ، حول « عرفة » رتبها الصاحب تاج الدين محمد ابن فخر الدين محمد بن بهاء الدين ، وجعل لها مدرسين : أحدهما مالكى ، والآخر شافعى» .

« والزاوية الكمالية - بالمقصورة المجاورة لباب الجامع الذى يدخل إليه من سوق الغزل - رتبها كمال الدين السمنودى» . « والزاوية التاجية - أمام المحراب الخشب - رتبها تاج الدين السطحى» .

« والزاوية الزينية : رتبها زين الدين للقراءة . . »[1].

وهذه الزوايا كانت أماكن داخل الجامع خصصت للعلم وأهله . وكانت تقوم مقام المدارس التى انفصلت وظيفتها عن مسجد عمرو ابتداءاً من العصر الأيوبى بالفسطاط والقاهرة .

وتبقى بالفسطاط أيضا عدد من المساجد والمدارس الأثرية منها على سبيل المثال :

*** مسجد ساعى البحر**

وهو يقع بشارع ساعى البحر ، وهو عبارة عن مسجد صغير يتكون من مستطيل به أربعة صفوف من الأعمدة الرخامية القديمة يعلوها سقف مسطح ، وفى الجانب الشرقى منه توجد القبلة وفى الركن الجنوبى منه يوجد ضريح الشيخ محمد ساعى البحر وأخيه جعفر .

والمدخل الرئيسى للمسجد يقع فى الواجهة الجنوبية التى يعلوها مئذنة

---

(١) عن جامع عمروبن العاص إنظر :

إبراهيم الجمل ، مساجد ومعاهد ، كتاب الشعب ٧٥ ، من ص ٧ : ص ٢٣ . القاهرة ، ١٩٦٠م .

حسن عبد الوهاب تاريخ المساجد الأثرية ، من ص ٢٣ : ص ٣١ . القاهرة ، ١٩٥٠م .

د . فريد شافعى العمارة العربية فى مصر الإسلامية ، من ص ٣٦٣ : ص ٣٨٤ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤م ابن دقماق ، الإنتصار لواسطة عقد الأمصار . ص ٥٩ : ص ٧٤ .

المسجد . ويبدو من طراز المئذنة التى تشبه المسلة أن الجامع قد جدد وأعيد بناؤه فى العصر العثمانى . وكانت الدكتورة سعاد ماهر قد رجحت أن المسجد شيد فى العصر الأيوبى [(١)].

ويصف على باشا مبارك المسجد فيقول « هو بمصر العتيقة على وجهه مكتب وله منارة قصيرة وبوسطة ضريح لشيخ يقال له محمد ساعى البحر. وللجامع أوقاف بجواره إيرادها الشهرى ثلثمائة قرش ، وشعائره مقامة منها ينظر الشيخ محمد أبى عوض ويعمل به حضره كل ليلة ثلاثاء ومولد كل سنة فى شهر شعبان[(٢)].

* مسجد عابدى بك

يذكر على باشا مبارك أن هذا الجامع مبنى بالحجر وعلى بابه الكبير لوح رخامى منقوش فيه « أنشاء هذا المسجد من فضل الله تعالى وعونه العبد الفقير المقر بالعجز . والتقصير عابدى بك أمير اللواء السلطانى ابن المرحوم أمير باكير غفر الله له سنة إحدى وسبعين بعد الألف » وله أربعة أعمدة من الحجر وسقفه معقود بالحجر على عدة قباب وقبلته بالقاشانى الملون وله منارة قصيرة وله باب آخر من خوخة أبى سعيد وهو مقام الشعائر وكان تحت نظر السيد عبد الخالق السادات ، وهو الآن تحت نظر ديوان الأوقاف [(٣)].

---

(١) د . سعاد ماهر محمد ، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، ص ٦٦ طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٧٧ م.
(٢) على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية ، حـ ٥ ، ص ١٤ .
طبعة المطبعة الأميرية .
(٣) على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية ، حـ ٥ ، ص ٤٦ .

* جامع المرحومى

يذكر على باشا مبارك عن هذا المسجد أنه من إنشاء الشيخ المرحومى وهو مقام الشعائر ، ولا يوجد به زخارف ولا كتابة (1) .

* مدرسة وجامع السويدى

شيدت هذه المنشأة فى عام ٨٣٤ هـ / ١٤٣٠ م على يد بدر الدين حسن بن سويد ، وكان قد وقفها كمسجد ، وجعل فيها مدرساً وطلبة ، ومات قبل ان يكملها وأوصى لها بأربعة آلاف دينار لإكمالها ولكن ابنه وجيه الدين عبد الرحمن عمدإلى الدرس فأبطله محتجاً بأن والده أسند إليه النظر وإقتضى رأيه أن يجعل بدله خطبة يكون الخطيب بدل المدرس والمؤذنون بدل الطلبة وتوصل حول المكان إلى مسجد للصلاة وعمل للمؤذنين دكة ووضع المنبر بجانب المحراب . وللمسجد مدخل ذو عقد شاهق الارتفاع تحليه المقرنصات وألحق به سبيل وكتاب (2) .

* جامع ومدفن سليمان باشا الفرنساوى

ولد سليمان باشا بفرنسا عام ١٨٠٤ وقدم الى مصر ضمن ضباط حملة نابليون بونابرت ، ثم عمل مع محمد باشا وأسلم حيث عهد إليه تأسيس الجيش المصرى الحديث ، وإشترك مع الجيش المصرى فى حروب اليونان وسوريا ، وعينه سعيد باشا رئيسا لأركان حرب الجيش المصرى

---

(١) المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١١٢ .

(٢) د . عبد الرحمن زكى ، موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام ، ص ٣١٦ .
مكتبة الأنجلو ، الطبعة الثامنة . ١٩٨٧ .

«رئيس الجهادية » وعهد إليه بإنشاء المدرسة الحربية بالحوض المرصود سنة ١٢٧٢ هـ / ١٨٥٥ م ، وأحيل إلى التقاعد بناء على طلبه فى ٢٢ شوال ١٢٧٢ هـ / ٢٦ يونيو ١٨٥٦ م لبلوغه الرابعة والسبعين وعدم مقدرته على الخدمة العسكرية ، وأمر سعيد باشا بعد وفاته بتخصيص معاش رتبة الفريق لزوجته وابنته فى ٣١ أكتوبر ١٨٦٠ م ، أنشأ سليمان باشا مجموعة معمارية بمصر القديمة ، عبارة عن جامع وكتاب ومدفن ، ويبدو أنه كان له منشآت أخرى فيما بين هذه المجموعة ، يطل الجامع بواجهة شمالية غربية على شارع الكورنيش بمصر القديمة ، وله سور من الحديد يدخل منه إلى حديقة ، على يسار الداخل توجد المأذنة ملاصقة للركن الشمالى من الجامع ، وهى على الطراز العثمانى ، مكونة من قاعدة مربعة ثم بدت متعدد الأضلاع يكتنفه دورة واحدة يعلوها نهاية المأذنة ذات الشكل المخروطى ، يتوسط الجدار الشمالى الشرقى للجامع بوابته التى يتوجها عقد مدائنى ، والجامع عبارة عن مساحة غير منتظمة مقسمة إلى ثلاثة أروقة عن طريق أربعة أعمدة معدنية .

يقع المدفن إلى الشرق من الجامع بشارع الفرنساوى ، وقد قام بتصميم قبته المهندس الألمانى كارل فون دييبيتش ويبدو أن بناء هذه القبة كان بعد موت سليمان باشا لأن دييبيتش حضر إلى مصر سنة ١٨٦٢ م .

وعلى قبره شاهدان ـ أمامى وخلفى ـ كتب عليها نفس النص ، وهو :

بعد أن ساد منصبا منذ شاعا

فى سبيل الإسلام يا آل جهاد

بجهاد قـد زاد مصـر انتعاشـا

فلـذا قالـت العنايـة أرخـت

فى جل رحمتى سليمان باشا

سنة ١٢٧٦ هـ[1].

* منازل الفسطاط

كانت منازل الفساط عند نشأة المدينة ذات معمار بسيط ، وتتوازى فى بساطتها مع بساطة المسجد الجامع بالمدينة ، واستطاع الدكتور فريد شافعى أن يكون لنا من خلال المصادر التاريخية صورة لما كانت عليه دار عبدالله بن عمرو بن العاص ، ومن الملفت للنظر أن منازل الفسطاط كانت هى المحك الأول لنشأة فقه العمارة فى مصر ، وتأتى هذه الملاحظة من خلال شبكة الشوارع فى المدينة التى تتدرج بين شوارع رئيسية وأخرى فرعية وثالثة خاصة ، وهذه الشوارع لكل منها حكمها الفقهى الذى نشاء عن الاحتكاكات المتتالية لسكان المدينة عند بنائهم مساكنهم .

أختطت القبائل خططها بالفسطاط ، وهذه الخطط كانت فراغات من الأراضى أخذت كل فبيلة تبنى بها إلى أن تكاملت شوارع المدينة فى العصر الأموى ، لتشكل لنا مستويات متعددة من الشوارع والأحكام الفقهية ، فكان كل شخص يبنى بيتا ، طبقا لحاجته وقد يزيد فى مساحته

---

(١) د . محمد حسام الدين إسماعيل ، مدينة القاهرة من ولاية محمد على إلى إسماعيل ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ . دار الآفاق العربية ، ١٩٩٧ م .

طالما توافرت أراضى مجاورة وهذا ما يفسر لنا عدم انتظام مساحات الدور المكتشفة فى الفسطاط والأجزاء المضافة لها ، وإذا بنى شخص فى خطة دارا فعلى التالى أن يراعى مجموعة من الحقوق وعلى رأسها حق الجوار ، ويجوز الأسبق هذه الحقوق نتيجة لما يعرف بحيازة الضرر[1] .

وكان من أوائل المبادىء الفقهية التى تم إقرارها فى الفسطاط مبدأ ضرر الكشف والذى نتج عن حادثة شهيرة رويت كما يلى :

« كان خارجه بن حذافه أول من ابتنى غرفة بالفسطاط ، فكتب عمرو بن العاص بذلك إلى عمر بن الخطاب ، فكتب عمر الى عمرو أن أدخل غرفة خارجة وانصب فيها سريراً أى مقعداً وأقم عليه رجلاً ليس بالطويل ولا بالقصير فان اطلع من كواها فاهدمها ، ففعل ذلك عمرو فلم يبلغ الكوى فأقرها »[2] .

وتعنى هذه الحادثة أن من يبنى غرفة تعلو منزله عليه أن يراعى حرمه جاره فلا يطلع عليه ، وهو ما ترتب عليه باب مستقل فى فقه العمارة هو ضرر الكشف[3] .

ومن متابعتى لما تبقى من منازل الفسطاط سواء التى اكتشفت على يد على بهجت أو حسن الهوارى أو كوبياك أو جورج سكانلون ، إتضح لى

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول قواعد فقه العمارة أنظر ، خالد عزب ، فقه العمارة الإسلامية ، دار النشر للجامعات ، القاهرة ١٩٩٧ م .

(٢) د . فريد شافعى ، مرجع سابق ، ص ٤٣٣ .

(٣) انظر حول ضرر الكشف ، خالد عزب ، فقه العمارة الإسلامية ، ص : ٤٨ ، ٤٩ .

أن مبدأ تنكيب الأبواب عرفته منازل الفسطاط [1]. إذ لم يتم إلى الآن الكشف عن بابى منزلين متقابلين .

والظاهرة الأخرى التى وجدت بمنازل الفسطاط هى ، المداخل المنكسرة ، والتى تقوم بوظفتين الأولى منع السائر فى الشارع من الاطلاع على ما بداخل المنزل ، والثانية حجز ضوضاء الشارع عن داخل المنزل ، وهى بذلك توفر نوعا من الخصوصية للمنزل ، ويتضح هذا النوع من المداخل بالمنزل الثانى من حفريات على بهجت وهو يرجع إلى العصر الطولونى حيث نرى به استعمال المدخل المنكسر الذى يبدأ بالباب الذى يفتح على الطريق العام مباشرة ثم ينعطف الداخل الى اليمين فى زاوية قائمة ويسير فى ممر قصير ، وينعطف عند نهايته مرة أخرى ليخرج من باب إلى يساره فى زاوية قائمة ثالثة ليخرج إلى الفناء الأول الصغير . ولهذا المثال أهمية قصوى إذ أنه يعد حتى الآن أقدم مثل قائم من نوعه ثابت التاريخ لا فى مصر وحسب بل فى العالم الإسلامى بأسره ، ولم يعرف قبل ذلك المدخل المنكسر إلا فيما ورد فى كتاب الخطيب البغدادى المؤرخ المسلم عند وصفه مدينة بغداد التى بناها أبو جعفر المنصور قبل عصر ابن طولون بنحوقرن واستمر استعمال هذا التخطيط للمداخل

---

(١) يعنى بالتكنيب عدم مواجهة أبواب المنازل بعضها البعض حتى لا يكشف الخارج والداخل اليها . وقد نظمت أحكام الفقه الإسلامى عملية التنكيب وفى أى المواضع تتم من شوارع المدينة . وهى لازمة بصفة خاصة فى الشوارع الضيقة كما هو الحال فى الفسطاط .
عبد الرحمن الأطرم ، الإعلان بأحكام البنيان ، ص ١٧٩ . رسالة ماجستير ، بمعهد القضاء العالى ، جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض ١٤٠٣ هـ .

المنكسرة للبيوت فى الفسطاط كما يتضح من الأمثلة التى كشفت عنها حفريات على بهجت [1] .

ومن حيث المميزات العامة أيضا فإن منازل الفسطاط تتفق كلها فى وجود الفناء المكشوف الذى يتوسط كلا منها ثم تلتف به الوحدات السكنية التى يتكون منها البيت الواحد ، ويتراوح شكل الفناء بين المربع الصريح أو القريب من المربع وهو الشكل الأكثر إنتشاراً ، وبين المستطيل الذى يوازى ضلعه الطويل محور الجناح الرئيسى أو مستطيل مستعرض يوازى محوره اتجاه السقيفة المستعرضة التى تتقدم الجناح الرئيسى .

أما توزيع العناصر الرئيسية حول الفناء فقد خضع لنموذج ساد فى تخطيط أربعة عشر بيتا من البيوت المكتشفة بالمدينة ، وهو الذى وضع فى جانب واحد من الفناء الأوسط منه الجناح التقليدى المكون من السقيفة والإيوان والحجرتين على جانبيه ، أما الأضلاع الأخرى للفناء فقد وضع فى ضلع واحد أو أكثر أيوان عميق بغير سقيفه تتقدمه ، وأحيانا يستبدل الإيوان بدخلة ضحلة كأنها رمز للإيوان ، إلى غير ذلك من أنواع التصرف التى تمليها المساحة المتاحة أمام المعمار . وقد يخالف المعمار هذا النمط الشائع ففى بعض الحالات استبدل أحد الايوانين الجانبيين بسقيفة واحدة أحيانا ، أو استبدل الايوانات الجانبيان بسقيفتين . . . . الخ .

وعنى على بهجت بإثبات الفواصل بين جدران أجزاء البيوت المتلاصقة ، كما لاحظ دكتور فريد شافعى أن بعض دور الفسطاط مركبة

---

(١) على بهجت وألبير جابريل ، حفائر الفسطاط ، الأشكال ٥ ، ٧ ، ١١ ، ١٤ القاهرة ، ١٩٢٨م.

من أكثر من بيت ، وقد يعود هذا إلى شراء الجار منزل جاره طبقا لحق الشفعه ، وهو مبدأ فقهى يقضى بأن الجار له الحق فى شراء دار جاره عند عرضها للبيع ، أو الميراث أو غير ذلك .

وأكتشف بجدران هذه المنازل أنابيب فخارية رأسية فى الجدران ، وهى التى تفذى الطوابق المختلفة بالمياه فضلاً عن تغذيه الشاذ روانات والنوفورات بهذه المنازل ، والتى اكتشف بعضها . وكانت المياه ترفع الى الأدوار العليا ببكرات أو أسطال من الطابق الأول حيث تخزن فى صهاريج عليا لتتدفق بعد ذلك إلى الأدوار السفلى ، أما دورات المياه فى البيوت فمن الملاحظ أنه كان يخصص للمراحيض أماكن معتكفة يوصل اليها فى أغلب الأحيان ممرات منكسرة بزوايا قائمة ، وهذا الشكل المعمارى ظل ثابتا فى عمائر مصر طوال العصر الإسلامى ولم يطرأ عليه أى تطوير ذو شأن .

وكان التخلص من فضلات المراحيض يتم عبر قنوات فى الحائط تؤدى الى مجارير خارج المنازل . وقد لو خط فى الفسطاط قرب مجارير الصرف الصحى من آبار المياه وهو ما يعنى تسرب أحدهما إلى الآخر ، وهو ما يعنى انتشار الأوبئة والأمراض وهو أمر تكرر حدوثه فى الفسطاط مرات عديدة ، ويمكن التأكد من ذلك من خلال ما ذكره المقريزى فى كشف الغمة .

وزودت بعض الدور التى كانت تخص الأثرياء باصطبلات وحواصل أو مخازن ، لحفظ المؤن الخاصة ، ثم على حجرات لمن يقوم على خدمتها . ومن المرجح وجود مثال لذلك فى الدار الأولى ، ويتوصل الى

قسم الخدمات هذا من ممر داخلى من الإيوان الشرقى من البيت « د » كما يتوصل اليه من باب يفتح على الزقاق الخارجى مباشرة .

ويوجد فى شمال هذا البناء ثلاثة دكاكين تتقدمها سقيفة على الطريق العام [1] ومن المرجح ان هذه الدكاكين كانت تؤجر لتجار أو يستخدمها صاحب المنزل لتجارته ، ومثل هذا النوع من المنازل التى يوجد أسفلها محال تجارية شاع فى مدينة رشيد .

ومن العناصر الهامة التى عثر عليها فى منازل الفسطاط النافورات أو الفساقى ، وهى تبنى عادة من الطوب فى الفناء ، وتتعدد أشكالها الا أنها بصفة عامة تكون مربعة الشكل وقاعها منشورى الشكل ، مثمن الزوايا ، ويضاف اليها فى بعض الأحيان تجاويف أسطوانية وبروزات . ويتم توصيل المياه اليها بواسطة قنوات من الفخار تمتد إلى الوسط أو إلى أحد الجوانب ، وعثر فى أحدها على ميازيب من النحاس فى الزوايا الأربعة ، وكانت هذه النوافير أو الفساقى تكسى بملاط مكون من الجير والقصر مل أو الحمرة . ووجد فى بعض الفساقى ، وكذلك فى جوانب جوفها المثمن ، قواديس ربما كانت متخذة كبيوت للأسماك الصغيرة .

وثار جدل حول تعدد طوابق منازل الفسطاط ، فى ضوء ما ذكره المؤرخون وما اكتشف بالمدينة ، وكان المجلس الأعلى للآثار قد وقع فى أخطاء فادحة بالفسطاط منذ الخمسينات حتى اليوم ، حيث أهمل نشر

---

(١) عباس حلمى ، تطور المسكن المصرى الإسلامى من الفتح العربى الى الفتح العثمانى ، ص ٥٠ : ٥٢ . رسالة دكتوراه ، جامعة القاهرة ١٩٦٨ .

(٢) على بهجت ، حفريات الفسطاط ، ص ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ .

نتائج حفائر البعثات المصرية بالفسطاط ، فضلا عن تآكل منطقة الفسطاط الأثرية ، وما قامت به البعثات المصرية تفوق نتائجة فى أهميتها ما قامت به البعثات الأجنبية خاصة الفرنسية والأمريكية ، سلسلة طويلة من الأخصائيين فى الحفر الأثرى بدأت بعلى بهجت وحسن الهوارى وعبد الرحمن عبد التواب شيخ الأثريين المصريين ومصطفى شيحة وعادل عبد الستار وغيرهم . الذين بذلوا جهوداً لما يتم الكشف عنها ، وهو ما يتحمل مسئوليته الجهة التى مولت هذه الإكتشافات ، على الرغم من أن نشر هذه الدراسات كان سيدعم كثيرا الصورة المعمارية لمدينة الفسطاط ، فعلى سبيل المثال كان من المعتقد أن المنزل الذى اكتشفه الدكتور جمال محرز هو النموذج الوحيد الذى يدلل على تعدد طوابق منازل الفسطاط ، ولكن جاءت إحدى دراسات ليلى إبراهيم ، لتكشف لنا عن اكتشاف منزلين بالفسطاط أحدهما كان مقر لشخصية هامة ، إذ كان الطابق الأرضى يتكون من ممرات ، مسقوفة بأقبية وبه قاعات وجد خلفها درجات للسلم ، ورجحت إرتفاع المنزلين لثلاثة طوابق . وكان اكتشاف المنزلين تم فى عام ١٩٣٢ م .[1] وجاء اكتشاف الدكتور جمال محرز فى عام ١٩٦٤ م لمنزل به دلائل معمارية تدل على تعدد طوابقه ، والمنزل مشيد من الحجر والطوب ، حسن البناء ، لا يزال يحتفظ ببعض قاعاته وحجراته ومرافقه الصحية . والدور الأول مشيد من الحجر غير المنتظم وبعض الطوب ، وواضح أنه لم يكن للسكن ، مما يؤيد قول البعض من

---

(1) Laila Ali ibrhim, Residen Tial Archıt Cture in ma MLuk Cairo, P 55 .
Muvarnas V 2, yale university press, New haven and London 1984 .

أن بعض الأدوار الأرضية بالفسطاط لم تكن للسكنى ، وهذا أمر وجدناه أيضا فى بعض منازل رشيد الأثرية كمنزلى درع والمناديلى اللذين سقف الدور الأرضى منهما بأقبية متقاطعة ، والطابق الأرضى بمنزل محرز عبارة عن ممرات ضيقة تغطيها أقبية أسطوانية الشكل ، وثمة مساحات صغيرة السعة عند التقاء هذه الممرات مغطاة بقبوات منخفضة ، تقوم على ما يشبه الجوفة المثلثة . ولاحظ محرز أن هذه الممرات لا تغطى الدور الأرضى بأكمله ، بل جزءاً منه فقط ، وهو الشمالى ، أما الطابق الأول فيه فناء مستطيل الشكل ، لا تزال توجد به بقايا الفسقية التى كانت تحتل منتصفه وتمثل الجزء الشمالى منها فقط ، أما النصف الآخر فقد تهدم ، ويحيط بها حوضان بهما بعض الطمى ، إذ كانا يزرعان بالأزهار والرياحين .

ويتصل بهذه الفسقية من الجانب الشمالى أيضا سلسبيل بواسطة قنوات من الفخار كانت تمد الماء من السلسبيل إلى الفسقية ، وكانت تغذى هذه الفسقية بالماء أيضا عن طريق قنوات خمس ، تمر فى إحدى الممرات وتصل الى أحد أكناف المبنى حيث تصعد فيه إلى أعلى ، وهذه القنوات من الفخار .

ووجد فى هذا الجزء بقايا السلم الصاعد إلى أعلى ظاهرة ، حيث خمس درجات من درجاته .

أما جدران الحجرات والمرافق فعالية ، تحتفظ لنا ببعض النوافذ ، فأعطتنا فكرة عن مستوى جلسات النوافذ وعن إتساعها ، ولا تزال آثار الملاط الذى يغطى الجدران باقية فى بعض المواقع إلى الآن ، وهو أكثر من

طبقة ، بما يدل على إعادة تغطية الجدران بالملاط فى فترات مختلفة ـ وعثر على جزء من بداية قبو فوق رديم إحدى حجرات الطابق الأول وربما كان جزءاً من القبو المغطى لهذه الحجرة [1].

إن من الأمور الملفتة للنظر فيما ذكره المؤرخون عن عمارة المنازل بالفسطاط ، أنها بلغت درجة من النضج ملحوظة ، وأصبحت عمارة هذه المنازل من النوع المركب وليس البسيط ، ولاحظت ذلك ليلى إبراهيم فى أحد منازل الفسطاط التى لم يعلن عن اكتشافها وهو المنزل الثانى الذى كان يوجد بطابقه الأرضى محلات تجارية [2]وهذا يقودنا إلى الحديث عن إحتمال أن يكون هذا المنزل ربع ، وكانت البعثة الأمريكية التى عملت بالفسطاط قد اكتشفت بقايا لبناية رجحت أنها ربعاً ـ وتدل المعطيات التاريخية ، أن رباع الفسطاط كانت من النوع الضخم ، كربع دار التمر ، والذى كان يقع تجاه الصاغة بخط سوق المعارج ، مما فى الأراضى التى انحسر عنها ماء النيل بعد عام ٥٠٠ هـ ، وكانت تصنع به التمور ، وقد وقفه القاضى الفاضل عبد الرحيم لفكاك أسرى المسلمين . وكان عندما عزم على الحج مر به وقال : اللهم إنك تعلم ان هذا الخان ليس شىء أحب إلى منه ، فاشهد أنى وقفته على فكاك الأسرى من بلاد الأفرنج .

وكان هذا الربع يشتمل على المكونات التالية :

---

(١) د . جمال محرز ، منازل الفسطاط كما تكشف عنها حفائر الفسطاط ، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة .

(٢) دار الكتب . ١٩٧٠ . Laila ibnhim, op,vitp 55

عدد		عدد		عدد	
١٢	حانوتا	١٥	خصا	٦	شون
٥	مقاعد	٦	قاعات	٧٥	منزلاً
٥٨	مخزنا	١	ساحة	٥	مقاعد علوية

وقدر الإيراد الشهرى للربع فى سنة ٦٨٩ هـ ١١٣٦ درهم نقرة .

(١) وهذه المكونات تدل على ضخامة هذه المنشأة ، وإذا أردنا تأصيل عمارة الرباع فى القاهرة فعلينا أن نعود إلى ما كانت عليه الرباع فى الفسطاط . أما عن زخارف منازل الفسطاط فقد اكتشفت بها زخارف جصية متأثرة بأسلوب سامراء مما ساعد على تأريخ المنازل التى اكتشفت بها هذه الزخارف بالعصر الطولونى ، واستمرت تتبع هذا النمط إلى أن إنتقلت الحركة العمرانية إلى القاهرة . فبدأ نوع من التطور نتيجة للتحول المكانى والسياسى والاجتماعى .

وكما إنتشرت الزخارف الهندسية والنباتية المحورة فى منازل الفسطاط عرفت أيضا الزخارف الكتابية ، ومن ذلك الكتابات التى كانت تعلو مدخل دار اليتيم ، فقد ذكر أحد الرواة أنه تمشى فى شوارع مصر أى الفسطاط فرأى داراً مكتوبا على بابها الأبيات التالية :

منزلنا هـذا لمـن حلـه ... نحن سواء فيه والطارق
فمن أتانا فيه فليحتكـم ... فإنـه فى حكمـه صادق
يملك منا كـل ما يشتهـى ... إلا الذى حرمـه الخالـق
لا نحذر الفاقه من ربنـا ... فإنـه المانـع والـرازق

---

(١) المقريزى ، الخطط ، حـ ٢ ، ص ٧٨ ، ٧٩ .

قـال الراوى قـد خلت تلك الـدار وكنت جـائعـا ، فـاذا بمـائدة منصـوبة وعليها من جميع الأطعمة الفـاخرة . قال : فجلست وأكلت حتى شبعت فـخرجت إلى جارية سـوداء فأفاضت على يدى ماء فغسلت يدى لأدعـو لهم . فـقـالت الجـارية : لا تدع يا سـيدى فـان الدعـاء كـالعـوض والفـتى لايطلب عوضـا على مصروفة . قال فتعـجبت من ذلك وخرجت فـسألت عن صـاحب الدار ، فـقيل لى ، هذا رجل يتيم مـات أبوه ووصـاه بذلك فهذا ديدنه فى كل يوم [١] .

وإذا كانت الرباع والمنازل تخص سكن طبقـات معينة فى الفسطاط ، فـان المعـدمين والفقـراء كشـفت حـفائر كـوبياك وسكانلون عن سـتة منازل بنيت بطريقة هزيلة تعود الى القرنين ٥/ ٦ هـ ـ ١٠/ ١١ م ، ويبلغ متوسط مساحـة المنزل الـواحـد ٣٥ متراً مربعاً ، وتطل جميعـها على شارع ضيق عـرضـه مـتـران ، والمنزل يتكون من غرفـتين أو ثلاثة ولا يتـوسطه فناء ، وبعـض هذه المنازل كـان يتكون من طابق واحـد ، وألحـقت بهـا مـرافق متواضعة كـالمراحيض . ورجح المكتشفان أن الغرفة الأكثر تطرفاً كـانت تستـخدم كـحظيرة للماشية وتبقى بالفسطاط منشأة اجتماعية فريدة وهى قاعة للأعراس .

* أسوار الفسطاط

لم ينس صـلاح الـدين الأيوبى مطلقـاً مطامع الصليبـيين فى مـصـر ، وظل متخوفاً طوال الفترة التى قضاها فى توحيد الجبهة الإسلامية من أن

---

(١) يوسف أحمد ، الفسطاط ، ص ١١٤ .

يقوم الصليبيون بحملة كبرى لغزو مصر . من طراز حملات عمورى الأول ملك بيت المقدس . والواقع أن صلاح الدين لم يكن مبالغاً فى مخاوفه لذلك كان لابد له من أن يتخذ الأهبة ويضع نظاماً قوياً لتحصين مصر حتى يمكن مواجهة أية محاولة يقوم بها الصليبيون لغزوها [1] .

وروى المؤرخ أبو شامة ـ على لسان عماد الدين الأصفهانى ـ أن صلاح الدين قال إن أفردت كل واحدة بسور (أى القاهرة والفسطاط) احتاجت كل واحدة إلى جند مفرد يحميها ، وإنى أرى أن أدير عليهما سوراً واحداً من الشاطىء إلى الشاطىء ، وأمر ببناء القلعة فى الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم [2] عند مسجد ضخم يحيط بالقاهرة والفسطاط وبناء قلعة ضخمة على جبل المقطم تتوسط السور .

شرع صلاح الدين فى البدأ فى تنفيذ هذا المشروع الضخم فى سنة ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م ، وبدىء فى بناء سور الفسطاط سنة ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م . أى بعد تسع سنوات من تاريخ البدء فى مشروع السور بصفة عامة ، كشفت أعمال الحفر الأثرى بالفسطاط عن بقايا سور صلاح الدين الذى كان يمتد شرق وجنوب تلك المدينة ، وترجع الأجزاء المكتشفة إلى أعمال الحفر التى قام بها على بهجت والمهندس ألبيرجارييل فيما بين سنتى ١٩١٢ و ١٩٢٠ ، ويبلغ ما كشف من السور وقتئذ ٣٥٧ متراً تحد

---

(١) د . سعيد عبد الفتاح عاشور ، الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ، ص ٥١ ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٠ م .

(٢) أبو شامة ، الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، حـ ١ ، ص ١٩٢ . طبعة النيل .

ما كشف من أطلال الفسطاط من الجهة الجنوبية الشرقية ، [1] وكان على بهجت ينوى دراسة سور صلاح الدين على حده فى بحث خاص لذلك لم يتناوله بالتفصيل فى مؤلفه (حفريات الفسطاط) [2] إلا أن المنية عاجلته دون أن يحقق ما كان ينويه ، واكتفى على بهجت قبل اخراج مؤلفه حفريات الفسطاط بعمل مجسات بسيطة فى الإمتداد الشمالى الشرقى للجزء المكتشف إلى أن بلغ مجرى العيون عند زاوية إنحراف هذا المجرى بشارع صلاح سالم الآن .

أجريت حفائر أخرى فى سور صلاح الدين بالفسطاط قام بها الأستاذ حسن الهوارى ، وبدأ فى هذه الحفائر من حيث انتهى على بهجت وتابع مسار السور نحو الشمال الشرقى . وكشف خلال عمليات الحفر عن مسافة ٨٤١ر٢٥ متراً من السور الذى بلغ المكتشف منه حتى ذلك الحين ١١٩٨ر٢٥ [3] التى كانت آخر الأعمال التى تمت فى السور حتى قام أسامة عبد النعيم عام ١٩٩١ باجراء حفائر به بطول ١٠٧ م . ويبلغ إجمالى طول الأجزاء الباقية من السور الآن ٦٠٤ر٥٠ م ويتخلل بناء تلك الأجزاء سبعة أبراج نصف دائرية [4] . ومازالت تحتفظ الواجهة

---

(١) على بهجت ، حفريات الفسطاط ، ص ١٣٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٢ .

(٣) كان الأستاذ حسن الهوارى قد ألف كتيب عن الفسطاط أشار فيه إلى بعض ملاحظاته على السور، ولكن هذا الكتيب صدر عام ١٩٢٧ أى قبل أن يجرى الحفائر فى السور .

(٤) يعد ما كتبه أسامة عبد النعيم فى رسالته للماجستير عن أسوار صلاح الدين بكلية الآثار جامعة القاهرة عام ١٩٩٢ أفضل ما كتب عن أسوار الفسطاط .

الخارجية للسور ببعض معالمها الأصلية ، حين إندثرت معالم واجهته الداخلية ولم يبق سوى جزء صغير مما يصعب معه تقدير عرض السور ، وكان بعض الباحثين قد قرر عرضه ما بين ٣٣ر٣ متراً و ٥٠ر٣ متراً[1] .

يبدأ الجزء الباقى الآن من سور صلاح الدين بالفسطاط فى الجنوب الغربى بطول ٣٠ر٣٨ م ويبلغ عرضة ٤٠ر٣ م ، وتتراوح ارتفاعاته ما بين ٢٠ سم و ٥٠ر٢ م من منسوب الأرض الحالى ، ويظهر من خلال بقايا هذا الجزء أنه كان هناك ممر داخلى يتخلل بناءه لا تزال بقاياه قائمة ، ولكنها فى حالة سيئة لا تسمح باعطاء تفاصيل معمارية واضحة عنه ، وقد بنيت الواجهة الخارجية بهذا الجزء ـ وسور الفسطاط عموماً بنى بأحجار مسنمة على مداميك منتظمة محدبة الوسط ومحاطة باطار مشذب ، ويبلغ متوسط إرتفاع المدماك ٤٥ سم ، ويشتمل كل مدماك على أحجار مستعرضة (حمل) وأخرى رأسية (سهل) وضعت بالتبادل ، ويبلغ متوسط طول المستعرض منها (الحمل) ٧٥ سم بينما يبلغ طول الرأسى منها (سهل) ٢٥ سم .

* برجا باب الفسطاط

يؤدى الجزء السابق من السور فى إمتداده إلى الشمال الشرقى إلى برجين لهما مسقط أفقى نصف دائرى ، أطلق عليهما الأستاذ كريزويل اسم باب الفسطاط ، والبرجان فى حالة سيئة الآن ، ولا تزال بقايا البرج

---

(١) حسن الهوارى ، الفسطاط ، ص ١٠ ، القاهرة ١٩٢٧ م .
أسامة عبد النعيم ، أسوار صلاح الدين ، ص ٦٩ ، ٧٠ .

الجنوبى الغربى منهما قائمة تنبىء عما كان عليه ، ويبلغ قطر البرج ٣٠ر٦م ، ويتراوح إرتفاع مداميك بنائه الباقية ما بين ٥٠ سم و ٥٠ر٢ م ، وتظهر بقايا البناء الداخلى للبرج متهدمة ، وتبرز من جدرانه كتل حجرية تكون شكلاً يشبه المستطيل برجح أنها بقايا الحجرة الوسطى للبرج .

أما بقايا البرج الشمالى الشرقى من برجى هذا الباب فتقع على بعد ٤٠ر٦ م شمال شرق البرج السابق ، وهذا البرج فى حالة خربة الآن . ولم يبق من بنائه سوى ما يدل على سابق وجوده فى هذا المكان . ويرجح أنه كان يشبه البرج السابق .

ويمتد السور من البرج ٤٩ لمسافة ٦٠ر١٥ م بانحراف طفيف جهة الشمال على محورة السابق ، وتستمر بقايا السور بعد هذه المسافة فوق كتلة صخرية طبيعية مرتفعة نسبيا ، ويلاحظا على بقايا السور فوق هذه الكتلة الصخرية بعض الملامح المعمارية الهامة .

١ ـ وجود بقايا أبنية من الآجر على الكتلة الصخرية التى يمتد فوقها السور، بعضها ملاصق لواجهات السور من الداخل والخارج والبعض الآخر يتخلل بناء السور .

٢ ـ وجود قنوات منحوتة فى الصخر تمتد أسفل بقايا السور والأبنية ، وتصل بين بئرين أحدهما غربى (خلف) السور مباشرة والآخر شرقى (أمام) السور .

٣ ـ وجود بقايا مجرى مائى مبنى بنفس نوع الحجر المستخدم فى بناء السور ، ويمتد فى سمت بناء الواجهة الداخلية للسور نحو الشمال

الشرقى ، ويشبه هذا المجرى الجزء الذى تتدفق فيه المياه بسطح مجرى مياه فم الخليج ، ويتكون المجرى المائى هنا من مداميك حجرية أفقيه تمتد فى خط مستقيم ، تحت الجزء العلوى منها على هيئة قناة يبلغ إتساعها ٢٠ سم وعمقها ١٥ سم فى الحجر ويمتد هذا المجرى متقطعا لمسافة ٢٥سم[1] .

يمتد السور بعد ذلك إلى الشمال الشرقى من الكتلة الصخرية السابقة الذكر لمسافة ٦٨ر٣٠ على نفس محوره ، وتحتفظ الواجهة الجنوبية الشرقية (الخارجية) ببعض مداميك بنائها ويتراوح ارتفاعها ما بين ٤٠ سم و ٣ م مبنية فوق الصخر مباشرة ويلاحظ أيضا وجود بئر تمس إستدارة فوهته مداميك تلك الواجهة .

ولا شك أن وجود هذه البئر سابق لبناء السور ، وقد سقطت أحجار الكسوة الخارجية للواجهة الشمالية الغربية (الداخلية) ولا يظهر منها الآن سوى دقشوم ودبش الحشو الداخلى للسور ، والذى يصعب معه التعرف على أية تفاصيل معمارية لتلك الواجهة أو البناء الداخلى

---

(١) أشار الأستاذ ان حسن الهوارى وكريزويل إلى وجود مجرى مائى منقور فى الحجر ضمن بقايا سور الفسطاط وذكرا أن هذا المجرى مغطى بألواح حجرية ، ولكنها لم يذكرا أين يقع هذا المجرى بالتحديد فى السور أو فى أى جزئية منه بالضبط والجزء المتبقى من هذا المجرى الآن إندثرت الألواح الحجرية التى كانت تغطية .

حسن الهوارى ، الفسطاط ، ص ١٢ .

أسامة عبد النعيم ، أسوار صلاح الدين ، ص ٧١ ، ٧٢ .

للسور. ينتهى الجزء السابق من السور ببرج نصف دائرى عرف بالبرج رقم ٥٠ وهو نصف دائرى يبلغ قطره ١٠ر٦ م ، ويبرز عن الواجهة الخارجية للسور بمقدار ٤ م . وتتراوح ارتفاعات واجهة البرج الخارجية الباقية إل الآن بين ٨٠ سم و ٦٠ر٣ م .

ويمتد السور شمال البرج (٥٠) بانحراف طفيف جهة الشرق عن محور الجزء السابق للبرج ، ويبلغ طول هذه المسافة ٥٠ر٦٦ م ويوجد بها دعامة مستطيلة تبرز عن سمت الواجهة بمقدار ٣ م ويبلغ طولها ٥٠ر٣ م ، وتقع هذه الدعامة على بعد ٣٠ر٥ شمال شرق الدعامة (د) وترجع أهمية هذه الدعامة البنائية إلى أن واجهتها الشمالية الغربية تظهر بها أحجار تكسو الواجهة الداخلية للسور ، وهى أحجار ذات قطع متوسط واجهاتها مشذبة تختلف عن أحجار الواجهة الخارجية للسور ذات القطع الكبير والواجهات المسنمة ، وتعتبر أحجار هذه الدعامة هى الوحيدة الباقية الآن من أحجار الواجهة الداخلية لسور الفسطاط .

ينحرف السور فى نهاية هذه المسافة البالغة ٥٠ر٦٦ م ليتجه نحو الشمال ، ويتقدم الواجهة الجنوبية الشرقية للسور عند زاوية إنحرافه كتلة بنائية مربعة صماء متهدمة الآن ، ويفصلها عنه ممر عرضه ٥٠ر٢ م ، ويرجح حسن الهوارى [1] أن هذه الكتلة كانت أساسا لمبنى مراقبة كان مبنيا خارج السور للحراس الذين كانوا يتناوبون المراقبة .

---

(١) حسن الهوارى ، الفسطاط ، ص ١٢ .

أسامة عبد النعيم ، أسوار صلاح الدين ، ص ٧٢ .

يستمر السور بعد زاوية إنحرافه السابقة لمسافة ٥٠ر١٧ م ، ويغطى السور بهذه المسافة كم من الأتربة والرديم تخفى البناء الداخلى وتنتهى هذه المسافة بالبرج رقم (٥١) . وهو برج نصف دائرى يبلغ قطره ٨٠٥ر٥ م ويبرز عن الواجهة الخارجية للسور بمقدار ٤٠ر٤ م ، بينما يتراوح ارتفاعات الأجزاء الباقية منه ما بين ٨٠ سم و ٧٥ر٢ م ، وبناءه الداخلى متهدم تملأه الأتربة والرديم ، وقد إندثرت مداميك واجهته الداخلية ، وتظهر مداميك أساسات البرج مبنية فوق الصخر الطبيعى مباشرة .

ويستمر السور شمال البرج ٥١ ، حيث يغطى معالمه لمسافة ٥٩٠ م طريق ترابى مستحدث يستعمل للمرور عبر السور ، وهو ينتهى بالبرج رقم ٥٢ ، وعلى الرغم من أن بناء هذا البرج متهدم الآن إلا أن بقاياه تدل على ان تخطيطه الأصلى كان يختلف عن تخطيط الأبراج السابقة ، حيث يجمع المسقط الأفقى لهذا البرج بين شكل الأبراج المربعة والأبراج نصف الدائرية ، ويتكون من كتلة جنوبية مستطيلة يبرز ضلعها الجنوبى عن سمت السور بمقدار ١٠ر٢ م ويبلغ طول ضلعها الشرقى ٩٠ر٥ م ، ويمتد هذا الضلع موازيا لمحور السور ليصل فى طرفه الشمالى إلى الكتلة المستديرة للبرج ويأخذ مسقطها الأفقى شكل وتر من دائرة يمتد طرفه الآخر على هيئة ضلع مستقيم يتعامد على السور ويتصل به وتهدم جزء كبير من الكتلة الجنوبية المستطيلة للبرج ، فى حين بقيت أجزاء من واجهة الكتلة الشمالية المستديرة يمكن الإفادة منها فى التعرف على شكل البرج .

وما تزال بقايا الواجهة الغربية (الداخلية) للبرج قائمة ، ولكنها فى

حالة سيئة كذلك بقايا الحجرة الدفاعية ، التى ظهر عند رفع الرديم منها أنابيب مغيبة فى الجدار الغربى تمتد فى خط مستقيم ، ومن المحتمل أن هذه الأنابيب الفخارية كانت تستخدم فى إمداد الجند المكلفين بحراسة البرج بالمياه ، وهناك احتمال آخر وهو أنها كانت امتداداً لقناة المياه التى توجد بقاياها فى الطرف الجنوبى الغربى للسور عند تقاطعه مع البيوت ، وقد سبق الإشارة إليها ، وتحتوى هذه الأنابيب بداخلها على تجاويف حلزونية لعل الغرض منها العمل على سرعة تدفق المياه .

يمتد السور شمال شرق البرج ٥٢ لمسافة ٣٠ر٣٠ م ، وقد إندثرت معالم واجهته الداخلية ، فى حين لاتزال بعض مداميك الواجهة الشرقية الخارجية باقية ، ويتمد هذا الجزء من السور نفس محور الجزء السابق جنوب البرج ٥٢ ، ولكن بارتداد قليل إلى الغرب . وبعد ذلك تختفى معالم السور لمسافة ٣١ م تحت الأتربة وينحرف السور بعد هذه المسافة قليلاً إلى جهة الشرق ويستمر بعدها لمسافة ٨ م [١] .

* كنائس الفسطاط

تميزت الفسطاط ، بوجود عدة كنائس متجاورة ، تمثل فيها الطراز المعمارى القبطى الواضح فى بناء الكنيسة ، وهو التخطيط الذى إشتق جوهره من عناصر التخطيط البازيليكى لعمارة الكنيسة المسيحية .

---

(١) أسامة عبد النعيم ، أسوار صلاح الدين ، ص ٧٣ ، ٧٤ .

وانفردت كنائس الفسطاط بجودة عمارتها بين الكنائس المصرية وحظيت بالرعاية المستمرة خلال العصر الإسلامى وعبر مراحل متعاقبة . ويبلغ عدد كنائس هذه المنطقة حوالى عشر كنائس ، تكاد تكون متجاورة ، وبعضها داخل حصن بابليون والآخر شماله وجنوبه .

أما الكنائس التى تقع داخل حصن بابليون فهى كنائس : القديس سرجيوس وواخيس والمعروفة بكنيسة أبى سرجه والمعلقة والقديسة بربارة والسيدة العذراء المعروفة بقصرية الريحان ، وكنائس شمال الحصن هى كنيسة أبى السيفين وكنيسة الأنبا شنودة وكنيسة العذراء الدمشيريةوكنائس جنوب الحصن هى كنيسة بابليون الدرج وكنيسة أباكير ويوحنا وكنيسة الأمير تادرس المشرقى .

يمكن تقسيم طرازها المعمارى إلى نوعين ، تميز النوع الأول منها ، بوضوح جوهر العناصر الأساسية للتخطيط البازيليكى المستطيل الشكل

الذى يتكون من الواجهة الرئيسية ثم دهليز المدخل المستعرض فالأروقة الرأسية وفى النهاية الشرقية من البناء هياكل الكنيسة بوحداتها ، أو عناصرها المعمارية الثابتة فى الكنيسة القبطية ، ويشمل هذا النوع الأول ، كنائس كبيرة من طابقين هى : أبى سرجة والمعلقة وبربارة والأنبا شنودة وأبى السيفين والمعلقة وبابليون الدرج . كما يشمل هذا النوع الأول أيضا كنيسة العذراء الدمشيرية وكنيسة أباكير ويوحنا ، وتميزتا بصغر مساحتيهما واشتمالها على طابق واحد ، بالإضافة إلى بساطة عمارتيهما .

أما النوع الثانى وهو الكنائس ذات التخطيط المربع ، مع إستخدام القباب والأقبية فى تغطية بعض الأجزاء المعمارية وتشمل كنائس هذا النوع كنيسة السيدة العذراء المعروفة بقصرية الريحان وكنيسة الأمير تادرس الشرقية [١].

* كنيسة أبى سرجة

تقع هذه الكنيسة وسط الحصن الرومانى تقريبا ، ويدخل إليها حاليا من حارة نسطورس الضيقة وسط مجموعة كبيرة من المساكن الصغيرة المتاخمة ، والتى يفصلها عن الكنيسة حارات ضيقة فى الجهات الغربية والشرقية والشمالية ، وتنخفض هذه الكنيسة ، عن مستوى أرضية الحارة ، التى تؤدى إليها بمقدار ١٠٣سم ، إذ يهبط إليها بواسطة قالب من السلالم الحجرية ، كما يتقدمها سياج حديدى .

تاريخ هذه الكنيسة على جانب كبير من الأهمية ، إذ اتخذت تسميتها من إسم قديسين لهما شهرة كبيرة فى تاريخ الاستشهاد الدينى المسيحى فى أوائل القرن الرابع الميلادى وهما القديسيان سرجيوس وواخيس اللذين استشهدا ، بجهة الرصافة بسوريا ، بسبب اعتناقهما للدين المسيحى فى فترة عهد الإمبراطور الرومانى مسكيمانوس [٢] .

---

(١) د. مصطفى شيحة ، دراسات فى العمارة والفنون القبطية ، ص ٨٣ ، ٨٤ ، هيئة الآثار المصرية ، سلسلة المائة كتاب العدد ، ١١ ، ١٩٨٨م .

(٢) مرقس سميكة ، دليل المتحف القبطى وأهم الكنائس والأديرة المصرية ، جـ١ ، ص ٢٠٩ . القاهرة ، ١٩٣٠م .

تبوأت هذه الكنيسة، مكانة دينية خاصة، بين الكنائس القبطية نظراً لما إرتبطت به من قصة مجيء السيدة العذراء والسيد المسيح الطفل ويوسف النجار، فى رحلة الهروب من وجه هيردوس ملك اليهود، واحتمائهما بالمغارة، التى تقع أسفل الكنيسة. يذكر المقريزى عن هذه الكنيسة، قوله «كنيسة بوسرجة، بالقرب من بربارة بجوار زاوية إبن النعمان، فيها مغارة يقال أن المسيح وأمه مريم عليهما السلام جلسا بها»[1]. على أن هذه الكنيسة تعرضت للتلف، بسبب النيران التى اندلعت فى مدينة الفسطاط فى أواخر العصر الأموى، فأصابت مبانيها بأضرار، ثم أعيد تجديدها، فى خلافة هارون الرشيد، إذ ورد فى سيرة الأنبا مرقس (٧٩٩ - ٨١٩م)، فى تاريخ البطاركة إعادة بناء جميع كنائس المنطقة فى ذلك الوقت، بناء على طلب هذا البطريك من الوالى كما جددت عمارتها أيضا فى خلافة العزيز بالله الفاطمى، حين سمح للبطريرك أفراهام، بتجديد كل بيع مصر وقد أورد ذلك ساويرس وأبو صالح، كما أعيد تجديد عمارتها أو ما تشعث منها فى خلافة الظاهر لاعزاز دين الله.

كذلك فإن لهذه الكنيسة من الناحية الدينية أهمية خاصة عند أقباط مصر، إذ كان يتم فيها انتخاب بطاركة الكرسى المرقسى، حتى القرن الثانى عشر الميلادى، نذكر منهم على سبيل المثال البطريرك شنودة (٨٥٠ - ٨٦١م).

(١) المقريزى، الخطط جـ٢، ص ٢٠٩.

والبطريرك أفراهام (٩٤٨ ـ ٩٦٨م) ، كما كان يتم بها رسامة بعض كبار رجال الدين من الأقباط [١].

* كنيسة المعلقة

تعرف هذه الكنيسة بكنيسة السيدة العذراء بالمعلقة، وذلك لبنائها على برجين من أبراج الحصن الروماني، ارتفاعهما (١٣م). ولهذه الكنيسة أهمية دينية فقد كانت في فترات كثيرة من العصر الإسلامي يتم فيها رسامة البطاركة كما يعقد فيها، كثير من الإحتفالات الدينية المسيحية الكبيرة، ويحاكم فيها بعض الخارجين على الطقوس الكنسية ، لذلك فقد انعكست هذه الأهمية الدينية على عمارة الكنيسة وزخارفها حتى أن المقريزي حين ذكرها في خططه قال « كنيسة المعلقة بمدينة مصر في خط قصر الشمع، على اسم السيدة العذراء ، وهي جليلة القدر عندهم».

تجددت عمارة هذه الكنيسة على مر العصور الإسلامية، حتى أعيد تجديد عمارتها في نهاية القرن ١٨م على يد المعلم العبيد أبي خزام ١٧٧٥م، كما هو مدون على حجاب معمودية الكنيسة. وقد كان لأحد أثرياء ووجوه القبط دور كبير في إعادة تجديد وترميم الكنائس والأديرة المصرية ، خاصة كنائس منطقة مصر القديمة، وهو المعلم إبراهيم

---

(١) ساويرس بن المقفع، سيرة الآباء البطاركة للكنيسة القبطية في الإسكندرية ، المجلد الثاني، جـ١ ، ص ١٢٤ ، جـ٢ ص ١٣٧، المجلد الثالث، جـ١ ص٢ ، ص ١٥-١٧ . القاهرة ، ١٩٥٤م.
أبو صالح الأرمني ، كنائس وأديرة مصر، ص ٤٥ ، أكسفورد ١٨٩٥م.
د. مصطفى شيحه، مرجع سابق ، ص ٨٥: ٩١ .

الجوهرى، الذى كان يشغل منصب رئيس كتاب البر المصرى، كما قام أحد أثرياء القبط بإعادة تجديد هذه الكنيسة، مرة أخرى، فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادى.

تعتبر هذه الكنيسة من الناحية المعمارية، غاية فى الأهمية، ورغم أنها جددت فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى، ذلك أن الطراز القبطى واضح بها تمامًا، وإن كان التجديد ربما اختلف عن بعض الأجزاء الأولى للكنيسة، فقد أضيفت للكنيسة ثلاثة أجزاء معمارية، خارج حدود بناء الكنيسة نفسها، وحتى يتم الوصول إليها ـ وذلك فى التجديد الذى تم فى القرن التاسع عشر.

الكنيسة مستطيلة الشكل (١٠, ٢٤× ٥٠, ٢٠م عرضا) تقع واجهتها فى الضلع الغربى، وتتكون الواجهة من طابقين ويتقدمها فسقية مياه، أمامها ثلاثة عقود مدببة، محمولة على أربعة أعمدة رخامية، يكتنفها من الناحيتين الشمالية، والجنوبية حجرتان، بهما سلالم حجرية تؤدى إلى الطابق الثانى، والواقع أن واجهة الطابق الأول للكنيسة، على الرغم من أنها حديثة، إلا أنها مزخرفة بالزخارف النباتية والهندسية والكتابية على غرار زخارف العصرين المملوكى والعثمانى، وبهذه الواجهة مدخلان متماثلان يحصران بينهما، تجويف نصف دائرى، على نفس إرتفاع الأبواب الجانبية.

ويتم الدخول إلى الكنيسة من المدخل الجنوبى حاليا، ولاحظ الدكتور مصطفى شيحة، أن هذه الكنيسة هى الكنيسة الوحيدة بين كنائس الفسطاط التى يوجد بها ثلاثة صفوف من البائكات، كما لا يوجد بها

أيضا دهليز المدخل أو البلاطة المستعرضة والتى يتم الدخول منها إلى أروقة الكنيسة ، كما يوجد اختلاف فى تماثل صفوف البائكات من حيث عدد الأعمدة بها ، إذ يوجد فى الصفين الشمالى والجنوبى ثمانية أعمدة رخامية ، يقوم عليها ثمانية عقود ، إلا أنه يعلو البائكة الشمالية ، ثمانى نوافذ مستطيلة الشكل ذات شبابيك ، بعضها من الخشب الخرط والآخر من الجص والزجاج الملون . أما صف البائكات الأوسط فيتكون من ثلاثة عقود كبيرة مدببة الشكل ، يحملها ثلاثة أعمدة رخامية ودعامة صليبية الشكل فى الناحية الشرقية . ويغطى الأروقة الثلاثة الرئيسية للكنيسة ، أقبية نصف دائرية من الخشب ، فتح فى سمت كل منها ثلاث نوافذ مستطيلة ذات شبابيك من الزجاج الملون . أما الرواق الشمالى فيغطيه سقف مستو من الخشب ، يوجد منبر الكنيسة فى الناحية الشمالية الشرقية من الرواق (هـ) ، وهو قطعة فنية على جانب كبير من الاقة والمهارة ، إذ إنه مصنوع من الرخام ، المزين بقطع صغيرة من الفسيفساء ، ويرتكز على خمسة عشر عمودا .

تنتهى الأروقة الثلاثة الرئيسية ، فى الناحية الشرقية ، بثلاث حجرات متصلة ، يفصلها عن الأروقة أحجبة خشبية على صف واحد ، أما الرواق الشمالى (ز) ، فينتهى بحجرة مستطيلة الشكل أشبه بدهليز صغير ، ويغطيه سقف مسطح من الخشب .

أما الطابق الثانى للكنيسة ، والمعتاد فيه وجود ثلاثة دهاليز ، تعلو أروقة البازيليكا ، فيما عدا الناحية الشرقية ، التى يوجد بها حنية الكنيسة الرئيسية ، فلا توجد بهذه الكنيسة ، باستثناء الجانب الغربى ، حيث

يوجد دهليز يطل على الرواق الأوسط بواسطة عقدين كبيرين على شكل نصف دائرى ويغطى هذا الدهليز سقف مستو من الخشب.

على أن هذه الكنيسة الكبيرة تتميز أيضا بوجود كنيسة أخرى صغيرة فى الناحية الجنوبية الشرقية منها، وهذه الكنيسة فى الحقيقة عبارة عن عدة هياكل، مقامة على أرضية البرج الرومانى، ويدخل إليها من خلال مدخل يقع وسط الضلع الجنوبى للكنيسة الرئيسية والكنيسة مقسمة إلى مساحتين الأولى مستطيلة الشكل. فى الناحية الشرقية منها توجد حجرة مستطيلة بضلعها الشرقى تجويف كبير، أما القسم الثانى فيوجد به معمودية الكنيسة وهى من حجر الجرانيت [١].

* كنيسة أبى السيفين

تقع هذه الكنيسة شمال حصن بابليون وتحمل إسم الشهيد القديس مورقوريوس المعروف بأبى السيفين، وقد كان ضابطا بالجيش الرومانى واعتنق المسيحية، واستشهد بسبب ذلك فى عام ٣٦٥م. بدأت هذه الكنيسة صغيرة على شاطىء النيل بالفسطاط، إلا أنها هدمت واستخدمت مساحتها لتشوين القصب، ثم أعيد تجديدها فى العصر الفاطمى فى خلافة العزيز بالله، وقام بتجديد عمارتها البطريرك أفرام السيريانى، من ثروة الشيخ أبو اليمن قزمان بن مينا. وتعرضت الكنيسة

---

(١) د. مصطفى شيحة، مرجع سابق، ص ٩٧، ٩٨.

للتلف فى حريق الفسطاط عام ٥٦٤ هـ/١١٦٨م حتى أن أبو صالح الأرمنى يذكر « أنه لم يبق منها سوى جدرانها الخارجية وكنيسة لطيفة بداخلها لم تحرق وهى كنيسة يوحنا المعمدان، وصار القداس مستمراً بها إلى أن رسم للنصارى بتجديد عمارة البيعة المذكورة، وأعاد عمارتها الشيخ أبو البركات بن أبى سعيد هيلان فى عام ١١٧٦م ، وأعاد تجديدها بعد ذلك الشيخ أبو الفضائل بن فروج.

وألحق بهذه الكنيسة كنيسة صغيرة تحمل إسم يوحنا المعمدان. بها ثلاثة هياكل صغيرة [١].

* كنيسة الأنبا شنودة

تحمل هذه الكنيسة إسم القديس شنودة، وهو من أشهر قديسى الكنيسة القبطية ، وتذكر عنه المصادر التاريخية التى تناولت سيرة حياته، أنه كان يتمتع بعلم كهنوتى واسع.

وتعرضت هذه الكنيسة ، شأن معظم كنائس الفسطاط لتجديدات عديدة، لعل من أهمها ما شملها من تجديد ، خلال سلطنة الناصر محمد بن قلاوون، خلال فترة بطريركية بنيامين الثانى)١٣١٩ - ١٣٢٢م)، وقد قامت لجنة حفظ الآثار العربية بعمل كثير من الترميمات والتجديدات ،

(١) د. مصطفى شيحة، مرجع سابق ، ص ٩٩ : ١٠٣.

على غرار أصول عمارة الكنيسة الأولى منذ عام ١٩٣٥ وحتى عام ١٩٤٢ [١].

* كنيسة القديسة بربارة

تأسست هذه الكنيسة فى أواخر القرن الرابع أو أوائل القرن الخامس الميلادى وكرست باسم السيدة بربارة التى ولدت فى القرن الثالث الميلادى من أسرة غنية وثنية، واعتنقت الدين المسيحى على يد العلامة المصرى أويجانس فغضب والدها من ذلك وقتلها [٢].

ولقد تهدمت الكنيسة فى القرن العاشر الميلادى، وأعاد بناءها هى وكنيسة أبى سرجة، يوحنا بن الآيح أو الأمح والذى يروى أنه كانت له حظوة عظيمة عند أحد الخلفاء الفاطميين، فاتهمه حساده بالخيانة، ولما تحقق الخليفة من ذلك وثبتت براءته له أجابه إلى طلبه من إعادة بناء كنيسة أبى سرجة، وبعد أن بناها بقى من الأدوات ما يكفى لبناء كنيسة أخرى، فأعاد بناء كنيسة الست بربارة بدون تصريح الخليفة ، فشكاه أعداؤه إليه، ولما تحقق الخليفة الأمر حكم عليه بهدم إحدى الكنيستين فصار الوزير ينتقل من الواحدة إلى الأخرى ليختار واحدة منهما غير مستقر على حال، ولما أعياه التعب سقط ميتا. فبلغ الخليفة ما حدث، فأمر بترك

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٤ : ١٠٧ .

(٢) د. مصطفى شيحة، المرجع السابق ، ص ١٠٨ .

الكنيستين وقال عبارة نصها « أنا أمرت ببناء واحدة ، والأخرى دية له »[1].

ومن حسن الحظ العثور على باب الكنيسة القديم، وعلى أحجبة خشبية تحتوى على زخارف نباتية وهندسية ، وكذلك زخارف لكائنات حية ومناظر آدمية وحيوانية وأشكال طيور. وتعتبر هذه أروع فنون العصر الفاطمى . وهى محفوظة حاليا بالمتحف القبطى [2].

*** الوصف المعمارى**

تخطيط هذه الكنيسة يتكون من مستطيل حوالى ٢٦ × ٥ , ١٤م وارتفاعها حوالى خمسة عشر متراً ، وتعد كنيسة الست بربارة من أجمل كنائس الفسطاط ، وتقع هياكلها فى القسم الشرقى منها، ويفصل صحن الكنيسة عن الجناحين القبلى والبحرى وعن الجانب الغربى المقابل للهياكل ثلاثة صفوف من الأعمدة الرخامية .

ويغطى صحن الكنيسة والهيكل الأوسط سقف جمالونى الشكل [3] وتحتوى الكنيسة على منبر مماثل لمنبر كنيسة أبى سرجة، إذ يتكون من مقصورة مستطيلة الشكل محمولة على عشرة أعمدة رخامية صغيرة [4].

---

(١) محمود أحمد، دليل موجز لأشهر الآثار العربية بالقاهرة. ص ٢٢٤، ٢٢٧ . القاهرة ١٩٣٨ .

د. أبو الحمد فرغلى، الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية فى القاهرة، ص ٧٩، الدار المصرية اللبنانية ، ١٨٦١م.

(٢) د. مصطفى شيحة، مرجع سابق ، ١٠٨ .

(٣) محمود أحمد، مرجع سابق ، ص ٢٢٤ ، ٢٢٧ . أبو الحمد فرغلى، مرجع سابق ، ص ٧٩ .

(٤) محمود أحمد، مرجع سابق ص ٢٢٤، ٢٢٧.

ومما يلفت الانتباه فى كنيسة القديسة بربارة هذه الأشغال الخشبية ، وعلى وجه الخصوص حجاب الهيكل الأوسط ، فهو مطعم بالعاج وبه أويمه دقيقة وتم تأريخة اعتماداً على الأسلوب الزخرفى إلى حوالى القرن الثلاث الميلادى ، وبداخل الهيكل الأوسط يوجد المذبح وخلفه مدرج زين أعلاه بالفسيفساء . كما يوجد أمام حجاب الهيكل المنبر الرخامى السالف الذكر (١) .

* كنيسة أباكير ويوحنا

تقع هذه الكنيسة بجوار الكنيسة السابقة فى جنوب الحصن أيضا ، وقد تعرضت لكثير من التجديدات وأعمال الترميم ، التى تمت على أساس غير سليم ، ونتج عن ذلك فعلاً إرتباك واضح فى عمارتها الخارجية والداخلية ، والكنيسة شكلها غير منتظم (٢) .

* كنيسة السيدة العذراء بالدمشيرية

تقع هذه الكنيسة بدير أبى السيفين بشارع جامع عمرو بن العاص ويدخل إليها من خلال دهليز طويل ، فى الناحية الجنوبية يفتح على الفناء المكشوف ، ويؤدى إلى مدخل الكنيسة الوحيد فى الضلع الجنوبى ، حيث تبدو واجهة الكنيسة محجوبة تماما ، بواسطة الملحقات الإضافية ، بمبنى الكنيسة فى الناحية الجنوبية ، تخطيط الكنيسة مستطيل الشكل (٢٠م ×

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٢٧ .

(٢) د . مصطفى شيحة ، مرجع سابق ، ١١٤ ، ١١٥ .

صفان من الأعمدة إلى ثلاثة أروقة رأسية، وصفا الرواق الأوسط.
٩٠ ,١٢م) وتتكون من طابق واحد، ويقسمها من الداخل وصف أعمدة هذه الكنيسة تشبه مثيلاتها بكنيسة بابليون الدرج لاسيما فى وجود الدعائم الصغيرة المرتكزة على تيجان الأعمدة، ويتكون صف الأعمدة الجنوبى من دعامة وثلاثة أعمدة، مقابل ثلاثة أعمدة فقط فى صف الأعمدة الشمالى. يغطى الرواق الأوسط (ب) قبو نصف دائرى من الخشب والرواق الشمالى والجنوبى تغطيتهما من سقوف مستوية من الخشب أيضا، ويوجد بالجدراين الشمالى والجنوبى فتحات للنوافذ، كما يوجد بالضلع الغربى للكنيسة أيضا، فتحات للنوافذ.

تنتهى الأروقة الثالثة فى الناحية الشرقية بالهياكل الثلاثة، التى يفصلها عنها أحجبة خشبية وأهمها الهيكل الأوسط (د)، عبارة عن حجرة مربعة ٤×٤م، يتوسط ضلعها الشرقى حنية نصف دائرية صغيرة بعمق (٣٠سم)، ويتوسط هذه الحجرة مذبح حجرى، يعلوه قبة خشبية، مرتكزة على عمودين من الخشب، ويغطى هذه الحجرة قبة تقوم على أربع حطات من المقرنصات، كما أنها تتصل بالحجرتين الشمالية والجنوبية، بواسطة مداخل فى ضلعيها الشمالى والجنوبى. أما الحجرة الجنوبية (هـ)، فهى مستطيلة الشكل، مساحتها (٤٥ ,٤ × ٣م) يتوسطها مذبح مماثل للحجرة السابقة، ويتوسط جدارها الشرقى حنية صغيرة، كما يغطيها قبو طولى من الآجر، والحجرة الشمالية (ز)، مستطيلة الشكل أيضا، وساحتها مقاربة لمساحة الحجرة السابقة، ومغطاة بسقف خشبى مستو، ولا يعلو هذا الطابق طابق ثانى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

* كنيسة قصرية الريحان

تعرف هذه الكنيسة بكنيسة السيدة العذراء المشهورة بقصرية الريحان، وذلك لتشبيه السيدة العذراء بإصيص ترعرع فيه نبات الريحان ذو الرائحة الذكية، وربما هذا كناية عن الاناء الطاهر الذى خرج منه المسيح [1].

ورد ذكر هذه الكنيسة فى تاريخ بطاركة الإسكندرية، زمن البطريرك خائيل السادس والخمسون (٨٦١ـ ٩٠٠م)، وذلك حين حضر إليها هذا البطريرك، وعقد بها اجتماعًا دينيا، كما عاش بهذه الكنيسة بعض الوقت، بقصد التشاور مع أحمد بن طولون. هذا وقد احترقت هذه الكنيسة من عدة أعوام[2].

أما من حيث التخطيط المعمارى لهذه الكنيسة، فإنها تختلف عن الكنائس السابقة، خاصة فى وسيلة التغطية وشكل الكنيسة، فالكنائس السابقة كانت مستطيلة الشكل، بينما هذه الكنيسة مربعة الشكل، وفى الوقت نفسه نجد أن مساحة الكنيسة مقسمة إلى مناطق مربعة يعطيها قباب ضحلة، غير تغطية الكنائس السابقة بالسقوف الجمالونية الشكل والمسطحة، وشاع هذا النوع من التغطية بالقباب المتجاورة، فى بعض كنائس النوبة والوجه القبلى، وتوجد كنيسة أخرى بنفس المنطقة، تمثل فيها كنيسة التغطية بالقباب المتجاورة، هى كنيسة الأمير تادرس المشرقى، ضمن الكنائس الثلاثة جنوب حصن بابليون.

---

(١) رؤوف حبيب، كنائس القاهرة، ص ٤٤ . القاهرة ١٩٥٩م.
(٢) أبو صالح الأرمنى، كنائس وأديرة، ص ٥٦، د. مصطفى شيحة، مرجع سابق، ١١٩.

* معبد بن عيزرا أثر رقم ٦٢٥

يعتبر المعبد اليهودى بالفسطاط من أقدم المعابد اليهودية فى مصر ، التى يوجد بها ١٩ معبد متفرقة فى أنحاءها ، ولذا نسج اليهود حوله الأساطير ، حيث يقال أن موسى عليه السلام صلى به بعد أن ناجى الله سبحانه وتعالى بجبل طور سيناء ، بل قالوا إن الصندوق الذى كان يحمل موسى وهو طفل صغير فى نفس المكان المقام فيه المعبد الآن .

* تاريخ المعبد

من المعروف أن المعبد كان فى الأصل كنيسة وذلك حتى عهد أحمد بن طولون ، عندما عجزت الطائفة المسيحية المالكة للكنيسة عن دفع الجزية المقررة عليها ، والتى كان يقال إنها تعادل عشرون ألف درهم ، وعندئذ قام الحاخام ابرأهام بن عيزرا القادم من القدس بدفع الجزية مقابل الكنيسة ، فسمى المعبد باسمه ، واستتبع تحويل الكنيسة إلى معبد تعديلات معمارية تتناسب مع الديانة اليهودية .

* الوصف المعمارى

يشتمل تخطيط المعبد اليهودى على نفس تخطيط الكنائس البازليكلية ، حيث أنه يتكون مساحة مستطيلة مقسمة إلى ثلاثة أروقة طويلة بواسطة صفين من الأعمدة بكل صف ٦ أعمدة ترتكز على الجدار الشرقى المسمى بالهيكل ، ويطل على هذا القسم من المعبد مصلى للنساء بالطابق الثانى ويفتح مصلى للنساء على مصلى الرجال بعقود .

* المقصورة الرخامية

تأخذ شكل الصندوق الذى وضع فيه سيدنا موسى ومحفور عليه الوصايا العشر باللغة العبرية بالإضافة إلى بعض العبارات الدينية اليهودية .

* كرسى الحاخام

وهو عبارة عن مصطبة رخامية مستطيلة محمولة على إثنى عشر عموداً ، وكانت مخصصة للحاخام لإلقاء الخطب الدينية على المصلين .

* الهيكل

ويقع بالجدار الشرقى للمعبد، وهو يرتفع قليلاً عن أرضية المعبد وكان مخصصا لأداء الشعائر اليهودية ويتجه نحو بيت المقدس، ويتقدم الهيكل شمعدانين كلا منهم يحتوى على سبعة أماكن لوضع الشموع تكون فى مجموعها أربعة عشرة كل منها يرمز إلى أيام الأسبوع التى خلق الله فيها الأرض أو إلى الأعين السبعة للإله الحامية للأرض وذلك حسب معتقدات العقيدة اليهودية .

ومن الملاحظ أن المعبد ملىء بالرموز فعلى سبيل المثال نلاحظ أن عدد أعمدة البائكتين إثنى عشر عموداً قد ترمز إلى الأسباط الإثنى عشر إخوة يوسف .

* قاعة الجنيزة

تقع بالطابق الثانى من المعبد ويدخل إليها بنافذة صغيرة حيث كانت تلقى منها أوراق اليهود، وقد عثر بها على مجموعة من أوراق الجنيزة

كشفت عن الكثير من المعلومات عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية بالفسطاط ، وعن مدى الحقوق التى تمتع بها اليهود فى المجتمع الإسلامى.

* البئـــر

ويتوصل إليها عن طريق سلم خاص وكان هذا البئر مخصصاً لخدمة المعبد.

خاتمـــــــة

يشير تاريخ مدينة الفسطاط وتراثها إلى ملامح هامة من مسيرة حركة العمران للمدن الإسلامية ، فالمدينة مثل حى على التطور العمرانى والقدرة على البقاء .

نشأت مدينة الفسطاط فى أول الأمر كمعسكر للجند العرب الذين شاركوا فى فتح مصر ، وهؤلاء الجند إختطت المدينة لهم وفقا لانتمائهم القبلى ، أو لإنتمائهم لإحدى فرق الجيش ، وتحولت المدينة بالتدريج من معسكر أو قاعدة لإستكمال فتح مصر وترسيخ الإسلام ، وكذلك كقاعدة للفتوحات الإسلامية فى الغرب إلى مدينة حقيقية منذ أن أسست القيروان على يد عقبة بن نافع الفهرى ، حيث صارت القيروان هى القاعدة التى تنطلق منها الجيوش وتستمد العون منها فى فتح بلاد المغرب .

ومع استكمال عمران المدينة فيما بين خططها بدأت تظهر شبكة من الشوارع المتصلة فى العصر الأموى . ومع التحول السياسى فى بتولى العباسين أمر الدولة الإسلامية ، أسسوا معسكرا بجوار الفسطاط كمقر لجندهم أسموه العسكر ، وذلك لاستقرار الحياة المدينة بالفسطاط والتى

لم تعد تصلح لإستقبال وإقامة الجند ، ولما أسس ابن طولون دولته اتخذ لجنده جديدا هو القطائع وهى إمتداد طبيعى أيضا للفسطاط ، وتحولت كل من العسكر والقطائع إلى جزء لا يتجزأ من الفسطاط .

ولكن مع تأسيس حصن أو مدينة القاهرة تحولت لأول مرة الوظيفة السياسية من الفسطاط إلى القاهرة ، ولكن بالرغم من هذا التحول شهدت الفسطاط أوج إزدهارها الإقتصادى والعمرانى ، ولذا جاء عنوان هذا الكتاب ليعبر بالإزدهار عن تلك الفترة ، ولكن بعد حريق الفسطاط الذى أثر بلا شك فيها ، ولكن ليس بنفس القدر الذى جعل معظم المؤرخين والأثريين يعتقدون أن المدينة إندثرت ، ولكن شهدت الفسطاط فى العصرين الأيوبى والمملوكى حركة عمرانية نشطة ليست بنفس القدر الذى شهدته القاهرة ، التى تحولت بالتدريج إلى مركز اقتصادى لمصر سلب من الفسطاط الكثير من وظائفهما الاقتصادية ، فضلاً عن تحول مقر الحكم من القاهرة إلى قلعة صلاح الدين ، ويعود بقاء مدينة الفسطاط إلى اليوم إلى التفسير المنطقى الذى قدمه ابن خلدون لسبب بقاء مثل هذه المدن العتيقة إلى اليوم وهو :

أن هناك صلة بين العمران الحضارى للمدينة وبين إحتفاظها بالصفة الحضرية حتى لو تعرض عمرانها للإنكماش ، وذلك أن اكتساب المدن للصنائع ورسوخ الصنائع بها يؤدى إلى عدم زوالها حتى ولو انكمش العمران ، فهنا نجد أن مدينة الفسطاط منذ نشأتها الأولى من الأمصار التى استبحرت فى الحضارة ، فلما تراجع عمرانها وتناقص بقيت فيها آثار من هذه الصنائع التى إستحكمت ورسخت وتوارثتها الأجيال التى

إكتسبت هذه الصنائع بالتعليم والتعلم مع طول العمر الحضارى عبر عدة قرون [١].

ويعود السبب فى الاعتقاد الخاطىء بإندثار مدينة الفسطاط ، إلى عاملين : الأول بقايا مدينة الفسطاط القديمة وهى تلك التلال التى جرت فيها أعمال الحفر الأثرى فى القرن الحالى ، والتى أوحت لكثيرين أن هذه التلال هى مدينة الفسطاط ، بينما تمثل هذه التلال جزء من المدينة وليس كل المدينة ، والعامل الثانى تحول اسم المدينة من الفسطاط إلى مصر بمرور الوقت من باب إطلاق اسم الكل على الجزء الذى هو حاضرة البلاد آنذاك ، ولأن اسم مصر يعبر عن المدينة فى اللغة العربية ، وإطلاق اسم الكل على الجزء نراه كذلك فى سورية حيث يطلق على العاصمة السورية دمشق الشام لأنها كانت ولازالت حاضرة بلاد الشام .

وهذا التحول فى الاسم رأيناه يفرض نفسه يوما بعد يوم على كتابات المؤرخين والجغرافيين فعلى سبيل المثال :

ـ المقدس المتوفى سنة ٣٨١ هـ ، خصص قسما فى كتابه أحسن التقاسيم لفسطاط مصر ، وآخر لوصف القاهرة ، بينما يذكر ناصر وخسرو اسم مصر صريحا فى رحلته بدلا من اسم الفسطاط حيث يقول

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، من ص ١٠٥٧ : ص ١٠٨٢ تحقيق د . على عبد الواحد وافى ، طبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٧ .

د . عبد العال الشامى ، مدن الدلتا فى العصر العربى ، ص ٣٤ : ٣٦ رسالة دكتوراه بكلية الآداب ، جامعة القاهرة ١٩٧٧٠ م .

فى عبارتين « ويبتدىء فم الخليج من مدينة مصر ، ويمر بالقاهرة . . . » . . « وبين مدينتى مصر والقاهرة أقل من ميل . . . » .

أما ابن الأثير فيذكر فى كتابه ما يلى « . . وسار المعز فدخل القاهرة خامس شهر رمضان سنة اثنين وستين وثلثمائة ، وأنزل عساكره مصر والقاهرة فى الديار ، وبقى كثير منهم فى الخيام » وفى حوادث سنة ٥٦٤ هـ يقول . . « وأمر شاور « عند مهاجمة الصليبيين للقاهرة » بإحراق مدينة مصر تاسع صفر ، وأمر أهلها بالانتقال منها إلى القاهرة » .

أما ابن دقماق فى جغرافيته فند خصص قسما كاملاً لمدينة مصر[١] على الفسطاط ونسى المؤرخون اسم الفسطاط نهائيا خاصة فى العصر العثمانى .

ولم يقتصر الأمر على اطلاق اسم مصر على الفسطاط بل صار علماً على عاصمة مصر أيا كانت هذه المدينة ، وهو ما أثبته كتاب النخبة الوافية فى علم الجغرافية وهو من تأليف يعقوب صبرى أفندى ، وهو أول كتاب وضع بالعربية فى جغرافية مصر والعالم فى القرن التاسع عشر ، يقول مؤلف الكتاب « القاهرة . . . ويطلق على هذه المدينة أيضا اسم مصر . . . » . ومازلنا نحن أهل ريف مصر وصعيدها نطلق على العاصمة المصرية مصر أو مدينة مصر ، ويعود غلبة اسم القاهرة على

---

(١) انظر على سبيل المثال : إسماعيل بن سعد الخشاب ، خلاصة ما يراد من أخبار الأمير مراد ، ص ١٩ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٣٦ ، ٥٢ ، ٥٤ تحقيق د . حمزه بدر ود . دانيال كريسيليوس . العربى للنشر القاهرة ١٩٩٢ .

اسم العاصمة الرسمية لمصر [1] لأنها كانت منذ العصر المملوكى أكبر الحواضر القريبة من القلعة مصر الحكم ، حيث امتدت إلى الفسطاط وصار هذا الإمتداد يعرف بظاهر القاهرة وإلى الأزبكية ، ثم جاء إسماعيل ليكمل هذا الامتداد بالقاهرة الجديد التى عرف قسم منها بالإسماعيلية ، وجاء نقله مقر الحكم إلى قصر عابدين ليرسخ إطلاق اسم القاهرة على العاصمة المصرية . وتحولت مصر القديمة أو الفسطاط مع النمو العمرانى للقاهرة إلى حى صغير داخل العاصمة الكبرى لمصر .

ومن الملاحظ أن تحول اسم الفسطاط إلى مصر لم يقتصر فقط على المؤرخين والجغرافيين بل اكتسب صفة رسمية إذ حملت النقود التى ضربت بمدينة الفسطاط منذ فترة مبكرة اسم مصر بدلاً من اسم الفسطاط ومن ذلك على سبيل المثال :

ـ فلس ضربه الخليفة عبد الملك بن مروان وهو محفوظ فى مجموعة المتحف البريطانى ، وفلس ضربه والى مصر عبدالله بن عبد الملك (٨٤ ـ ٩٠ هـ) وهو يحمل مكان الضرب مصر بمجموعة الأستاذ سمير شحا بجدة بالسعودية ، وفلس من عهد مروان الثانى آخر الخلفاء الأمويين ، ضرب على يد والى مصر عبد الملك بن مروان اللخمى ١٣٢ هـ .

وظهر اسم مصر على درهم عباسى ضرب سنة ١٨٠ هـ ، وظهر اسم

---

(١) يعقوب صبرى ، النخبة الوافية فى علم الجغرافية ، ص ١٦٣ ، ١٦٤ مطبعة المدارس الملكية ، طبعة أولى ١٢٩٧ هـ .

فسطاط مصر على درهم عباسى ضرب سنة ٢٠٤ هـ ، وظهر اسم مصر الظاهرية على درهم مضروب سنة ٢٠٥ هـ ، وظهر اسم على الدنانير الذهبية فى دينار مضروب سنة ١٩٩ هـ . كل هذا يؤكد تحول اسم الفسطط إلى مصر منذ فترة مبكرة .

وقد يجعل هذا البعض يعتقدون أن ضرب اسم مصر على النقود يشير إلى مصر الدولة وليس المدينة ، ولكن ما يجعلنا ننفى ذلك أنه كان يوجد دار ضرب بالفسطاط سبق وأن أشرنا إليها ، ضربت فيها هذه النقود ، وأن الغالب عند ذكر مكان الضرب على النقود الإسلامية ذكر اسم المدينة وليس الدولة أو الولاية ، وهذا نجده فى مدن دمشق ، واسط ، بغداد ، القيروان وغيرها .

ومن الملاحظ فى تاريخ مدينة الفسطاط أن المدينة شهدت تعايشًا سلميا بين النصارى واليهود والمسلمين ، وتشهد على ذلك وثائق الجنيزة اليهودية التى عثر عليها فى الفسطاط وكنائس الفسطاط التى مازال قسما كبيرا منها باقيا إلى اليوم ، وهذا العدد الكبير من الكنائس قد لا يتناسب مع عدد النصارى بالمدينة . وكذلك الإنتعاش الاقتصادى لهذه الأقليات حتى صار بعضهم يمارس نشاطا تجاريا دوليا .

ويعود هذا التعايش السلمى إلى إيمان الإسلام بالتعددية ، كسنة من سنن الله فى الشرائع والأقوام والحضارات ، هو وهذا الإيمان هو الذى ميز أمته وعالمه وداره بالتعددية فى الديانات والأقوام . فلأنه أعلن أن (لا أكراه فى الدين) عاشت فى دياره الأقليات غير المسلمة ، وحفظ لها

أمانها على عقائدها ، كفريضة إسلامية . . وليس مجرد تسامح وحق من الحقوق . . فقد جعل الإسلام من التعددية فى الشرائع الدينية ، سنة من سنن الله فى الاجتماع الدينى ، وميز بين الجماعة التى تنتمى إلى دين واحد، وبين الرعية السياسية أو رعية المواطنة .

فحرية التدين مكفولة ، ويجمع بين الأقليات والأغلبية داخل الدولة المسلمة رابطة المواطنة المشتركة والرعية السياسية الواحدة والجوا مع الحضارية والقومية والوطنية فى الدولة الواحدة .

تبقى لنا نقطتان هامتان الأولى :

أننى كنت قد عزمت على إضافة فصل تحت عنوان فنون الفسطاط إلى هذا الكتاب، ولكن بعد مراجعة المادة العلمية لدى، وما هو موجود فى مخازن الفسطاط من آلاف القطع الأثرية غير المنشورة، ماجعلنى أفضل إصدار كتاب مستقل تحت عنوان « فنون الفسطاط» من خزف وفخار ونسيج ومعادن وأخشاب ونقود. وما يرتبط بها من حركة صناعية وتجارية . وكنت قد أشرت من ذى قبل إلى تجاهل المجلس الأعلى للآثار النشر العلمى لأعمال الكشف الأثرى التى تقوم بها بعثات الحفر الأثرى المصرية بالفسطاط ، وهو أمر كما ينطبق على العمائر المكتشفة ينطبق بالتبعية على ما يكتشف من قطع فنية .

والنقطة الثانية ، هى تجاهل الأثريين تأصيل العمارة القاهرية من خلال البحث عن أصولها فى الفسطاط ، ولعل نشأة فقه العمارة بمصر فى مدينة الفسطاط يكشف عن ذلك ، فما نشأ من علاقات على سبيل المثال من

خلال الاحتكاك العمرانى داخل المدينة أثر فى عمارتها ، ومن ذلك ظهور الساباطات بين العمائر على جوانب الطرق والسقائف ، وهى من العناصر المعمارية التى حظيت بأبواب خاصة فى فقه العمارة ، وانتشرت فى مرحلة لاحقة بالقاهرة .

أولا : المصادر :

ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن على ، الكامل فى التاريخ طبعة بولاق ، ١٨٧٢ م
بن جبير ، أبو الحسين محمد بن أحمد ، رحلة ابن جبير ، طبعة لجنة تحقيق التراث ١٩٨١ م
ابن حوقل ، أبو القاسم محمد، كتاب صورة الأرض . ليدن الطبعة الثانية ١٩٣٨ م
ابن خلدون ، عبد الرحمن، المقدمة . تحقيق د . على عبد الواحد وافى، طبعة لجنة البيان ، القاهرة ـ ١٩٥٨ م
ابن دقماق ، إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائى، الانتصار بواسطة عقد الامصار، الجزءان الرابع والخامس ، دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٨٠ م
ابن دقماق ، الجوهر الثمين فى سير الخلفاء والملوك والسلاطين ، تحقيق د. سعيد عاشور، مراجعة أحمد دراج . جامعة أم القرى .
ابن رضوان ، على أبو الحسن على، دفع مضار الأيدان مصر بأرض ، مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٣٦ . طب ـ ف ٤٣٧)
ابن زولاق ، فضائل مصر وأخبارها ، مخطوط بدار الكتب المصرية تاريخ رقم ٣٥٩١
ابن سعيد المغربى، النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة ، تحقيق دكتور زكى محمد حسن . نشر جامعة القاهرة ١٩٥٣ م
ابن فضل الله العمرى ، شهاب الدين أبو العباسى أحمد ، مسالك الأبصار فى ممالك الامصار ـ دار الكتب المصرية ١٩٢٤ م .
ابن عبد الحكم ، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله، فتوح مصر والمغرب ـ طبعة ليدن سنة ١٩٢٢
ابن مسكوية ، أبو على أحمد بن محمد، تجارب الأمم وتعاقب الهمم ـ القاهرة ١٩١٥ ـ ١٩١٦
أبو شامة ، شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل، الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية طبعة النيل ، بدون تاريخ

أبو صالح الأرمنى ، أبو المكارم جرجس بن مسعود، كنائس واديرة مصر ـ اكسفورد ١٨٩٥م
أبو المحاسن ، جمال الدين يوسف بن تغرب، النجوم الزاهرة . المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والنشر ١٩٦٣ م .
الإصطخرى ، أبو اسحاق إبراهيم بن محمد ، المسالك والممالك . ليدن ١٩٢٧ م .
البغدادى ، عبد اللطيف، الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينه بأرض مصر، سلسلة كتابات مصرية القاهرة ١٩٨٨ م .
البلوى ، سيرة أحمد بن طولون
البكرى ، محمد ابن أبى السرور البكرى ، المنح الربانية فى الدولة العثمانية ـ تحقيق دكتوره ليلى الصباغ مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث ، دار البشائر دمشق ١٩٩٥م .
الحموى ، أبو عبد الله ياقوت بن عبدالله .معجم البلدان . دار صادر ١٩٨٦ م
الخشاب ، اسماعيل بن سعد، خلاصة ما يراد من أخبار الأمير مراد تحقيق حمزة بدر و د/ دانيال كريسيلوس العربى للنشر القاهرة ١٩٩٢ م
الدمشقى،شيخ الربوة . شمس الدين أبو عبد الله محمد أبى طالب الاسارة الى محاسن التجارة ـ المطبعة الازهرية ١٣٠١ هـ
الزبيدى ، محمد مرتضى بن محمد الحسينى، لحن العوام ـ القاهرة ١٩٦٤ م
ساويرس بن المقفع ، سيرة الآباء البطاركة للكنيسة القبطية فى الإسكندرية . القاهرة ١٩٥٤م
السيوطى ، عبد الرحمن/ حسن. المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة مطبعة الموسوعات القاهرة ١٣٢٧ هـ
القزوينى ، زكريا محمد بن محمود القزوينى، آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر بيروت ١٩٨٦ م
القلقشندى ، أحمد بن على، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا طبعة المطبعة الأميرية ١٩١٤م
الكندى ، أبو عمر محمد بن يوسف،الولاة والقضاة، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ١٩٠٨ م

المقدسى ،المعروف بالبشارى شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أحمد، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ،ليدن الطبعة الثانية سنة ١٩٠٩ م

المقريزى ، تقى الدين أحمد بن على، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار،طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ

المقريزى ، السلوك فى معرفة دول الملوك،تحقيق د . محمد مصطفى زيادة، د . سعيد عاشور، المجلد الأول ، القسم الأول ، القاهرة ١٩٥٨ م

المقريزى ، إغاثة الأمة بكشف الغمة ،تحقيق دكتور سعيد عاشور ـ كتاب الهلال ، العدد ٤٧٢ ، ١٩٩٠ م

ناصرو خسرو، سفر نامة ترجمة د / يحيى الخشاب ،سلسلة الألف كتاب الثانى ، (١٢٢) الهيئة المصرية العام للكتاب١٩٩٣م

الوطواط ، محمد بن إبراهيم بن يحيى الكتبى ، من مناهج الفكر ومناهج العبر . تحقيق د/ عبد العال الشامى ،الكويت ، السلسلة التراثية ١٩٨١ م

ثانيا : المراجع

أحمد محمد أحمد، المنشآت الصناعية فى العصر المملوكى. رسالة ماجستير كلية الآداب جامعة سوهاج ١٩٨٥م.

د. أحمد مختار العبادى، أحداث مصر الإسلامية والمغرب والأندلس، كتاب ازمنة التاريخ الإسلامى الكويت ١٩٨٢م.

إبراهيم الجمل، مساجد ومعاهد ، كتاب الشعب (٧٥) القاهرة ١٩٦٠م.

د. أبو الحمد فرغلى، الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية فى القاهرة ـ الدار المصرية اللبنانية ١٩٩١م.

أدولف جروهمان، أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية ترجمة د . حسن إبراهيم ، دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٣٠م.

أسامة عبد النعيم، اسوار صلاح الدين وأثرها فى امتداد القاهرة حتى عصر المماليك ـ رسالة ماجستير بكلية الآثار جامعة القاهرة ١٩٩٢م.

اندرية ريمون، القاهرة تاريخ حاضرة - ترجمة لطيف فرج دار الفكر للدراسات القاهرة ١٩٩٤م.

بارتول (ف) تاريخ الحضارة الإسلامية ، دار المعارف القاهرة ، ط، ١٩٨٣م.

د. جمال محرز منازل الفسطاط كما تكشف عنها حفائر الفسطاط أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة . دار الكتب ١٩٧٠م.

د. حسن الباشا، دراسات فى الحضارة الإسلامية دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٥م.

د. حسن الباشا، قبل ان تكون القاهرة كتاب القاهرة تاريخها وفنونها وآثارها . الأهرام ١٩٦٩م.

د. حسن الباشا، مدخل إلى الآثار الإسلامية . دار النهضة العربية القاهرة ١٩٨٠م.

حسن عبد الوهاب، طواحين الهواء ، مجلة العمارة المجلد الثالث سنة ١٩٤١ ، العدد ٣، ٤.

حسن عبد الوهاب ، تاريخ المساجد الأثرية القاهرة ١٩٥٠م.

حسن الهوارى ، الفسطاط ١٩٢٧م.

د. حسين مؤنس، تاريخ مصر من الفتح العربى إلى أن دخلها الفاطميون موسوعة تاريخ الحضارة المصرية.

د. حورية سلام ، الحياة الاقتصادية والاجتماعية بمدينة الفسطاط حتى العصر الفاطمى - رسالة ماجستير كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٧٣م.

خالد عزب ، فقه العمارة الإسلامية دار النشر للجامعات المصرية ١٩٩٧م.

رؤوف حبيب ، كنائس القاهرة ١٩٥٩م.

د. سعاد ماهر، القاهرة القديمة وأحياؤها ، المكتبة الثقافية ، العدد ٧٠ - ١٩٦٢م.

د. سعاد ماهر، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة ١٩٧٧م.

د. سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٠م.

د. سيدة إسماعيل الكاشف ، مصر فى عصر الاخشيديين.
صالح لمعى التراث المعمارى الإسلامى فى مصر ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨٤م.
د. عاصم رزق ، مراكز الصناعة فى مصر الإسلامية. سلسلة الألف كتاب الثانى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩م.
عباس حلمى، تطور المسكن المصرى من الفتح الإسلامى إلى الفتح العثمانى رسالة دكتوراة جامعة القاهرة ١٩٦٨م.
عبد الله خورشيد ، القبائل العربية فى مصر.
عبد الرحمن الأطرم، الإعلان بأحكام البنيان ، رسالة ماجستير بمعهد القضاء العالى جامعة الأمام محمد بن سعود بالرياض ١٤٠٣ هـ.
د. عبد الرحمن زكى ، الفسطاط وضاحيتها العسكر والقطائع ، المكتبة الثقافية ١٩٦٦م.
د. عبد الرحمن زكى، حواضر العالم الإسلامى، مكتبة الإنجلو ١٩٧٩م.
د. عبد الرحمن زكى، موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام - مكتبة الأنجلو الطبعة الثامنة ١٩٨٧م.
عبد الرحمن فهمى، النقود العربية ماضيها وحاضرها المكتبة الثقافية (١٠٣) القاهرة ١٩٦٤م.
عبد السلام الزمانينى ، أزمنة التاريخ الإسلامى ، جـ١ ، مجلد ٢ ، الكويت ١٩٦٢م.
د. عبد الحميد سليمان، تاريخ الموانئ المصرية فى العصر العثمانى سلسلة تاريخ المصريين ٨٩ ، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٩٥م.
د. عبد العال الشامى، مدن الدلتا فى العصر العربى ، رسالة دكتوراه بكلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٧٧م.
د. عبد العال الشامى ، مدن مصر وقراها فى القرن الثامن الهجرى سلسلة اصدارات مجلة الآداب والعلوم الإنسانية ، المجلد التاسع ، جامعة المنيا ١٩٩١م.
د. عفاف صبره، المدارس فى العصر الأيوبى ، بحث فى كتاب تاريخ المدارس الإسلامية ، سلسلة تاريخ المصريين ١٩٩٢م.

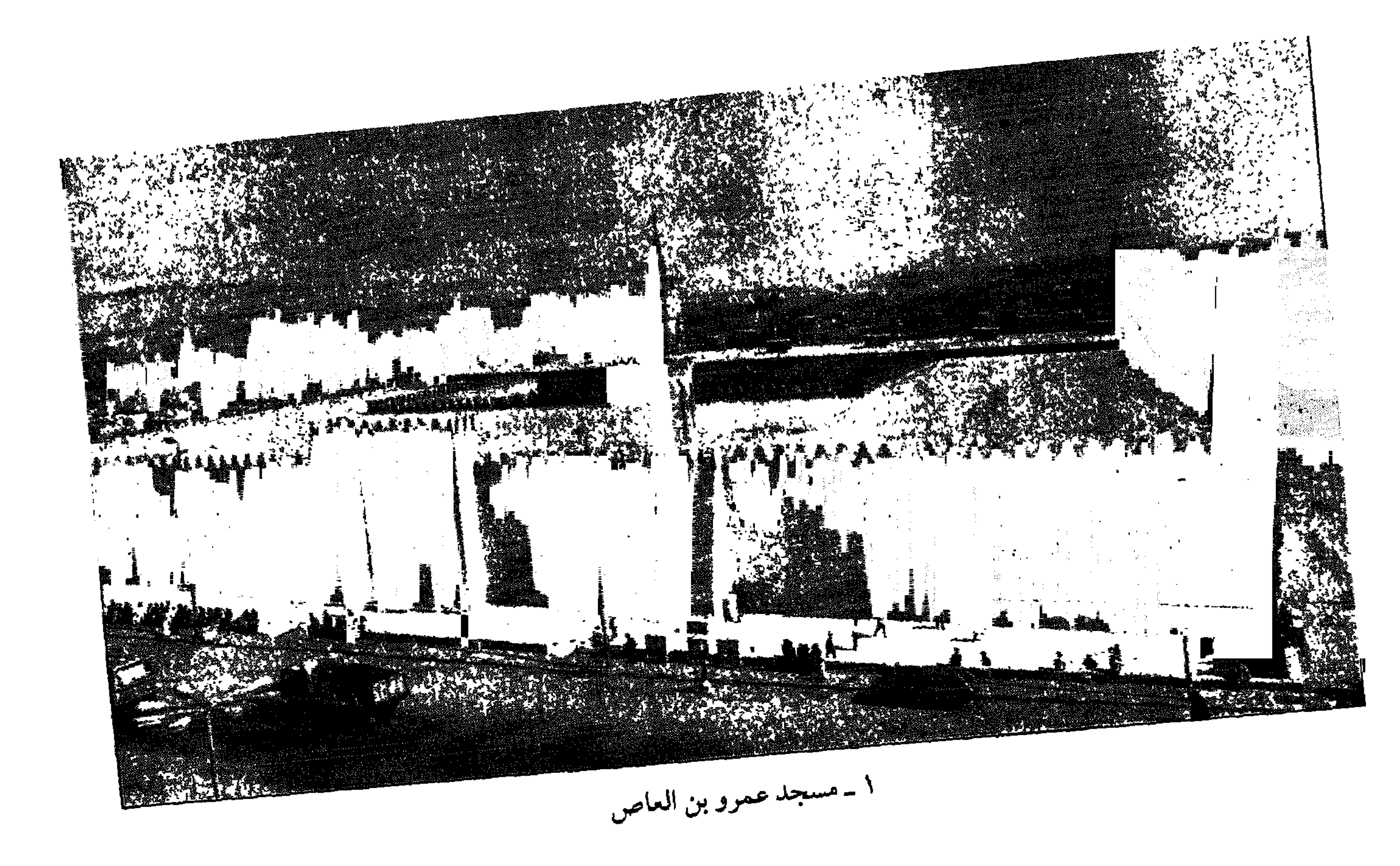
على بهجت والبيرجابريل ، حفائر الفسطاط ، القاهرة ١٩٢٨م.
على باشا مبارك، الخطط التوفيقية ـ طبعة المطبعة الأميرية .
د. على محمد فهمى ، البحرية الإسلامية فى شرق البحر المتوسط بحث ضمن كتاب البحرية الإسلامية ـ جامعة الإسكندرية ١٩٧٣م .
د. فريد شافعى، العمارة العربية فى مصر الإسلامية ـ المجلد الأول، عصر الولاة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٠م.
فؤاد فرج، القاهرة ، جـ ٢ ، ١٩٦٥م.
د. محمد أحمد محمد ، مظاهر الحياة الاجتماعية بالفسطاط فى ولاية عمرو بن العاص مجلة التاريخ والمستقبل ـ المجلد الثانى ، العدد الأول ، ١٩٩٢م .
محمد أبو الفرج العش، مصر القاهرة على النقود العربية الإسلامية بحث ضمن أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ـ دار الكتب المصرية ١٩٧٠م .
د. محمد حسام الدين إسماعيل ، مدينة القاهرة من ولاية محمد على إلى إسماعيل دار الآفاق العربية ـ القاهرة ١٩٩٧م .
محمد رمزى، شاطئا النيل تجاه مصر القديمة والقاهرة ، مجلة العلوم ، السنة التاسعة ، القاهرة ١٩٤٢م .
د. محمد محمد أمين وليلى على إبراهيم ، المصطلحات المعمارية فى الوثائق المملوكية ص ٥٢ ، دار النشر بالجامعة الأمريكية القاهرة ١٩٩١م .
محمود أحمد ، دليل موجز لأشهر الآثار العربية بالقاهرة ١٩٣٨م .
د. محمود الحسينى ، التطور العمرانى لعواصم مصر الإسلامية ـ رسالة دكتوراة ، غير منشورة ، جامعة القاهرة ١٩٨٧م .
مرقص سميكة ، دليل المتحف القبطى وأهم الكنائس والأديره المصرية القاهرة ١٩٣٠م .
د. مصطفى شيحه ، دراسات فى العمارة والفنون القبطية ـ هيئة الآثار المصرية سلسلة المائة كتاب ـ العدد ١١ ، ١٩٨٨م .
ممدوح عبد الرحمن الريطى ، أسواق الفسطاط والقاهرة فى العصر الفاطمى ـ رسالة دكتوراه بكلية الآداب ، جامعة المنيا ١٩٩٢م .

نقولا زيادة ، لمحات من تاريخ العرب ، دار الكتاب اللبنانى ١٩٦١م.
هنرى أمين عوض، لمحة عن الجراحة فى فجر الإسلام بمصر بحث ضمن أعمال المؤتمر العالمى الثانى عن الطب الإسلامى الكويت ١٩٨٢م.
يعقوب صبرى ، النخبة الوافية فى علم الجغرافية مطبعة المدارس الملكية ١٢٩٧ هـ.
يوسف أحمد ، الفسطاط ، سلسلة المحاضرات الأثرية ـ القاهرة ١٩٢٧م.

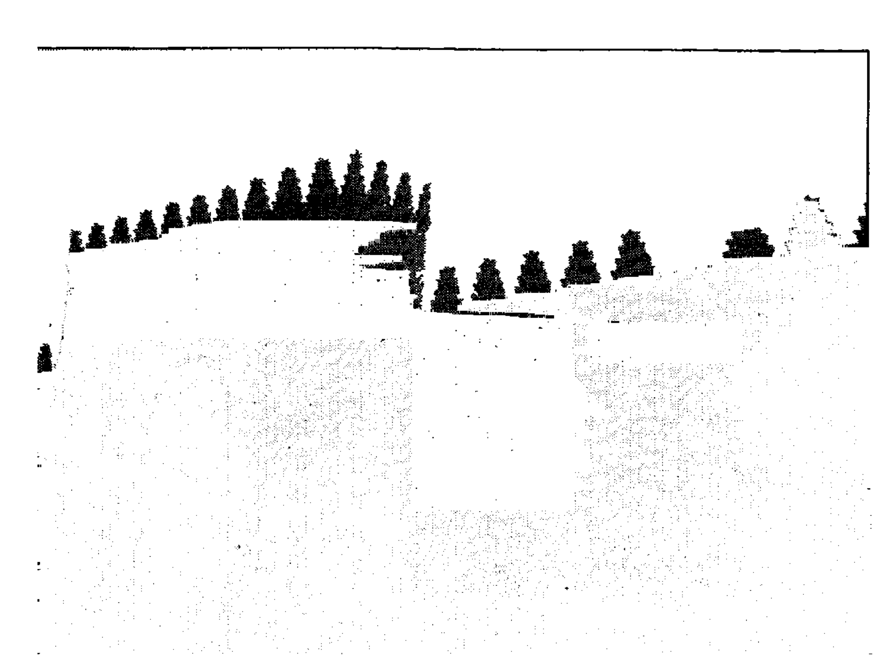
ثالثا : المراجع الأجنبية

Gayrad, is Tabl Antan, Rapport de Fouills annales is Lamologiques n. 1991.
Laila Ali Ibrhım, Residential architeture in mamluk Cairo, Mugurnas, n2. yal unirersity press New haren and London 1984.
Sylvie denoix, Fustat - Misr d.apres iBn Duqumaq et Magrisi, Le Caire. I FoA S.p. 1992.
W. Kubiak , The Burning of Misr al Fustat in 1168, Africana Bulletin, n 75. 1976.
W. Kubiak, AlFustat, The American university Cairo Press- 1988.

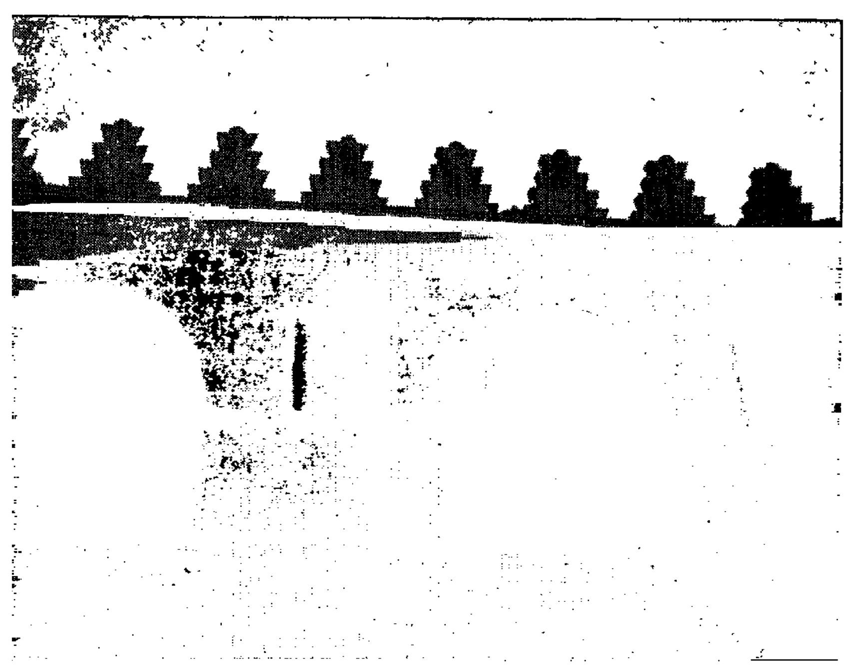
الفهرست



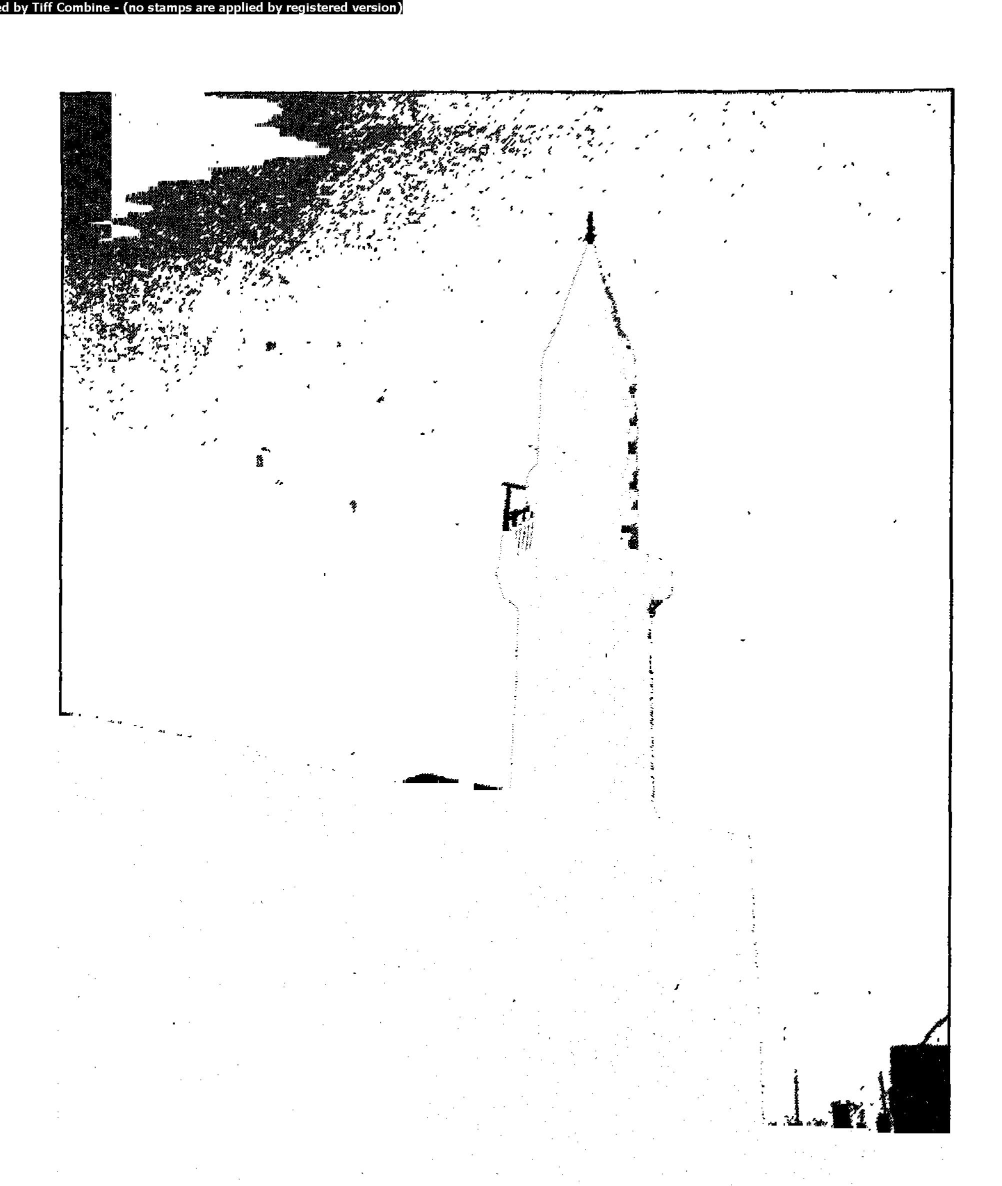
١ ـ مسجد عمرو بن العاص



٢ ـ مدخل مسجد عمرو بن العاص

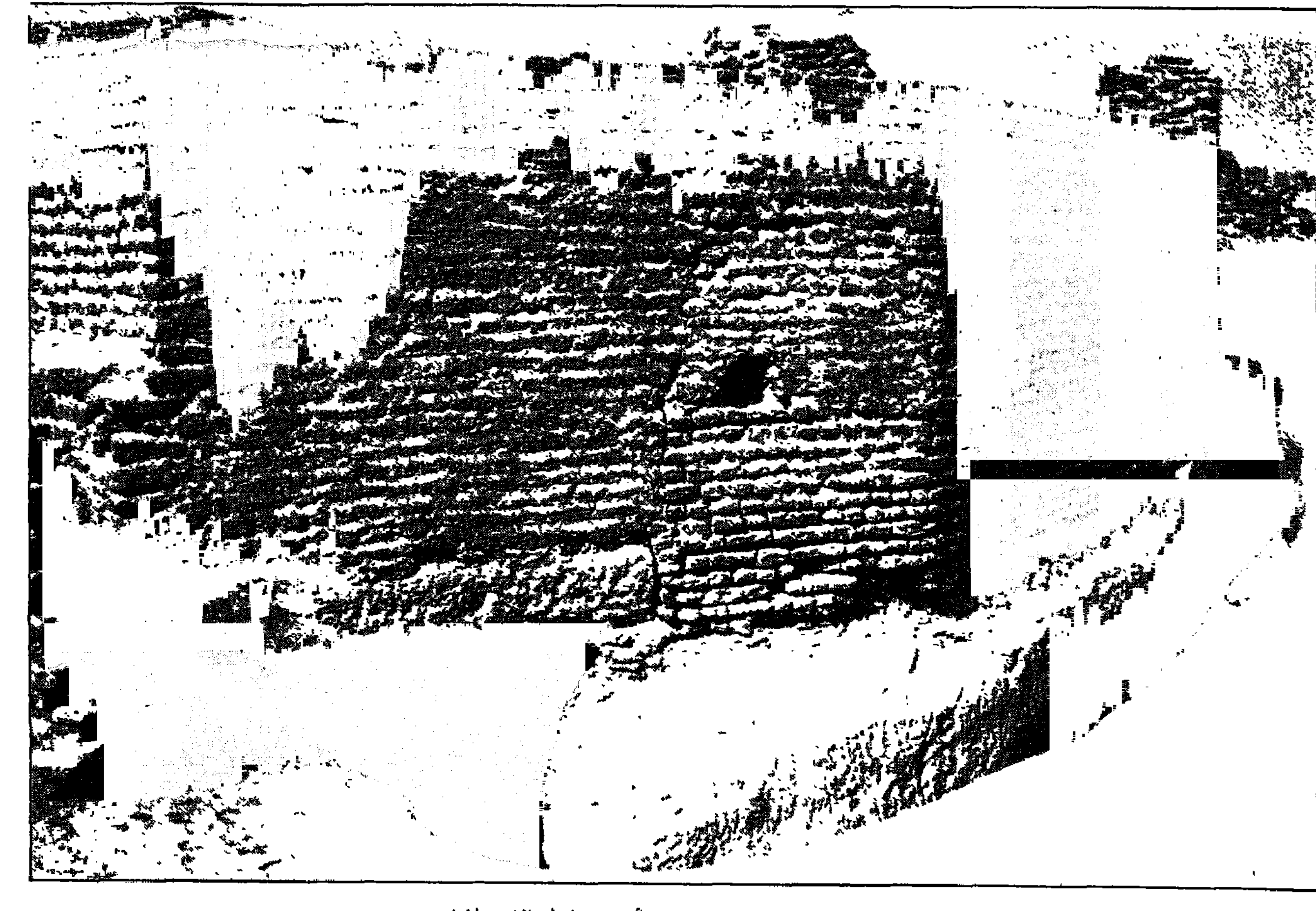


٣ ـ نافذتان بمسجد عمرو بن العاص

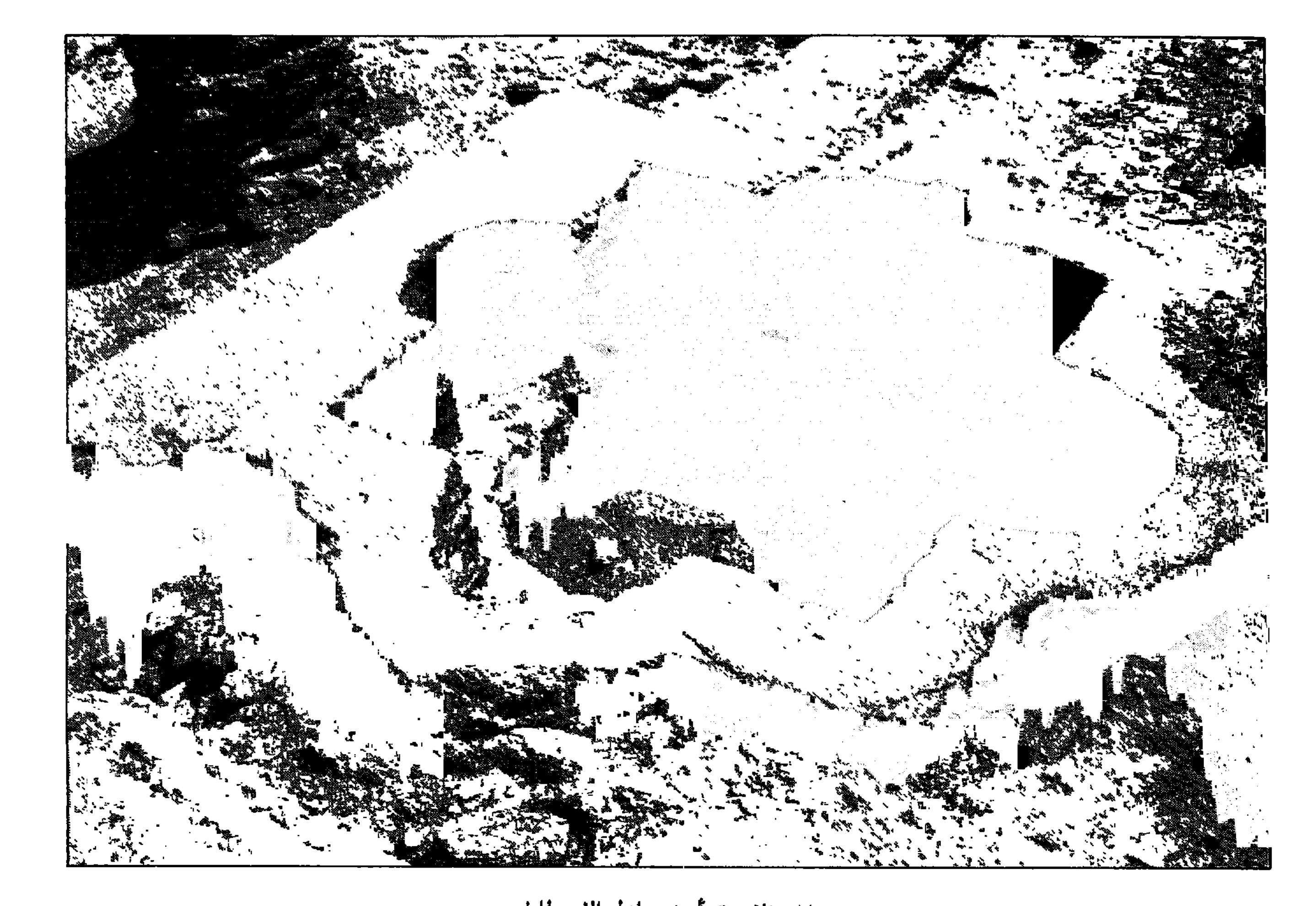


٤ ـ مئذنة مسجد عمرو بن العاص

٥ ـ بقايا منازل الفسطاط

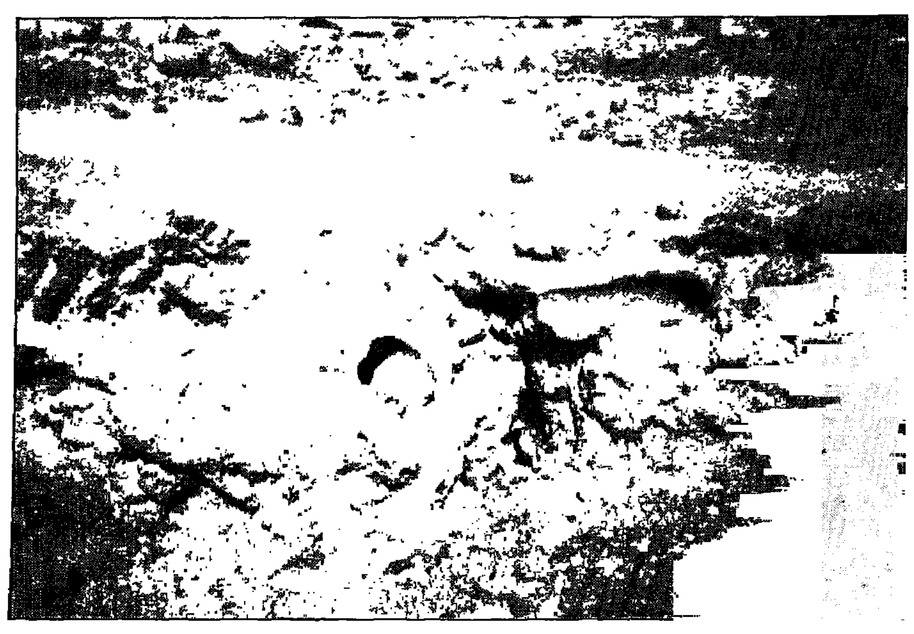


٦ ـ قنوات الصرف الصحى بأحد منازل الفسطاط



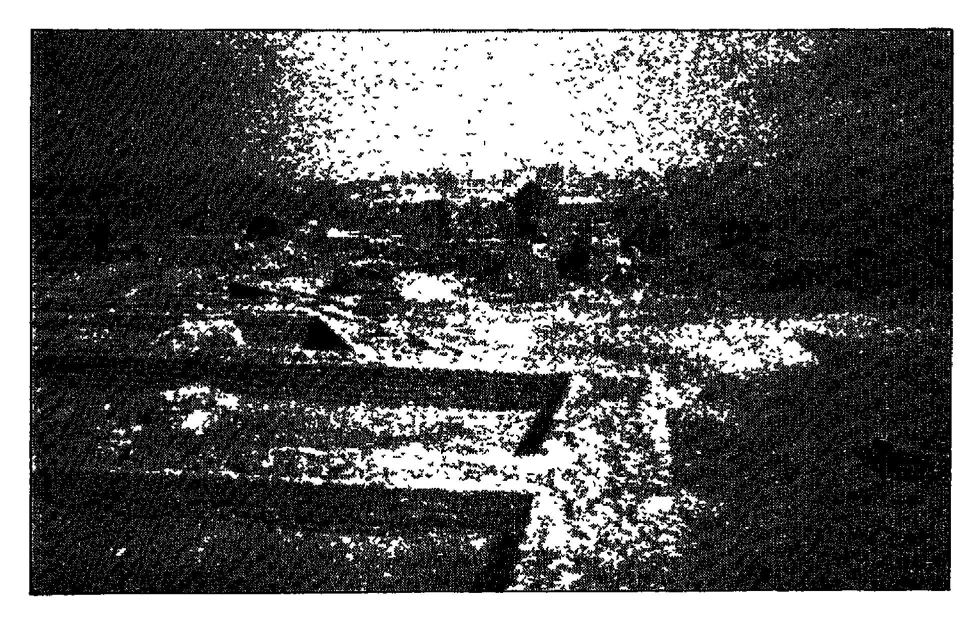
٧ ـ نافورة بأحد منازل الفسطاط

٨ ـ بربخ للمياه بأحد منازل الفسطاط



٩ ـ بربخ للمياه بأحد منازل الفسطاط

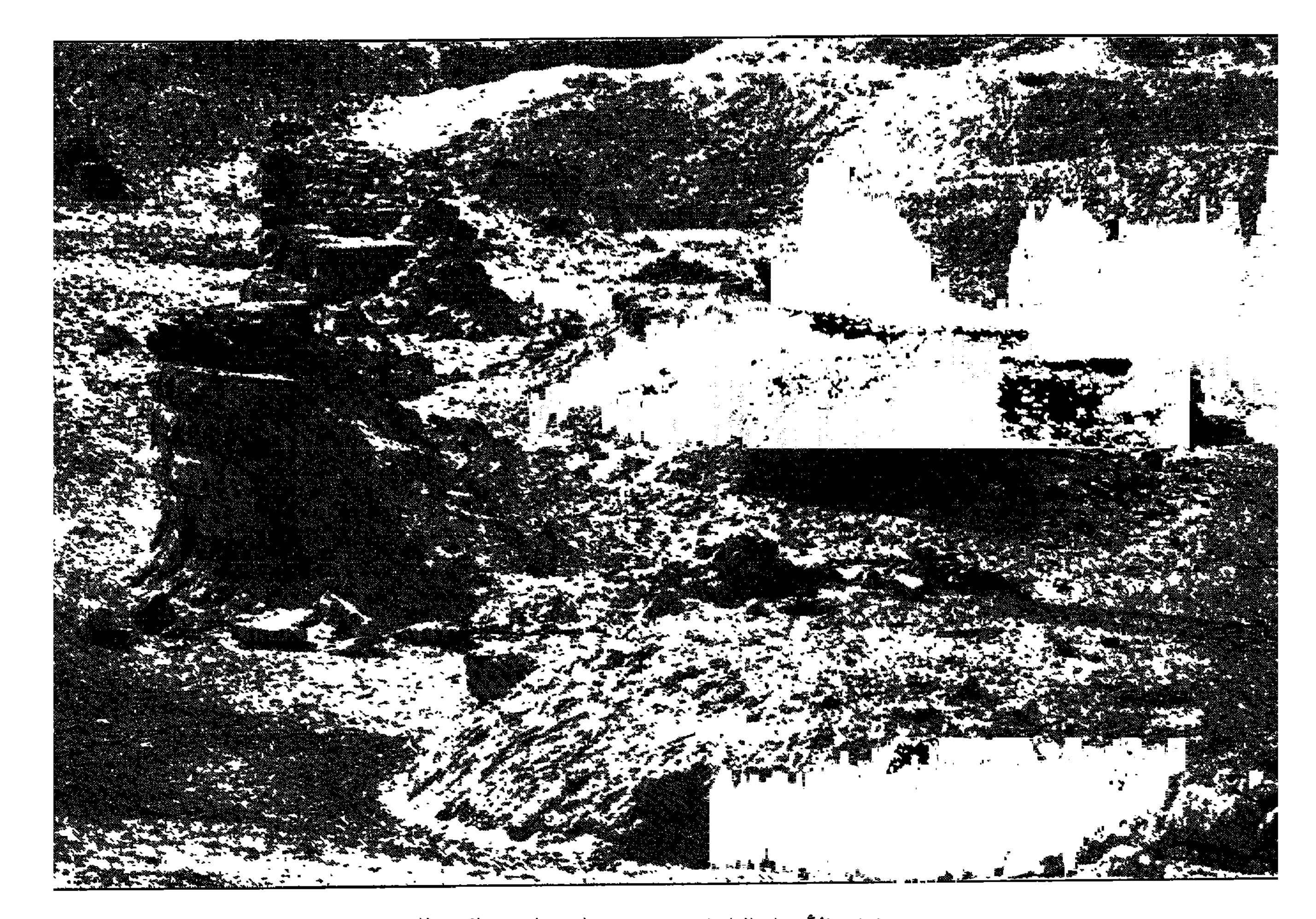
١٠ ـ صهريج مياه بالفسطاط



١١ ـ منظر عام لبقايا مدينة الفسطاط



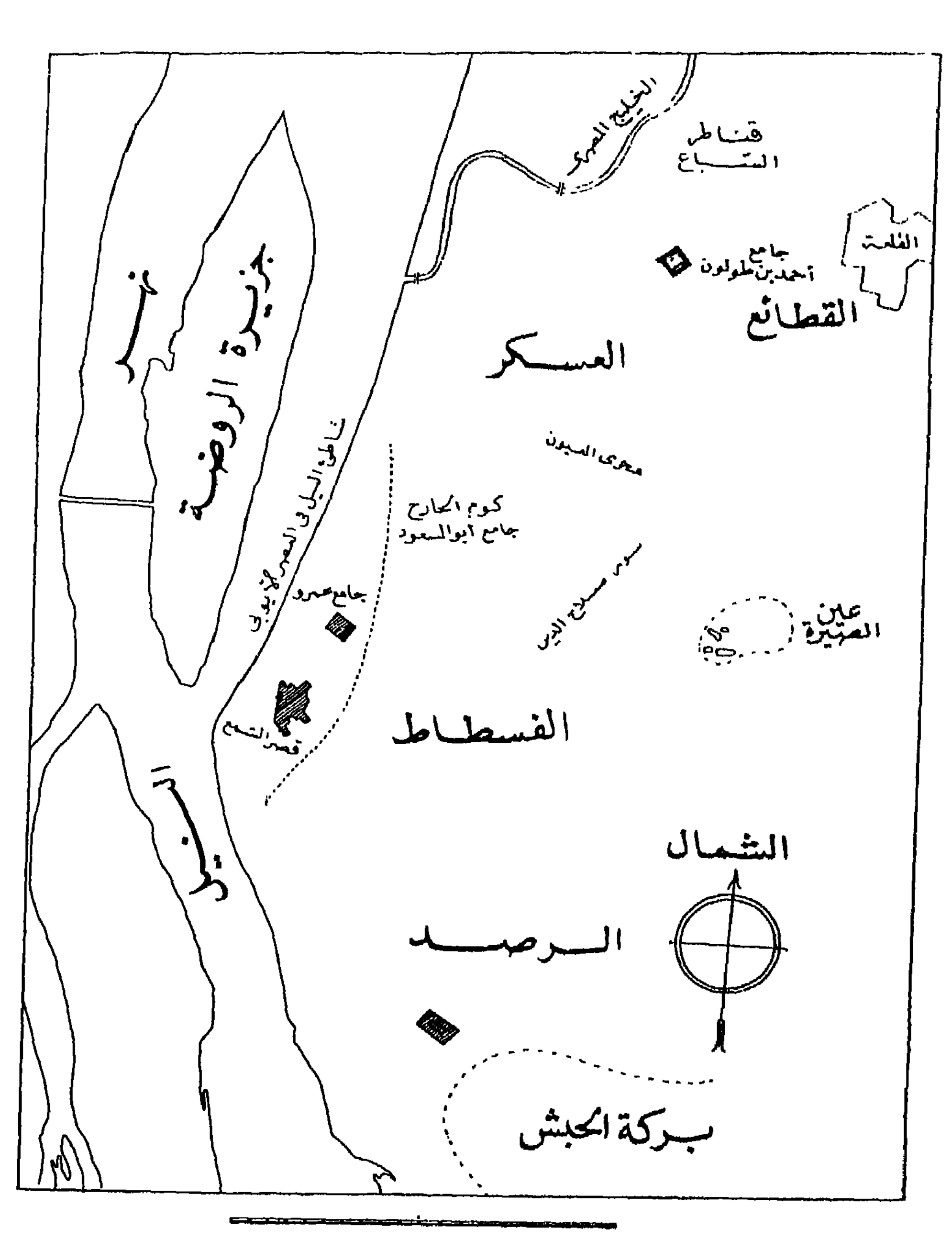
١٢ ـ سور صلاح الدين بالفسطاط



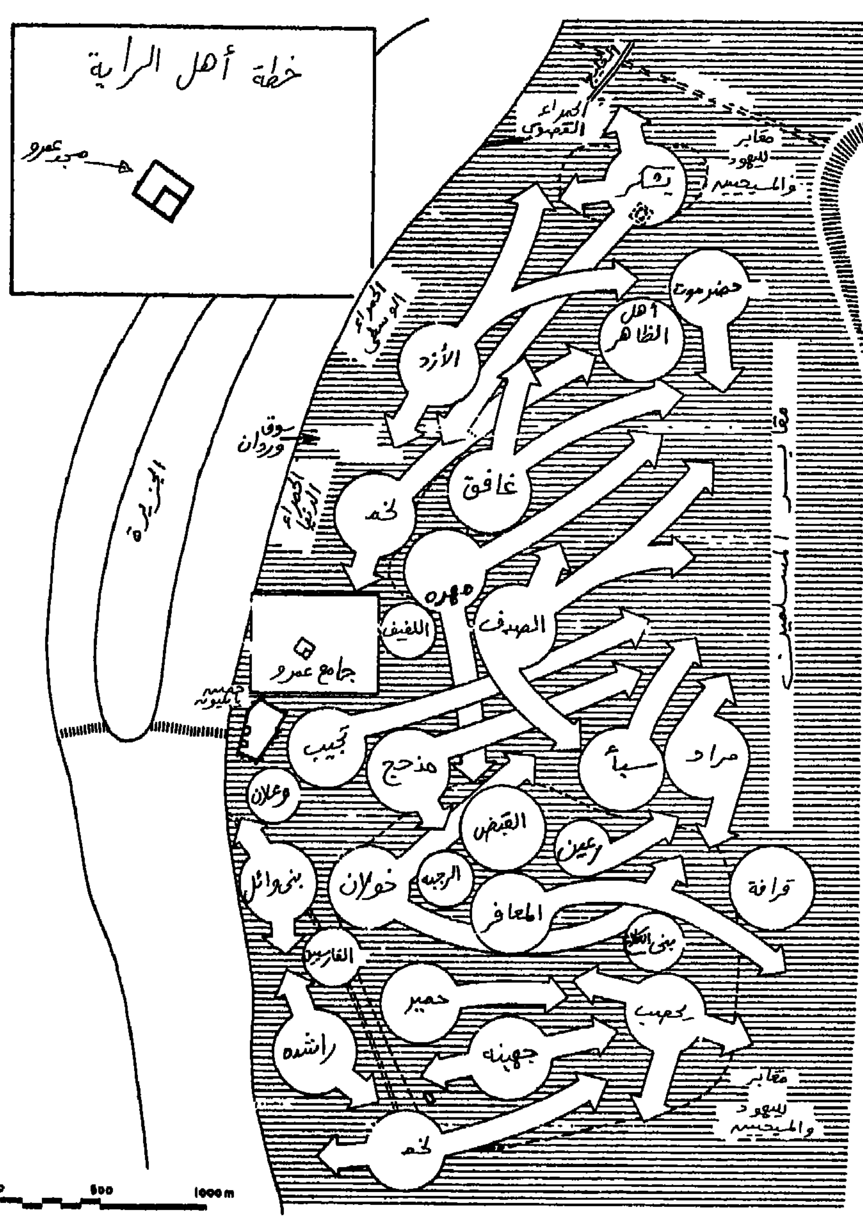
١٣ ـ الأجزاء الباقية من سور صلاح الدين بالفسطاط



١٤ ـ أحد أبراج سور صلاح الدين

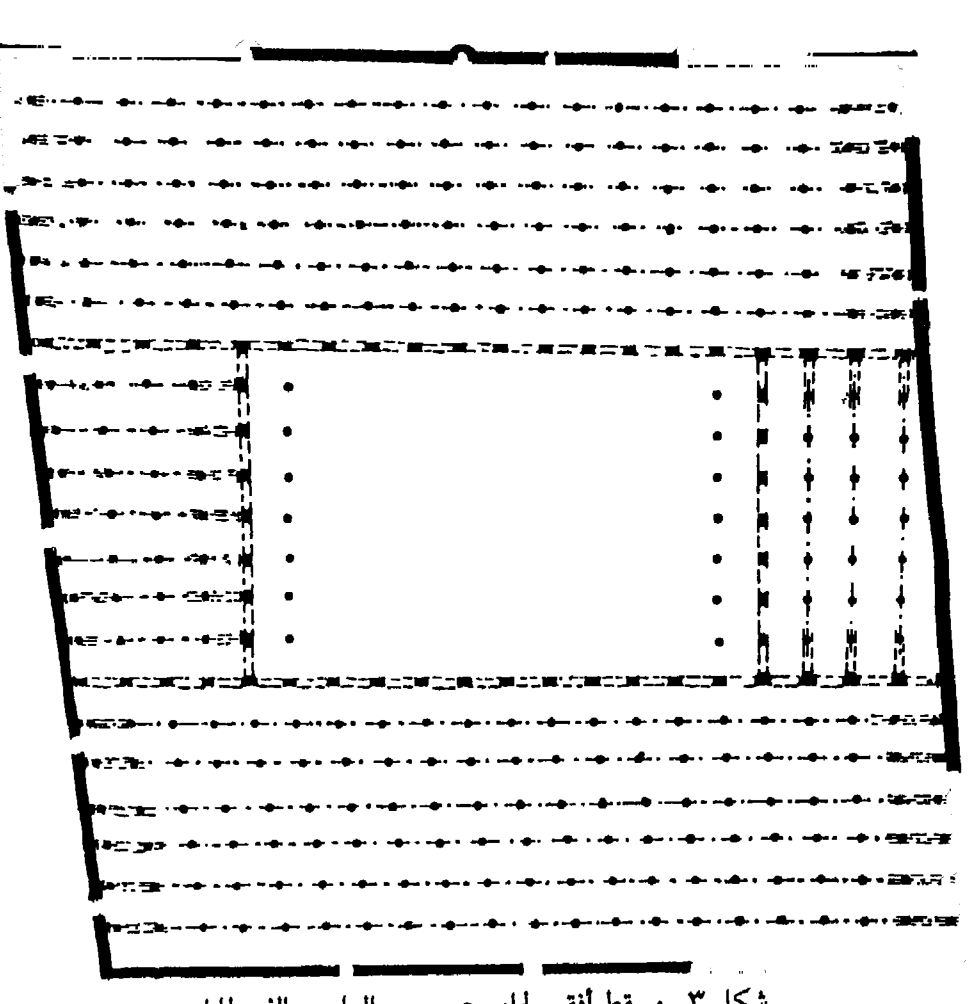


شكل ١ ـ رسم توضيحي لموضع الفُسطاط والعَسْكر والقطائع

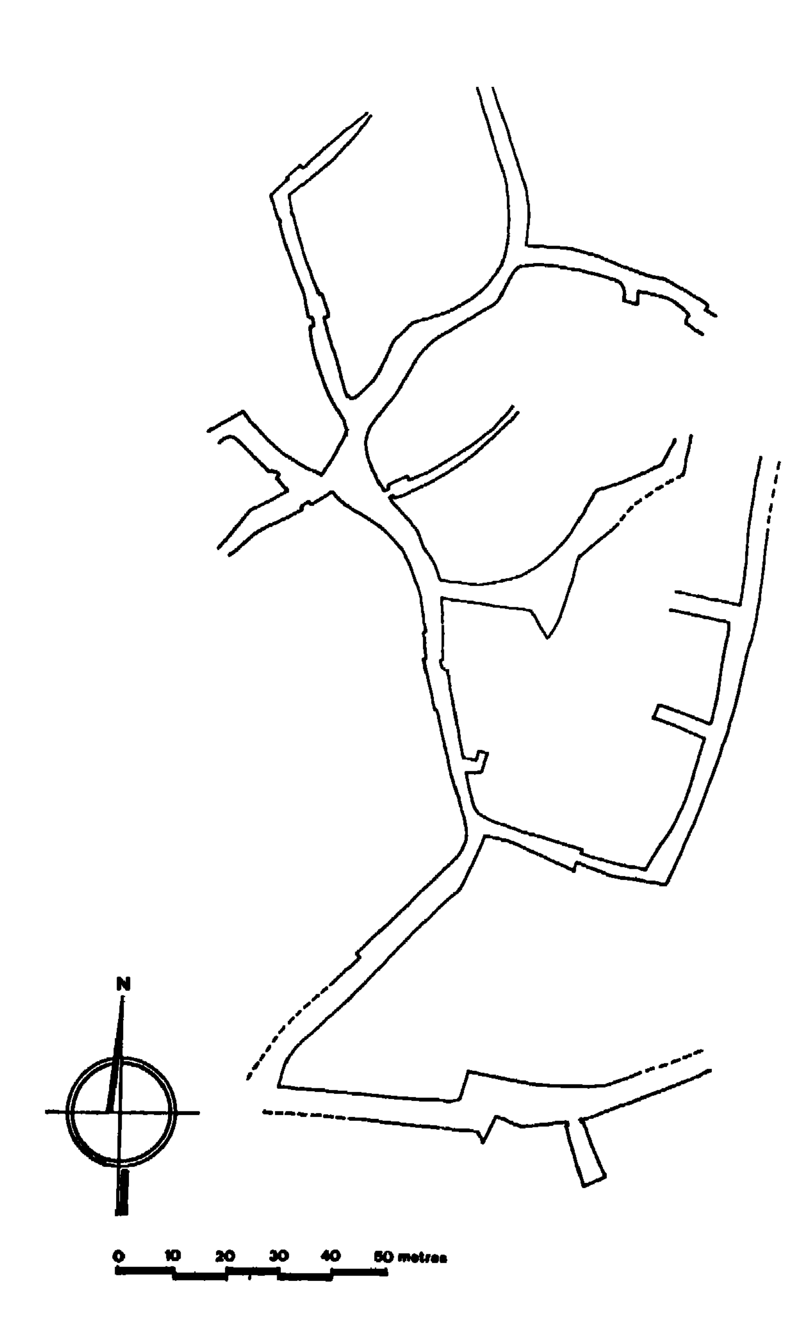


Croquis VII. — Sur la planche IV de W. Kubiak (*The foundation of Fusṭāṭ*), localisant les *ḫiṭṭa*-s, on a reporté la localisation de quelques *dār*-s pour lesquelles cela était possible. Premier établissement : autour de Ǧāmi' 'Amr, deuxième groupe : Sūq Wardān.

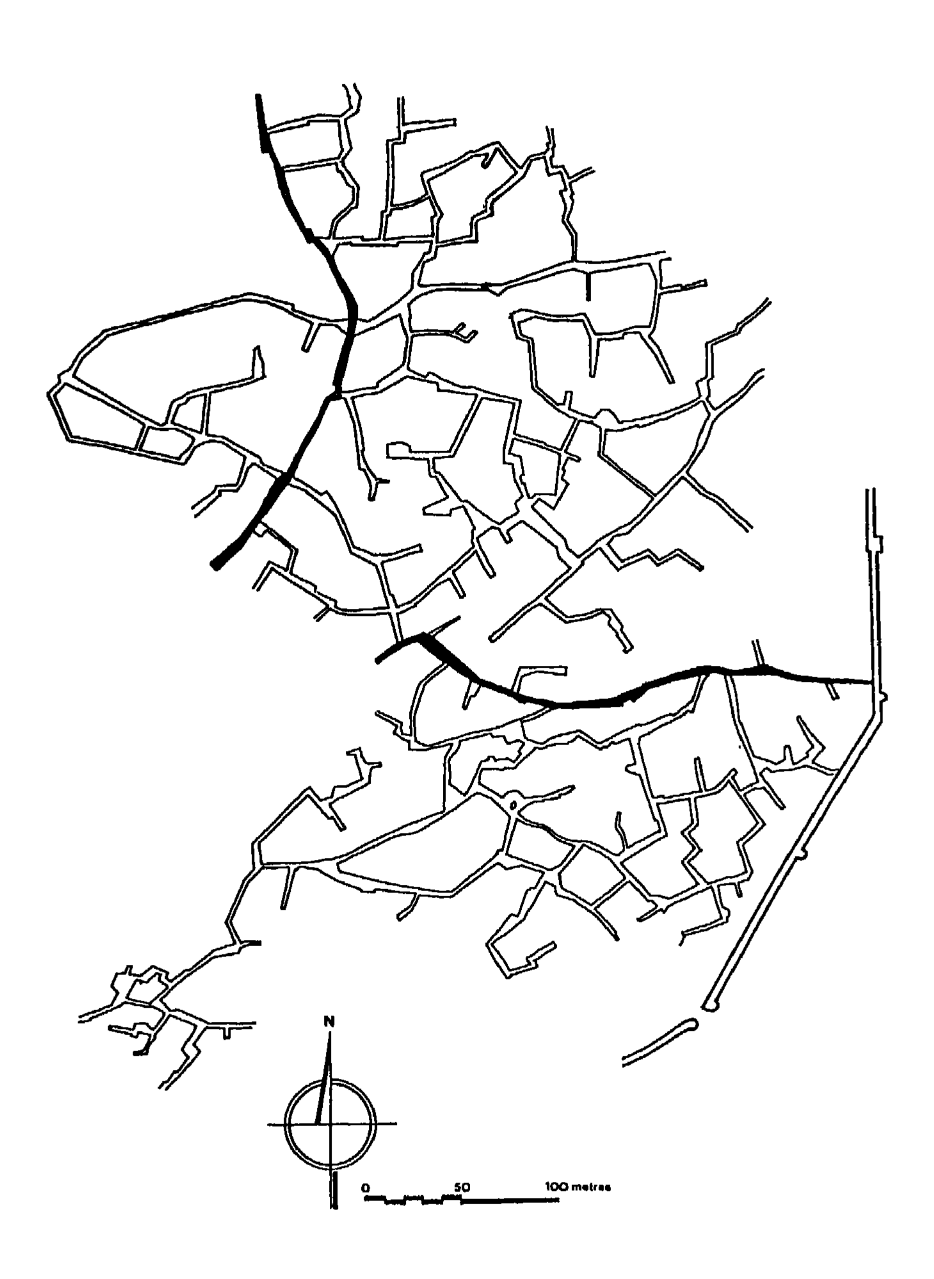
شكل ٢ ـ توزيع القبائل العربية على خطط الفسطاط عن كوبياك



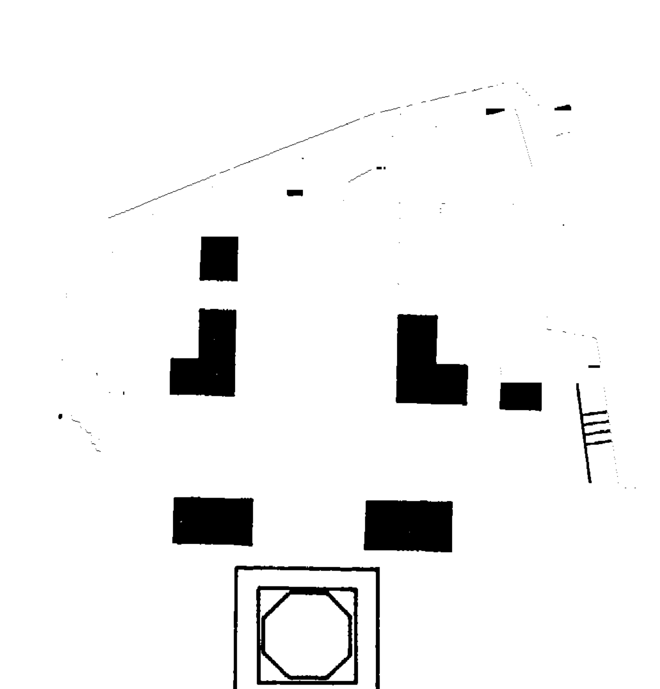
شكل ٣ ـ مسقط أفقى لجامع عمرو بن العاص بالفسطاط

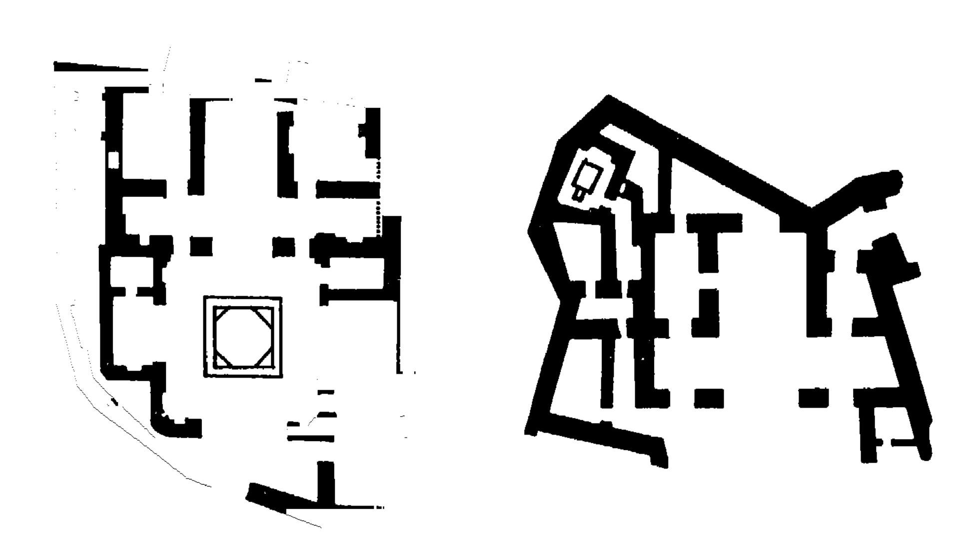


شكل ٤ ـ شوارع الفسطاط فى العصر الأموى

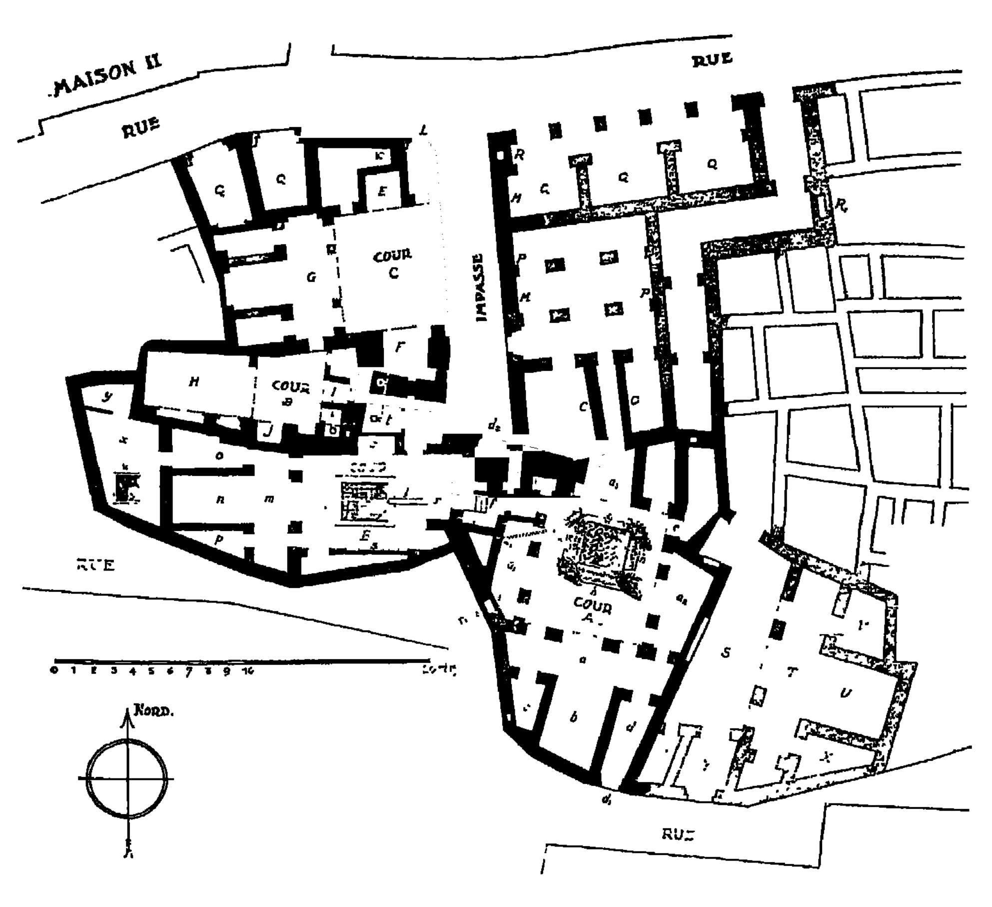


شكل ٥ ـ شوارع الفسطاط طبقا لما اكتشفه على بهجت

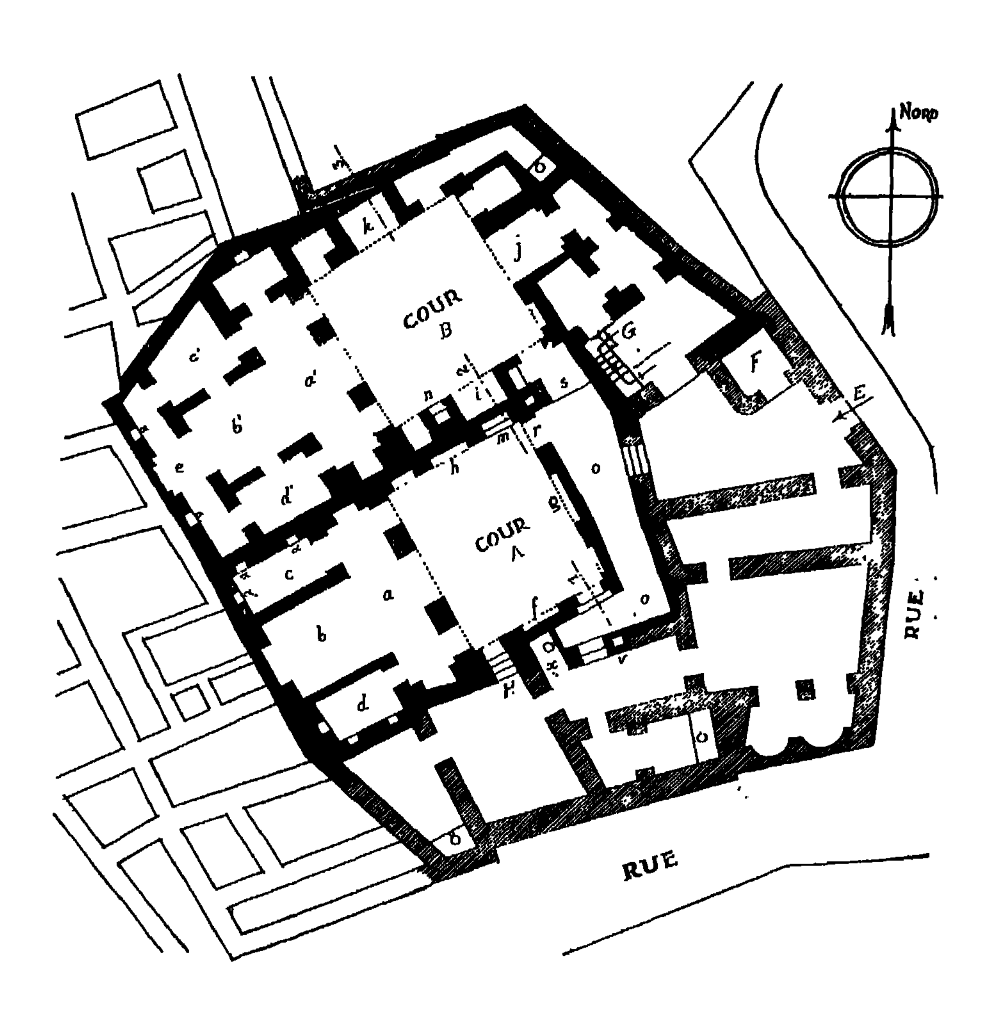




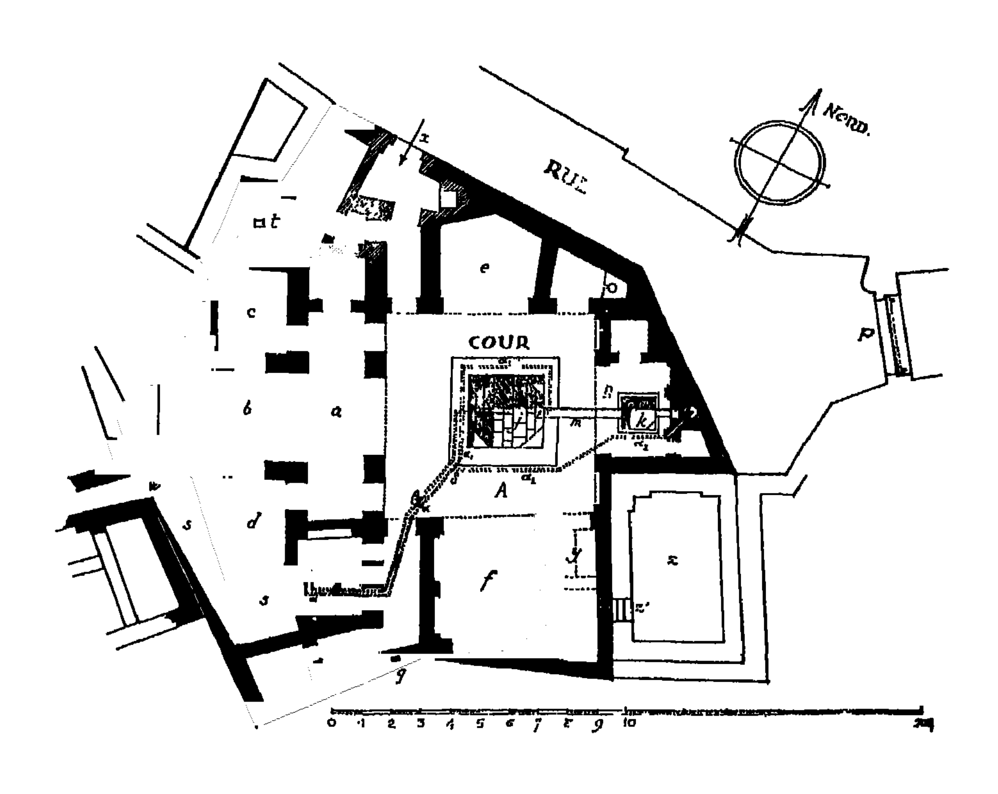
شكل ٦ ـ منازل الفسطاط التى اكتشفها حسن الهوارى



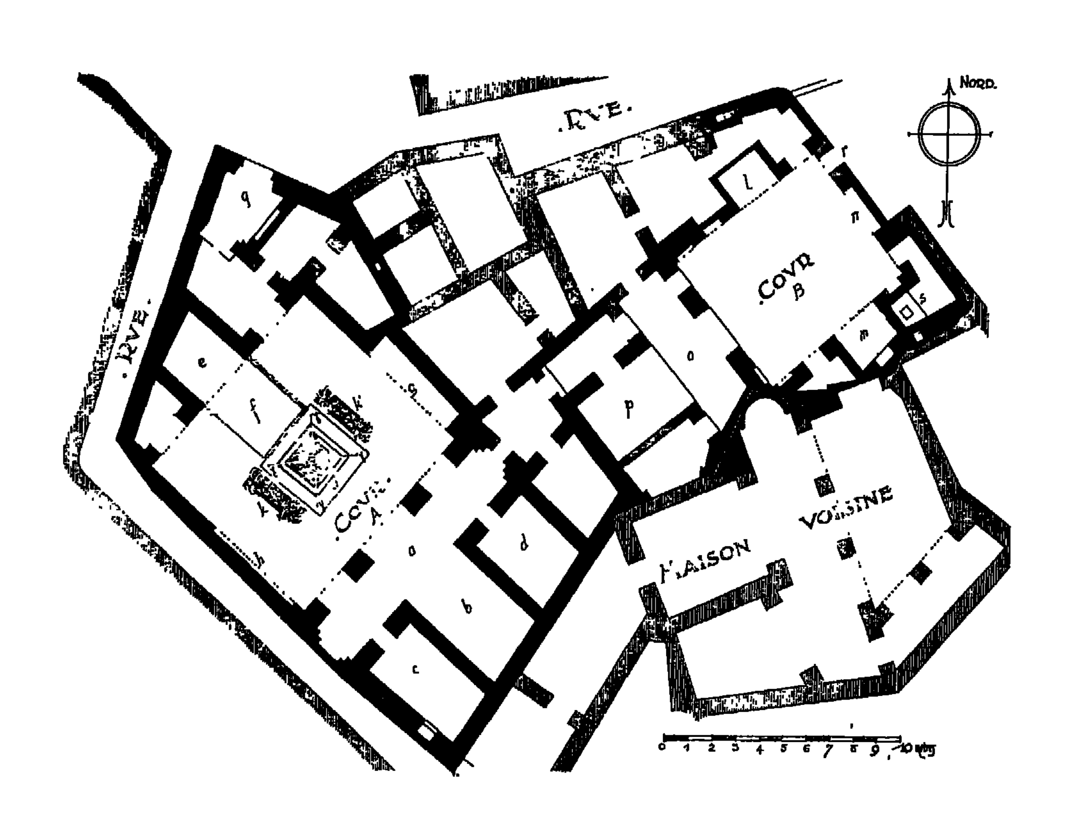
شكل ٧ ـ المجموعة الأولى من الدور (المسقط الأفقي بعد إعادته إلى أصله)



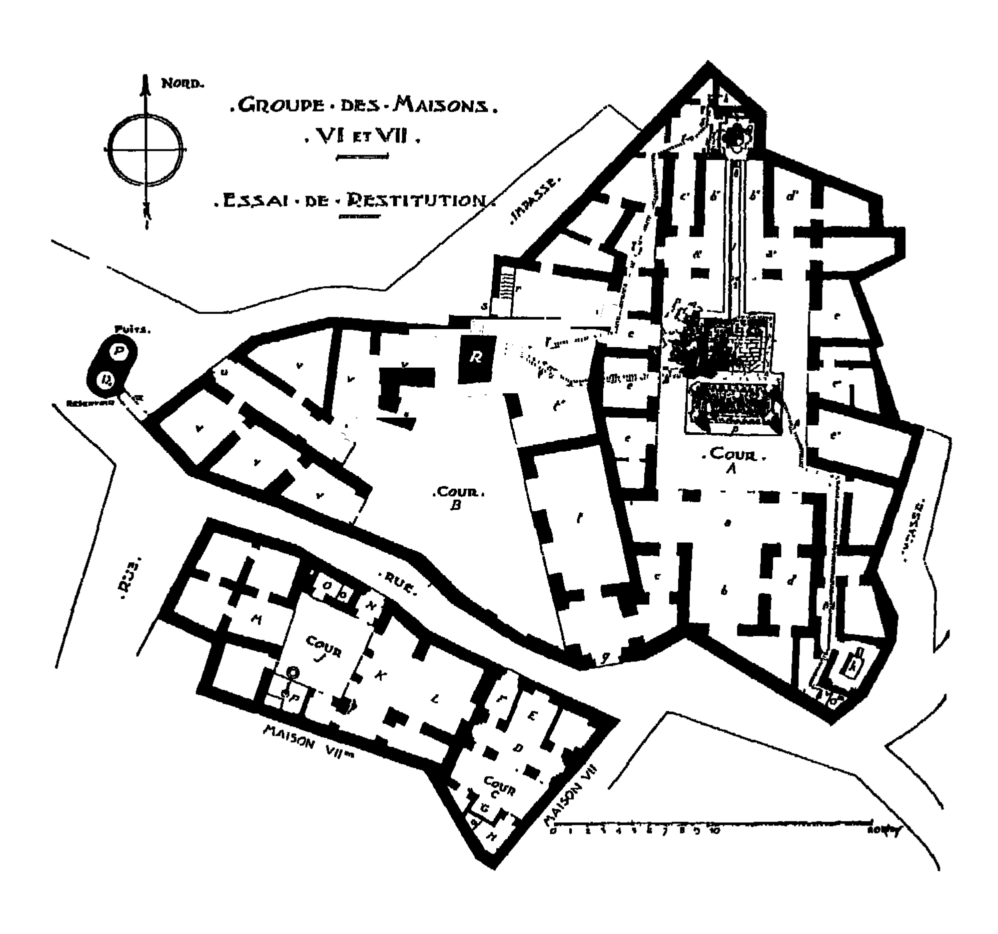
شكل ٨ ـ الدار الثانية (المسقط الأفقى بعد اعادته إلى أصله)



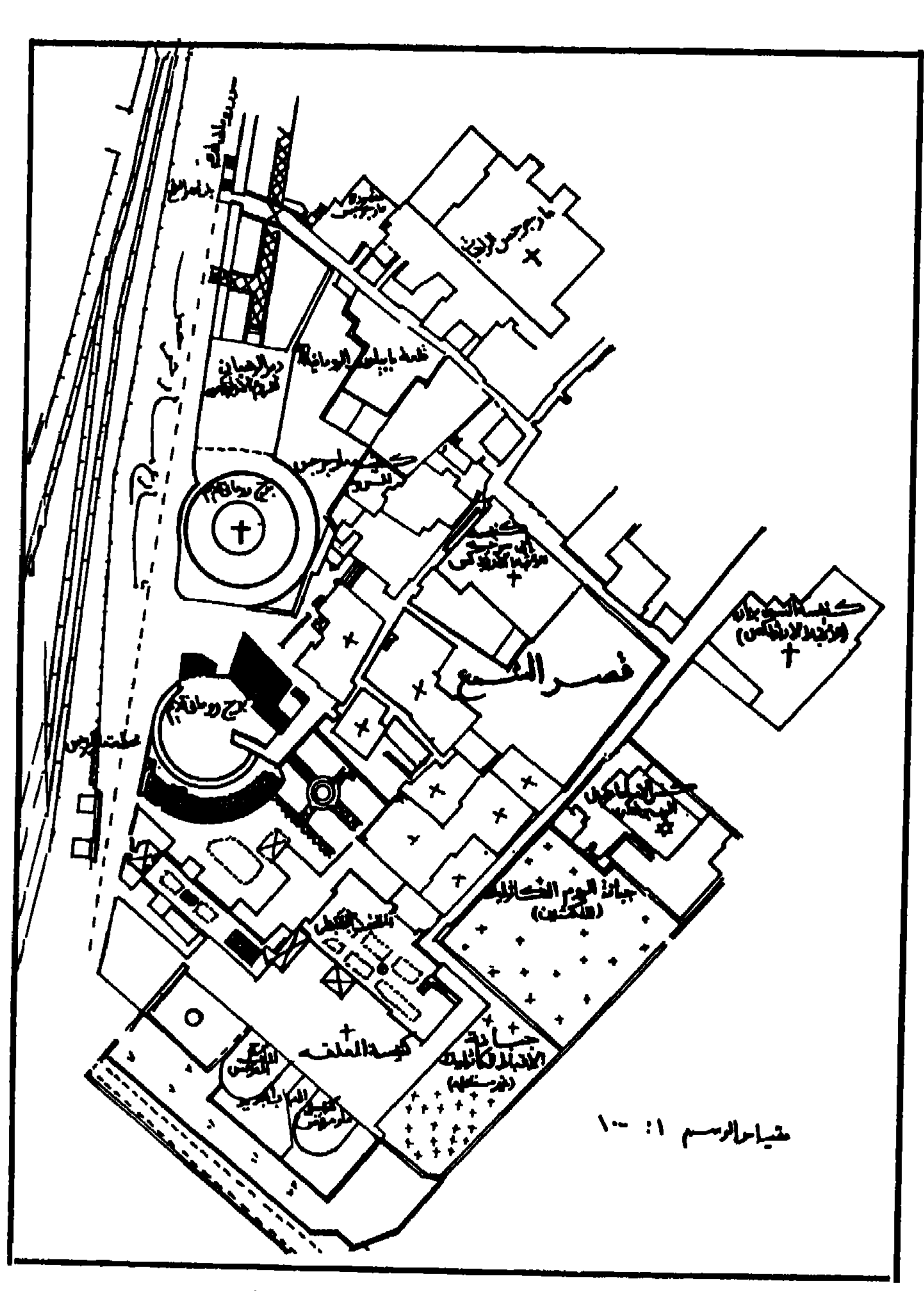
شكل ٩ ـ الدار الثالثة (المسقط الأفقى بعد إعادته إلى أصله)



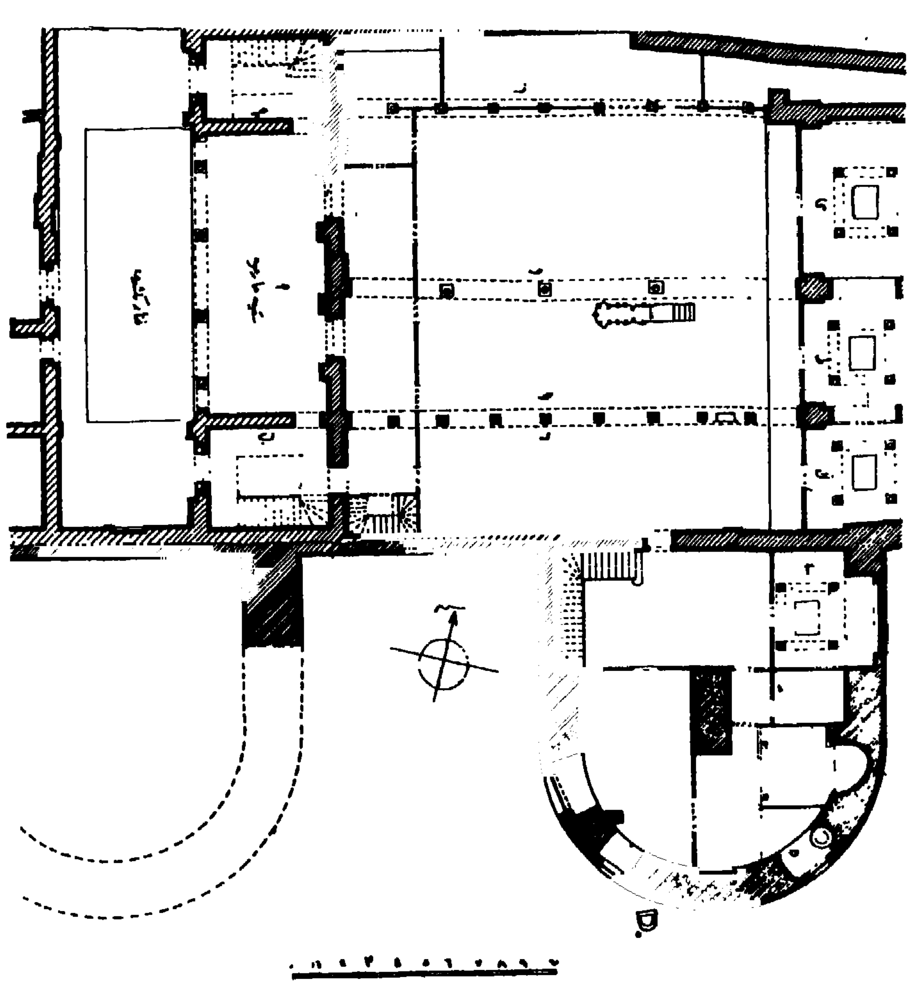
شكل ١٠ ـ الدار الخامسة (المسقط الأفقي بعد إعادته إلى أصله)



شكل ١١ ـ مجموعة الدور السادسة والسابعة (المسقط الأفقي بعد إعادته إلى أصله)



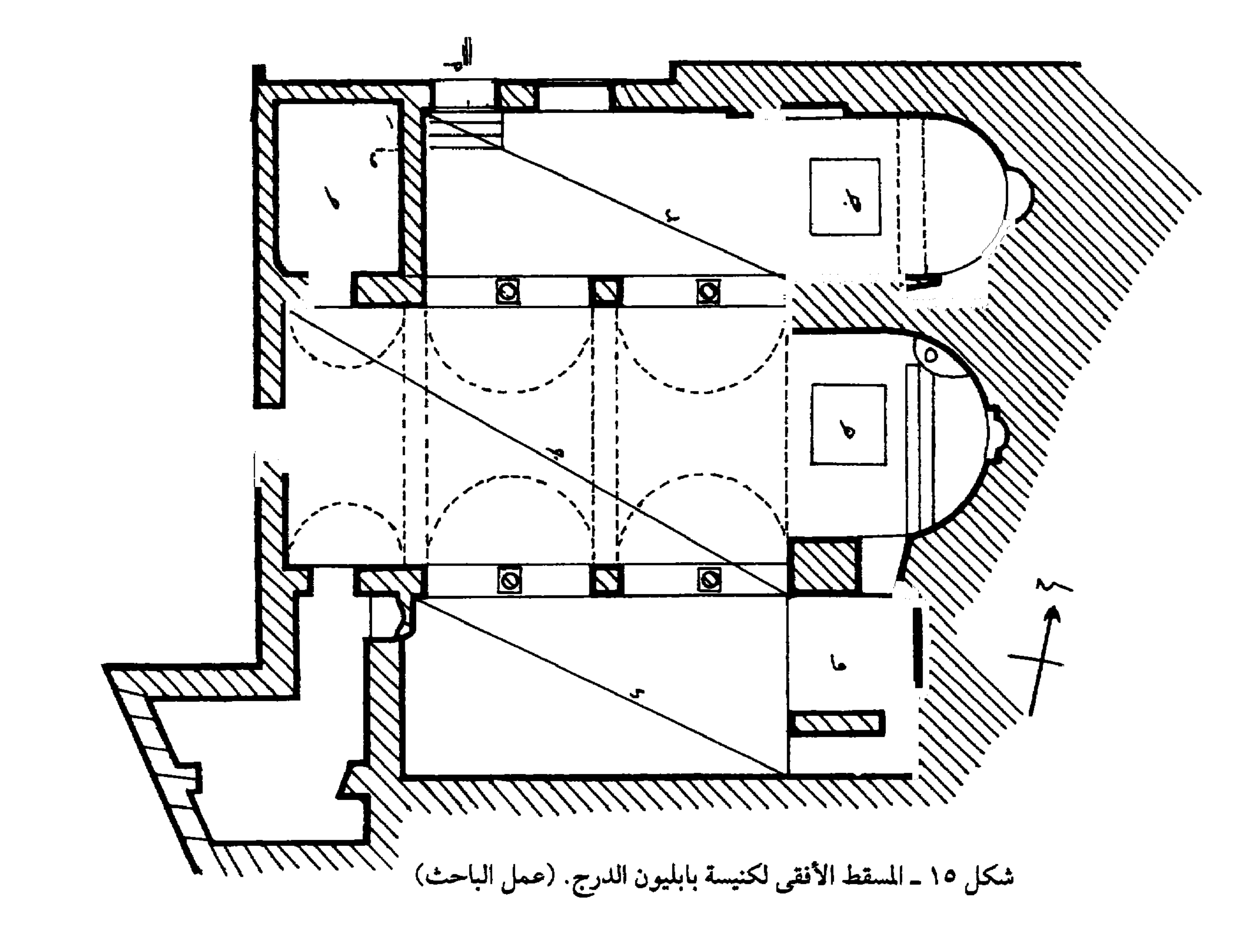
شكل ١٢ ـ الكنائس القديمة داخل حصن بابليون



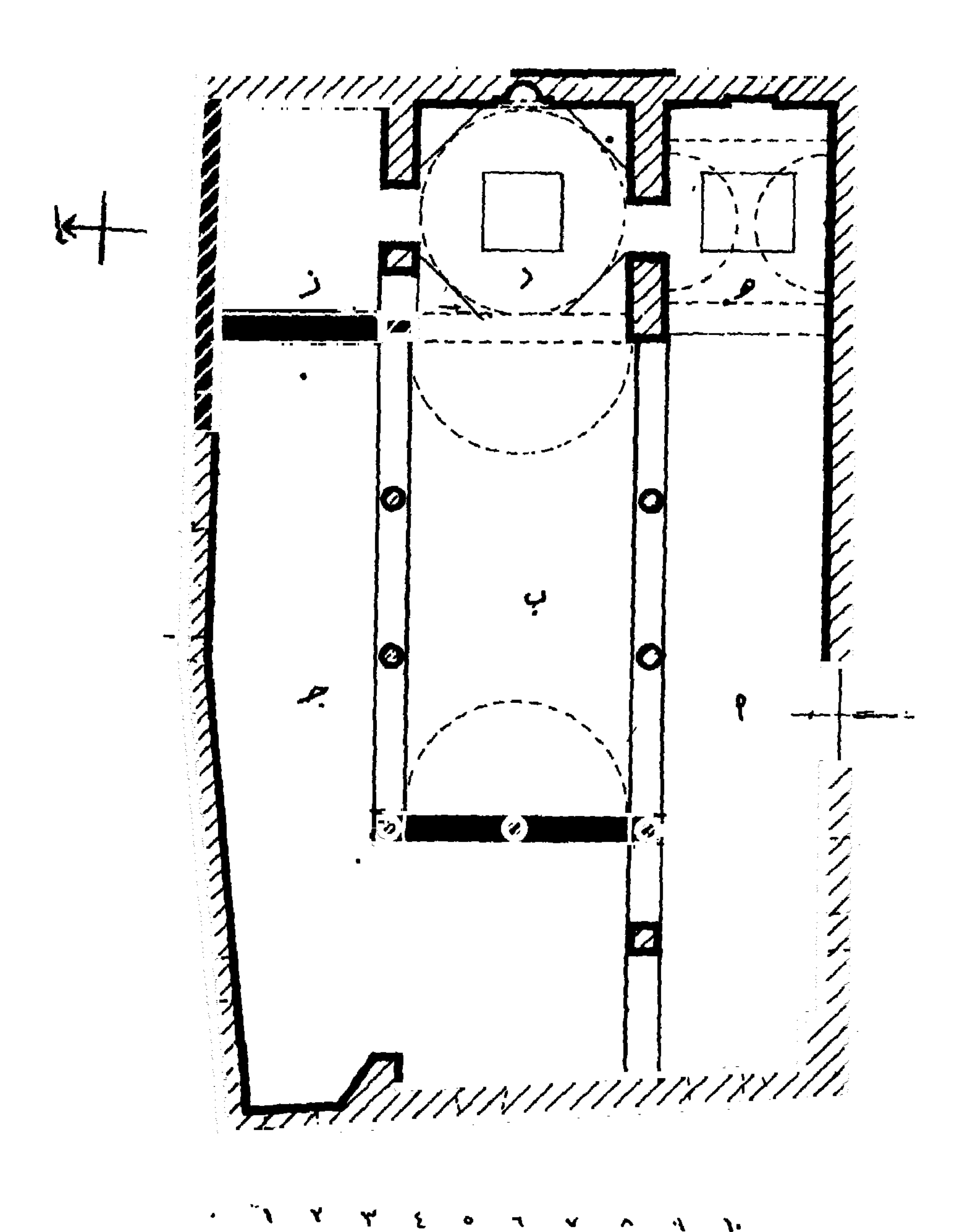
شكل ١٣ ـ المسقط الأفقى لكنيسة المعلقة بمنطقة مصر القديمة. (نقلا عن هيئة الآثار المصرية).



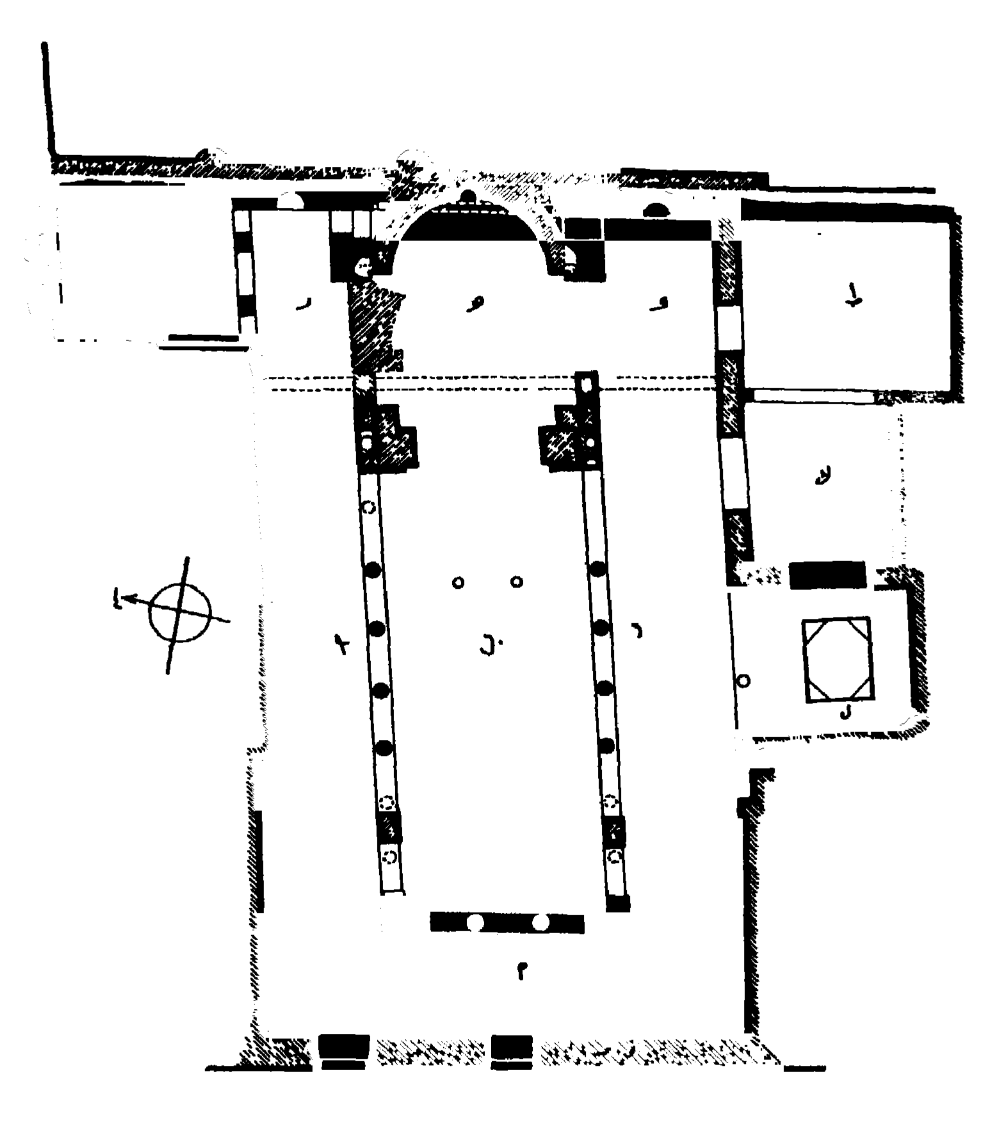
شكل ١٤ ـ قطاع رأسى بكنيسة المعلقة . (نقلا عن هيئة الآثار المصرية)



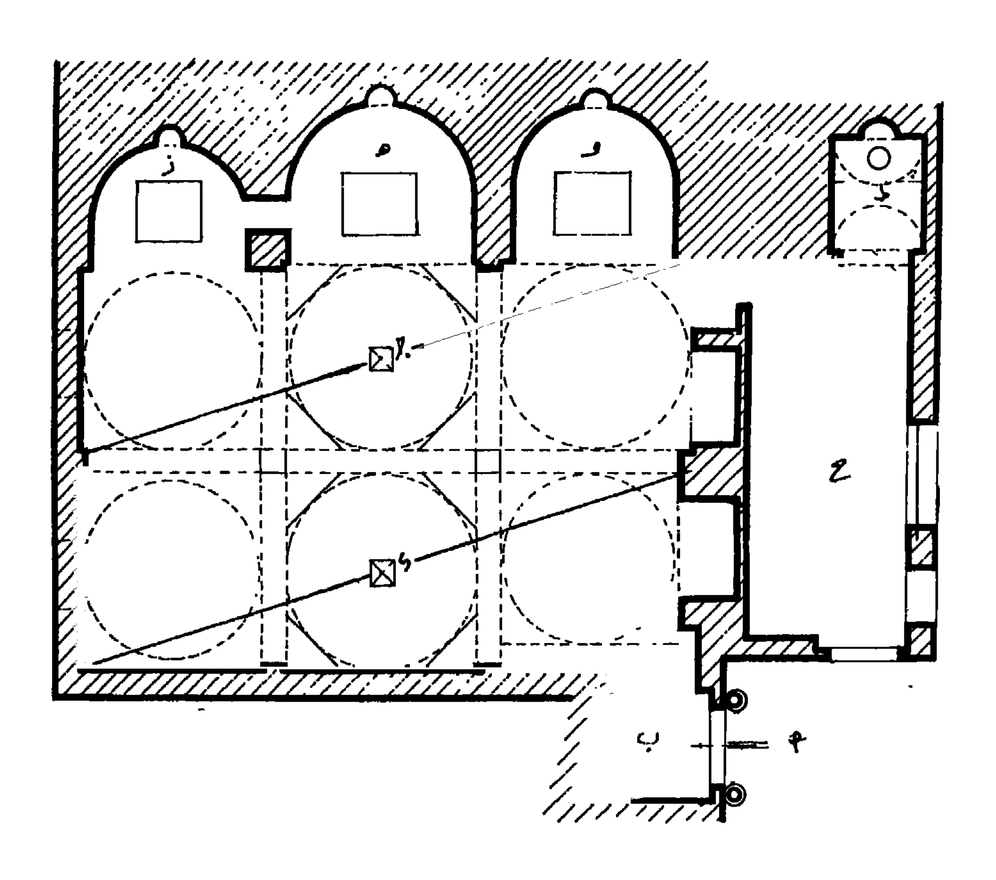
شكل ١٥ ـ المسقط الأفقى لكنيسة بابليون الدرج. (عمل الباحث)



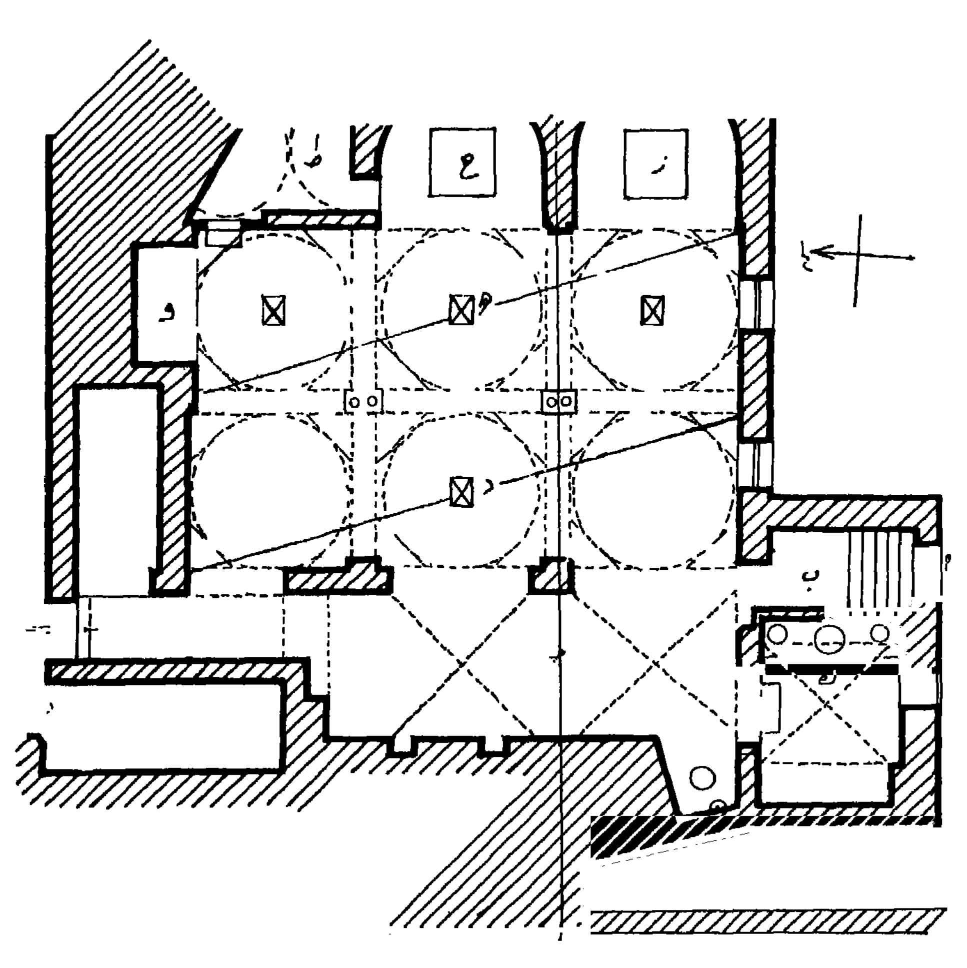
شكل ١٦ـ المسقط الأفقي لكنيسة السيدة العذراء المعروفة بالدمشيرية بمنطقة مصر القديمة . (عمل الباحث)



شكل ١٧ ـ كنيسة الأنبا شنودة بمصر القديمة نقلا عن هيئة الآثار.



شكل ١٨ ـ المسقط الأفـقى لكنيسـة السيدة العـذراء المعروفة بـقصرية الريسـحان بمنطقة مصر القديمة. (عمل الباحث)



شكل ١٩ ـ المسقط الأفقى لكنيسة الأمير تادرس الشرقى بمنطقة مصر القديمة
(عمل الباحث)



دار الأمين للطباعة

٨ ش أبو المعالي (العجوزة) الجيزة - ت/فاكس: ٣٤٧٣٦٩١

٤ ش سوهاج من ش الزقازيق - الهرم - ت/فاكس : ٥٦٣٤٦٩٩





هذا الكتاب

- عندما فتح عمرو بن العاص مصر أسس مدينة الفسطاط ، وجاءت هذه المدينة لعسكر تطور مع الزمن ليتحول إلى مدينة تقوم بالإضافة للوظيفة السياسية ، بوظيفة اقتصادية حيث تحولت إلى مركز تجارى وصناعى هام شهد أوج ازدهاره فى العصر الفاطمى الذى يعتبر بداية انحسار الوظيفة السياسية عن المدينة ، والتى تحولت إلى ضاحية من مركز تجارى صناعى أخذت أهميته تتضاءل بمرور السنين .
- وتحول اسم المدينة من الفسطاط إلى مصر وصارت تعرف الآن بمصر القديمة .
- وفى هذا الكتاب ستقرأ المراحل التى مرت بها المدينة عبر العصور ، وصورة لعمرانها فى أوج ازدهارها ، وتعريف بالآثار الباقية فيها .